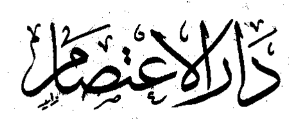
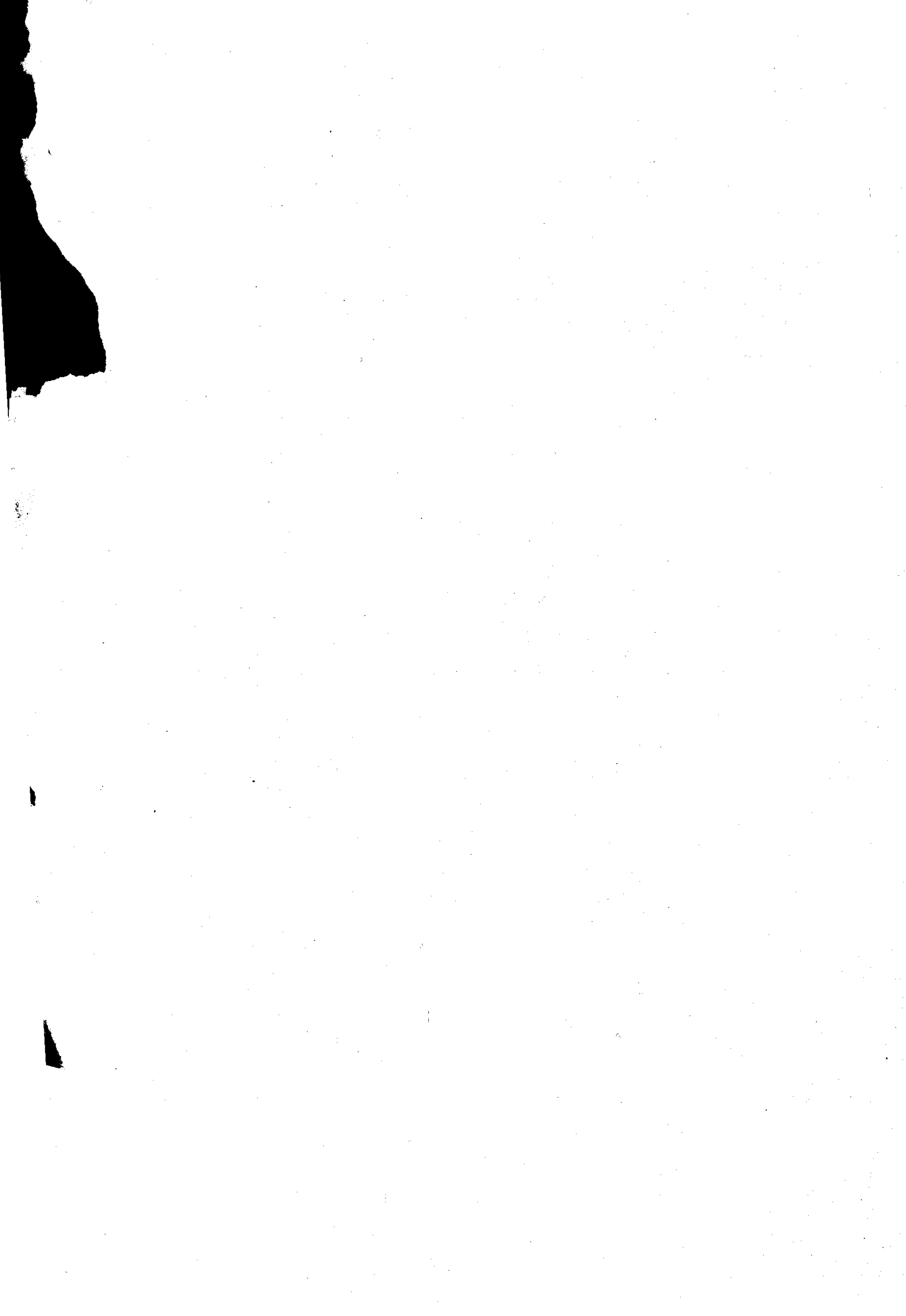


للمغفور له صاحب الفضيلة الاستاذ
الشيخ علي محفوظ
عضو هيئة كبار العلماء



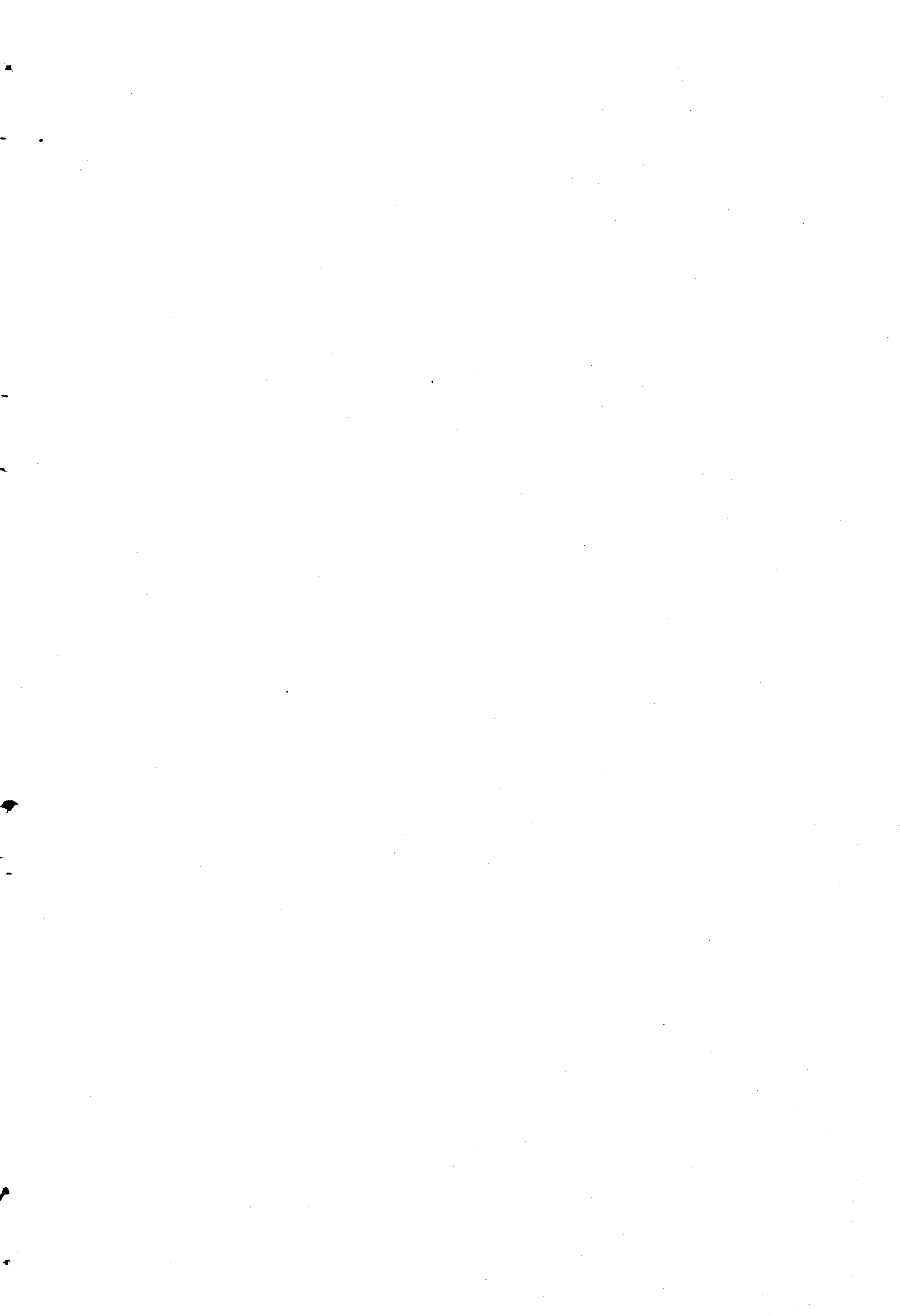


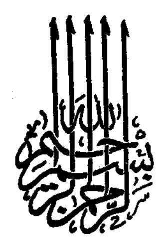
بسم الله الرحمن الرحيم

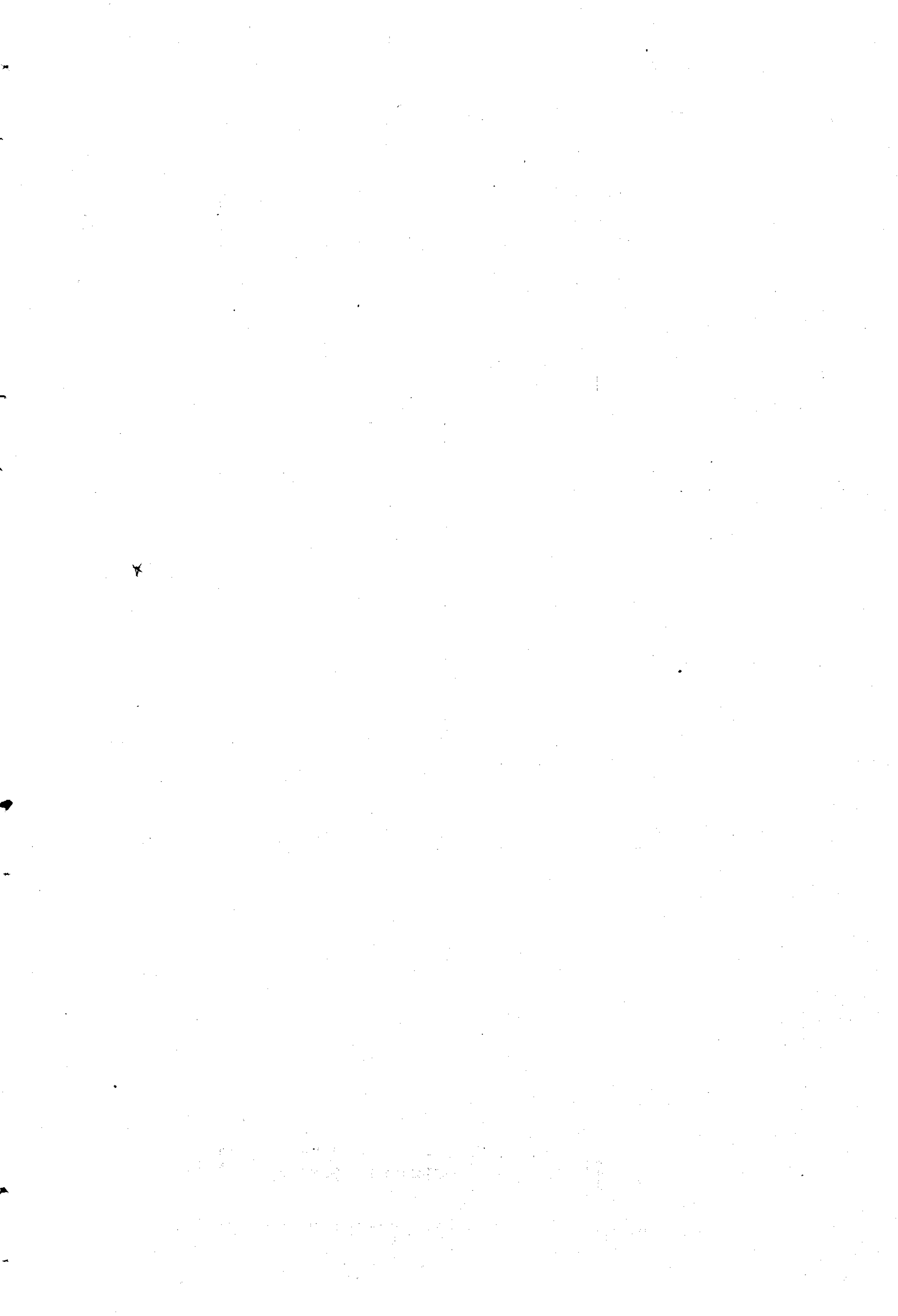
الحمد لله خلق الإنسان فى أَحسن تقويم ، وفضله على كثير من خلقه بالعقل والبيان ، ونصلى ونسلم على سيدنا ومولانا محمد أَفصح الفصحاء ، وإمام الخطباء ، وعلى آله الطيبين الطاهرين ، وأَصحابه العاملين المخلصين .

وبعـد :

فهذا مختصر لطيف فى فن الخطابة طبق مناهج التعليم فى قسم التخصص فى الوعظ والإرشاد لطلاب السنة الأُولى ، والله تعالى أَسأَل أَن يجعله خالصاً لوجهه الكريم ويكسوه حلة القبول إنه سميع الدعاء وقريب مجيب .







ترجمة المؤلف

في « محلة روح » مركز طنطا غربية ، كانت تقيم أسرة « محفوظ » وهي أسرة طيبة يتصل نسبها بالحسن بن علي رضي الله عنهما . في تلك القرية ولد وفيها نشأ ، وحفظ القرآن الكريم واستوعب حفظ بعض المتون .

وفي عام ١٣٠٦ هـ التحق بالجامع الأحمدي بطنطا واشتغل بتجويد القرآن الكريم على بعض الفقهاء ، ثم بدأ يتلقى العلم على كبار شيوخه ، فكان من أساتذته الشيخ عبد الرحمن الدماطي والشيخ محمد الشبيني الكبير والشيخ علي المنوفي والشيخ قطب بكر . وكان في أثناء طلبه العلم مثلا حسناً للطالب المجد ، واستمر بالجامع الأحمدي نحواً من عشر سنوات ظهر فيها نبوغه وتفوقه على أقرانه .

ثم رأى شيخه الأكبر الشيخ الدماطي أن ذلك النبوغ يجب أن يفيد منه الأزهر الشريف . فحبب إليه طلب العلم فيه فتوجه في عام ١٣١٧ هـ إلى مصر ونزل بالأزهر المعمور ، ثم مالت نفسه إلى مذهب أبي حنيفة بعد أن كان شافعي المذهب فتتلمذ على صفوة علمائه من أمثال الشيخ محمد الحلبي والشيخ بكر الصدفي والشيخ أحمد أبو خطوة والشيخ محمد بخيت والأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده . وفي عام ١٣٢٤ هـ — ١٩٠٧ م حصل على شهادة العالمية ، ثم اشتغل بالتدريس .

ولما أدخل النظام في الأزهر عام ١٩١١ سار فيه حتى بلغ القسم العالي .

وفي عام ١٩١٨ أنشيء قسم الوعظ والإرشاد في الأزهر فكان أول من تعهده بالتأسيس والتوجيه ، وفي هذا القسم وجد ضالته ، فجاهد فيه بكل قواه ، ووقف عليه فكره ووقته ، وسرعان ما أنجب على يديه رجالا دعاة خير ورسل إصلاح ، أشربوا حب الفضيلة ونمت فيهم نازعة الخير .

وفي عام ١٣٥٦ أوفد على رأس أول بعثة أزهرية إلى الأقطار الحجازية لأداء فريضة الحج .

وفى مايو عام ١٩٣٩ قدرت جماعة كبار العلماء مزاياه وعلمه وفضله ، فقررت ضمه إلى عضويتها . وصدر بذلك الأمر الملكى رقم ١٦ لسنة ١٩٣٩ .

وفى فبراير عام ١٩٤١ منح كسوة التشريفة العلمية من الدرجة الأولى .

ثم لقى مولاه فى يوم الأربعاء الثالث من ذى القعدة عام ١٣٦١ هـ الموافق ١١ نوفمبر عام ١٩٤٢ .

نشاطه :

نظر الفقيد بفكره الثاقب إلى العلم والعلماء ، فوجده أشبه بصناعة خاصة بين طائفة خاصة فى مكان خاص لا يعدو العالم والمتعلم ، قد دأب الأزهر على ذلك جيلا بعد جيل ، وسواد الأمة عن هذا النور محجوب باحتجاب العلماء عنهم ، اللهم إلا بصيص من النور يظهر فى بعض البلاد التى ينبت فيها العلم بوجود عالم من العلماء أو طالب من الطلاب فى ليالى شهر رمضان من كل عام . . فأخذ على نفسه المواثيق أن يجدد عهد السلف الصالح وأن يقوم بنشر الدعوة الصحيحة بين طبقات الشعب المصرى الكريم .

وضع أساس فن الوعظ والخطابة :

ولقد أحب فن الوعظ والإرشاد حباً لا يعدله حب ، وأخلص له إخلاصاً ، ما بعده إخلاص وامتزج هذا الحب وهذا الإخلاص بإيمان قوى لا حد له ، ثم سكن هذا المزيج المبارك فى قلب كريم فى نفس طيبة راضية مطمئنة .

وبهذا القلب عقد اللواء وتأهب للغزو ، فأخذ يبث فكرته بين طبقات الأزهر من علماء وطلاب ، فكان من ثمرات هذا الجهاد إنشاء قسم الوعظ والإرشاد فى كلية أصول الدين .

الوعظ فى المساجد والمجامع العامة :

ثم انتقل إلى الناحية العملية ، فكان يغشى المساجد كل أسبوع والمجامع العامة ناشراً الفضيلة داعياً إلى التمسك بحبل الله المتين ، فظهر نجمه وسطع نوره ، ورمقته العيون وأسكنته القلوب فى سويدائها لما عرف فيه من علم

وما أوتيه من قوة البيان ودقة الأسلوب وسلاسة التعبير . وقد أنتجت قريحته الفذة فى هذا الفن كتاب « سبيل الحكمة فى الوعظ والخطابة » ثم أعقبه بكتاب « هداية المرشدين إلى طرق الوعظ والخطابة » وهو يعتبر أول كتاب حديث من نوعه .

وكان أهم ما يلاحظ عليه ذوقه الرفيع فى الوعظ ، ومراعاته لشعور الحاضرين وعواطفهم ، يستميلهم بالفكاهة النادرة برقة تملك المشاعر ، ويلقى إليهم بالحجج والحكم فى دعة تفتح لها الطريق إلى القلوب قبل الأسماع

الوعظ فى القرى :

رأى — طيب الله ثراه — أن كثيراً من القرى الريفية قد حرم من العلم فكان يذهب إليها مرشداً وداعياً إلى الله بإذنه . مضحياً فى ذلك بماله وراحته ووقته فكان يقضى العطلة الصيفية متنقلا بالوعظ والإرشاد فى شتى البلاد . وقد كان يسجل خطبه فى سجل خاص حتى بلغ مجموعها نحو (٨٠٠) خطبة .

محاربة البدع والخرافات :

رأى — رحمه الله — أن كثيراً من البدع والخرافات قد استحكم فى نفوس الشعب حتى أبعدهم عن طريق الدين المستقيم ، فأخذ يكافح ويجاهد ويذكر القوم بمحاسن الدين وقبائح البدع ولم يثنه عن سبيله ما أقامه دعاة هذه البدع من عراقيل وعقبات . . وظل ثابتاً على عزمه حتى اقتلع الأوهام من القلوب وعاد بالناس إلى حظيرة الدين ، وقد ألف فى هذا كتابه العظيم « الإبداع فى مضار الابتداع » .

الجمعيات الإسلامية العامة :

أيقن أن الجمعيات الإسلامية خير معين على نشر الفضائل بين الأمة فأسهم فى تأسيس جمعية مكارم الأخلاق الإسلامية .

وكان من أعضائها العاملين البارزين .

وأسهم فى تأسيس جمعية الهداية الإسلامية .

وقد انتخب وكيلا لها فى أول جلسة عقدت لتأسيسها فى عام ١٣٤٦ هـ

وكذلك أسهم فى تأسيس جمعية تحفيظ القرآن بالعباسية وكان من أعضائها المخلصين .

وقبل الحرب العالمية الأولى كانت جمعية الرد على المبشرين بالخرنفش تناهض المبشرين فكان رحمه الله خطيبها وحامل لوائها .

وفازت جمعية نشر الفضائل والآداب الإسلامية بالكثير من نشاطه ولما تكونت جماعة أنصار الحج أسهم فى جهادها بكل قواه .

الجمعيات الخاصة :

لم يكتف الفقيد بكل هذه الأعمال الجليلة بل نظر فى صفوف الأمة ، وجد طائفة من عظمائها المخلصين قد عكفوا على ما لديهم من الأعمال ، فتلطف فى الدخول إليهم ، واستعمل ذكاءه وفطنته فى استمالتهم وهمس فى آذانهم بأحكام الدين الحنيف ، فوصلت دعوته إلى قلوبهم ، ووجد التربة صالحة للغرس ، والجو ملائماً للإنبات ، فكون جمعية قوامها العظماء وعنصرها الطبقة الراقية مثل الدكتور سالم هنداوى باشا وسليمان عزمى باشا والمرحوم الدكتور عبد العزيز إسماعيل باشا وغيرهم من طبقتهم ، واشتغل معهم بتفسير القرآن الكريم فى ليلة معينة من كل أسبوع ، واتخذ لذلك عيادة الدكتور سالم باشا بعابدين حتى أتمه ، فى بضع سنين ، ثم انتقل إلى السنة الشريفة فقرأ معهم كتاب البخارى حتى أتمه ، وقد كان من آثار هذا الغرس أن طلع المرحوم الدكتور عبد العزيز باشا إسماعيل على العالم الإسلامى بكتابه العظيم « الإسلام والطب الحديث » .

كذلك كون رحمه الله جمعية أخرى قوامها الدكتور عبد السلام العيادى ونخبة من خيرة المتعلمين ما بين مهندس وتاجر وموظف وجعل مقرها عيادة الدكتور العيادى بالدرب الأحمر . وقد ابتدأ فى تفسير القرآن الكريم حتى أوشك على إتمامه ولكن المنية عاجلته قبل ذلك بقليل .

وأنشأ جمعية ثالثة قوامها جماعة من أرباب المعاشات فغرس فيهم الروح الدينية الحقة ، وكان مقرها منزل صاحب العزة أحمد بك فهمى المهندس فى المغربلين ثم بالعباسية .

وامتد نشاطه إلى الطبيبات والممرضات داخل المستشفيات فتعهدهم فى مستشفى فؤاد الأول للولادة بالموعظة الحسنة والنصائح الغالية مما كان له أثر محسوس فى قيامهم بواجبهم الإنسانى على خير الوجوه .

إلقاء دروس دينية فى الإذاعة اللاسلكية :

وفى حوالى عام ١٩٣٩ نبتت فكرة إلقاء دروس دينية على أمواج الأثير ، فكان أول من وقع عليه الاختيار لهذا العمل الجليل ، فكان يلقى درساً فى كل شهر تقريباً حتى لقى ربه .

دروس شهر رمضان فى الأزهر الشريف :

وكان من عادته رحمه الله أن يلقى درساً فى الجامع الأزهر بعد صلاة العصر من كل يوم من أيام رمضان المبارك ، وقد ظل محافظاً على هذه العادة الجليلة وكان فيها مخلصاً متفانياً ، ولا أدل على ذلك من حرصه عليها وهو فى مرض الموت .

التأليف :

ألف الفقيد الكتب الآتية :

١ ــ الأخلاق ــ وكان يدرس فى المعهد الابتدائى .

٢ ــ سبيل الحكمة فى الوعظ والخطابة .

٣ ــ هداية المرشدين إلى طرق الوعظ والخطابة . وهو مقرر للدراسة فى كلية أصول الدين .

٤ ــ الإبداع فى مضار الابتداع . وهو مقرر للدراسة فى كلية أصول الدين .

٥ ــ الخطابة . (لم يطبع) وقد ظهرت منه هذه المذكرة وسيطبع جميعه إن شاء الله .

خاتمة :

وهكذا كان الفقيد الكريم شعلة من نور وعلم ، تفرقت أشعتها فى كل ناحية من نواحى الأمة ، فكانت السراج الذى يهتدى به المهتدون . . .

كان رحمه الله يرى أن العلم ثروة وزكاتها الوعظ والإرشاد ليكون علماً مباركاً طيباً يزيده الله من فضله .

ولقد كان واعظاً بسمته وهيئته ووقاره ووقفته ومشيته قبل أن يكون واعظاً بقوله ومنطقه ، فكان فى ذلك مصداقاً لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « خياركم من تذكركم بالله رؤيته ، ويزيد فى علمكم منطقه ، ويرغبكم فى الآخرة عمله » . رواه الترمذى عن ابن عمر رضى الله عنهما .

رحم الله الفقيد الجليل ، وأحله مقامه بين الصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً .

• • •

الفصل الأول

فى مبادئ الخطابة

الخطابة فى اللغة مصدر كالخطاب توجيه الكلام نحو الغير للإفهام وفى اصطلاح الحكماء مجموع قوانين يقتدر بها على الإقناع الممكن فى أى موضوع يراد — والإقناع حمل السامع على التسليم بصحة المقول وصواب الفعل أو الترك .

وهو نوعان برهانى ، وخطابى . وغاية الأول إذعان العقل لنتيجة مبنية على مقدمات ثبتت له صحتها كقولنا : الأربعة زوج ، لأنه منقسم بمتساويين وقولنا : العالم حادث لأنه متغير . وغاية الثانى إذعان العقل بصحة المقول وصواب الفعل أو الترك بأقيسة مؤلفة من أقوال مظنونة أخذ فيها بالمحتمل الراجح ، أو مقبولة صدرت ممن يعتقد صدقه وسداد رأيه .

ووصف بالممكن ، لأن شأن هذه الصناعة إعداد النفوس لقوة الإقناع وإن لم تبلغ غايتها — وكذا الشأن فى سائر الصنائع فإنها تعد النفس لعمل خاص بمقتضى قوانين محدودة ، وإن لم تبلغ غايتها أحياناً — مثلا الطب ترشد أصوله إلى معالجة الأمراض لغاية الشفاء ما لم يكن مانع .

وفى أى موضوع يراد : لأنها لا تختص بشىء معين ، بل تتناول كل شىء بخلاف غيرها من الصناعات — فمثلا الخط ينظر فى رسم الحروف وهيئتها ، والطب ينظر فى أحوال جسم الإنسان والحيوان من جهة الصحة والمرض . فقد روى العلامة ابن رشد عن أرسطو : أن الخطابة ليس لها موضوع خاص تبحث عنه بمعزل عن غيره ، فإنها تتناول كل العلوم والفنون ، ولا شىء حقيراً كان أو جليلا معقولا أو محسوساً إلا يدخل تحت حكمها ، ويخضع لسلطانها — ومن ثم قال الباحثون فى شأنها : يلزم أن يكون الخطيب ملما بكل العلوم والفنون ما استطاع ، وأن يسعى دائباً إلى أن يزداد كل يوم علماً .

وصفوة القول أن الفلاسفة اعتبروا الخطابة علماً له أصول وقوانين تمكن الدارس لها من التأثير بالكلام ، وتعرفه وسائل الإقناع بالخطاب فى أى غرض من الأغراض الكلامية ، وأنه يعنى بدراسة طرق التأثير ، ووسائل الإقناع ، وما يلزم أن يكون عليه الخطيب من صفات وآداب ، وإلمام بميول السامعين ، وما ينبغى أن تكون عليه أساليب الخطبة ، وترتيب أجزائها ، وهو بهذا نبراس يهتدى به ، ومصباح ينير السبيل أمام من عنده استعداد للخطابة ليربى ملكته ، وينمى استعداده .

ويصح أن يراد من الخطابة ملكة الاقتدار على الإقناع ، واستمالة القلوب وحمل الغير على ما يراد منه ، بل هذا هو المعتبر عند المحققين فى معنى العلم ويؤيده ما نقل عن أرسطو فى رسمها حيث قال : (هى قوة تتكلف الإقناع الممكن فى كل واحد من الأشياء المفردة) ومعناها أن الخطابة ملكة يطيق صاحبها إقناع المخاطبين فى أى أمر يدعى أنه غرض صحيح .

وفى عرف الأدباء تقال على معنيين **أحدهما** : أنها كالخطبة بضم فسكون اسم للكلام المنثور سجعاً كان أو مرسلا **وثانيهما** : أنها إلقاء الكلام المنثور مسجوعاً كان أو مرسلا ، لاستمالة المخاطبين إلى رأى أو ترغيبهم فى عمل — وهذا ما يريدونه فى قولهم : فلان يقوم على الخطابة أكثر مما يقوم على الكتابة .

وأما الخطابة عند المناطقة فهى قياس مؤلف من مقدمات مقبولة لصدورها ممن يعتقد فيه ، لاختصاصه بمزيد عقل ، أو تدين — كقوله : العمل الصالح يوجب الفوز وكل ما كان كذلك لا ينبغى إهماله — وقد تقبل من غير أن تنسب إلى أحد كالأمثال السائرة ، لاشتمالها على حكم بليغة تستهوى العقول وتستولى على المشاعر — أو مقدمات مظنونة ، وهى قضايا يحكم بها العقل حكماً راجحاً ، مع تجويز النقيض ، كقولنا : فلان يطوف ليلا بالسلاح ، وكل من كان كذلك فهو لص ، ففلان لص ، والقصد منها ترغيب الناس فيما ينفعهم من أمور معاشهم ، ومعادهم ، وترهيبهم مما يضرهم فى المعاش والمعاد كما يفعله الخطباء ، وهذا هو الأصل عندهم ، وإلا فقد تستعمل للرد على

المدعى فى دعواه — وبما تقدم تعلم أن المناطقة نظروا إلى الخطابة من حيث تأليفها . وأرسطو نظر إليها من حيث ملكتها .

وأما المحاضرة فهى لغة ما بين القوم أن يجيب الواحد غيره بما يحضره من الجواب — والناس اليوم يقولون ألقى فلان محاضرة يعنون خطاباً ، فى غرض خاص — وعلم المحاضرة من علوم الآداب .

والمناظرة فى اللغة المجادلة ، تقول ناظرته مناظرة جادلته مجادلة — والمباراة فى النظر واستحضار كل مايراه ببصيرته النظر والبحث عند الأصوليين توجه خصمين فى النسبة بين الشيئين إظهاراً للصواب .

والمناظرة البيانية عبارة عن تأليف أنيق ، يوجه الكلام لمتخاصمين يفاخر أحدهما الآخر — وتكون بالجمع بين شيئين متضادين ، أو متباينين فى صفاتهما وآثارهما ، بحيث تظهر خواصهما بالمقابلة ، كالحجاب والسفور ، والصيف والشتاء — والسيف والقلم .

وغاية الخطابة عند الحكماء الحصول على قوة التمكن من الإقناع وفضلها عظيم وشرفها جسيم ، إذ فضل العلوم ، والصناعات ، وشرفها بشرف غاياتها وللخطابة غاية ذات شأن خطير . وهى إرشاد الناس إلى الحقائق وحملهم على ما ينفعهم فى العاجل والآجل . والخطابة معدودة من وسائل السيادة ، والزعامة وكانوا يعدونها شرطاً للإمارة ، فهى تكمل الإنسان ، وترفعه إلى ذرى المجد والشرف قال العلامة ابن سينا فى الشفاء : إن الخطيب يرشد السامع إلى ما يحتاج إليه من أمور دينه ودنياه ، ويقيم له مراسيم لتقويم عيشه . والاستعداد إلى ميعاده. وحسبها شرفاً أنها وظيفة قادة الأمم من الأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ،ومن على شاكلتهم من العلماء العاملين ،وعظماء الملوك، وكبار الساسة . وفوائدها جمة ، فهى التى تعرف صاحبها كيف يمتلك القلوب ، ويستميل النفوس ، ويحرك العواطف . ويهيج الخواطر نحو ما يريد ، بنبراسها تستضىء موارد الدليل وتتضح مصادر الحجة لإنفاذ كل أمر جليل ، وإدراك كل غاية شريفة ، وقوانينها ترشد الطالب إلى مواضع الضعف وشعب السهو والزلل فيقوى على دحض حجة المناظر وتزييف سفسطة المكابر ، وهى التى تثير الحماسة فى النفوس الفاترة ، وتهدىء النفوس الثائرة ، وهى التى ترفع

الحق وتخفض الباطل ، وتقيم العدل ، وترد المظالم ، وهي التي تهدى الضال إلى سواء السبيل وتفض النزاع ، وتقطع الخصومات فالخطيب البارع يقف بين ذوى المنازع المختلفة والآراء المتضاربة ، فلا يزال يبين لهم النافع من الضار والصواب من الخطأ حتى يجعل الجميع في قبضة يده،والخطيب البارع يقوم بين طائفتين استعرت بينهما نار العداوة والبغضاء فيذكرهم بعواقب التقاطع ، ويحذرهم من نتائجه السيئة ، فإذا القلوب مؤتلفة والنفوس متآخية .

وبالجملة فقد تتعين الخطابة طريقاً إلى التأثير والإقناع حيث لا يفيد البرهان قال العلامة ابن رشد نقلا عن أرسطو : ليس كل صنف من الناس ينبغى أن يستعمل معه البرهان فى الأشياء النظرية التى يراد منهم اعتقادها — وذلك إما لأن الإنسان قد نشأ على مشهورات تخالف الحق ، فإذا سلك نحو الأشياء التى نشأ عليها سهل إقناعه ، وإما لأن فطرته ليست معدة لقبول البرهان أصلا ، وإما لأنه لا يمكن بيانه له فى ذلك الزمان اليسير الذى يراد منه وقوع التصديق فيه ، فهذا الصنف الذى لا يجدى معه الاستدلال المنطقى تهديه الخطابة إلى الحق الذى يراد اعتناقه ، لأنها تسلك من المناهج ما لا يسلكه المنطق — وهذه مزية عظيمة لا يستهان بها . وقال العلامة ابن سينا : إن صناعة الخطابة عظيمة النفع جداً لأن الأحكام الصادقة فيما هو عدل وحسن أفضل نفعاً ، وأعظم من أضدادها فائدة والإنسان لا يعيش وحده ، فكان لا محالة محتاجاً إلى التعامل والتجاور وهما محتاجان إلى أحكام صادقة ، وهذه الأحكام تحتاج إلى أن تكون مقررة فى النفوس ممكنة فى القلوب ، والبرهان قليل الجدوى فى حمل الجمهور على الحق ، فالخطابة هى المعنية بذلك ا هـ . بتصرف .

وأصلها النظر والاختبار ، وذلك أن الله تعالى فطر بعض بنى الإنسان على قوة البيان وملكة التأثير ، فاقتدروا بها على حمل غيرهم على ما أرادوا منهم فلحظ الأمر غيرهم ممن لم ينالوا تلك الملكة ، واستخدام القلوب فدونوا نتيجة أبحاثهم ، ووسعوها حتى جاء أرسطو فى القرن الرابع قبل الميلاد فضم شارد هذا الفن ، وجمع شتاته فى كتاب ضمنه قواعد هذه الصناعة سماه (الخطابة) وهو الكتاب الذى عربه بشر بن متى ولخصه ابن رشد ، وأخذ عنه فلاسفة العرب كابن سينا والفارابى . وعندما نقل هذا الكتاب إلى العربية فى القرن

الثالث من الهجرة عده كثير من هؤلاء الفلاسفة جزءاً مكملا لعلم المنطق كابن سينا فإنه جعل الخطابة قسما منه ذلك أنهم رأوا أن أرسطو فى كتاب الخطابة قد تكلم على الحد والرسم والدليل وكيف يتألف القياس الخطابى كما تكلم على التصديق الذى يكفى فى الخطابة واستمر أمر الفلاسفة على هذا الحال إلى أن قصر المتأخرون منهم النظر فى المنطق على القياس وأشكاله .

ومن هذا تعلم أن لفن الخطابة صلة وثيقة بفن المنطق من حيث أن علم المنطق خادم له وأن بعض قوانين الخطابة يعتمد على مبادىء المنطق . وأن الخطابة مخلوقة مع الإنسان ، وأن البحث عنها كان قبل الجاهلية والإسلام ، وأن تأثير البلاغة فى النفوس لا يخص أمة ولا جيلا .

وطرق تحصيلها إجمالا أربعة :

الأول : الفطرة والاستعداد الغريزى وهذا هو الأساس .

الثانى : معرفة الأصول والقوانين التى وضعها الحكماء .

الثالث : الإكثار من مطالعة أساليب البلغاء ومصاقع الخطباء ودراستها دراسة متعرف لمناحى التأثير وجهات الإقناع فيها ، ومتذوق لما فيها من متانة الأسلوب وحسن العبارة وجودة التفكير . قال ابن الأثير فى المثل السائر : إن فى الاطلاع على أقوال المتقدمين من المنظوم والمنثور فوائد جمة ، لأنه يعلم منه أغراض الناس . ونتائج أفكارهم ويعرف به مقاصد كل فريق منهم وإلى أين ترامت به صنعته فى ذلك فهذه الأشياء مما تقوى الذهن وتزكى الفطنة — وإذا كان صاحب هذه الصناعة عارفاً بها تصير المعانى التى تعب فى استخراجها كالشىء الملقى بين يديه يأخذ منها ما أراد ، وأيضاً فإنه إذا كان مطلعاً على المعانى المسبوق إليها قد ينقدح له من بينها معنى غريب لم يسبق إليه — وعلى الجملة فدراسة كلام البلغاء تقدم للقارىء ألواناً من المعانى والأساليب تنمى فيه ملكة الخطابة .

الرابع : الارتياض والاحتذاء لأن الخطابة (كما علمت) ملكة نفسية لا توجد دفعة واحدة بل لا بد لطالبها من الممارسة والمران كى تنمو مواهبه .

فالارتياض هو التدريب على الخطابة فإن ملكتها تنمو وتقوى بالمرانة والممارسة ، قال خالد بن صفوان : إنما اللسان عضو إن مرنته مرن فهو كاليد تخشنها بالممارسة وكالبدن تقويه برفع الحجر والرجل إذا عودت المشى مشت.

وللارتياض وجوه منها ، أن تتوسع فى شرح بعض المعانى فتبينه بأوجه شتى وتزينه بوسائل التأثير ثم تتعود على تلخيص العبارات المبسوطة فى عبارة وجيزة جامعة للمعانى التى حواها الموضوع لتبقى فى ذهن السامعين (ومنها) أن تجتهد فى وضع بعض مواضع علمية وجيزة لتكون ذريعة إلى أفخم منها فإن المتروض ينجح على قدر ما يصرف من الهمة والثبات فى ذلك (ومنها) أن يكلف وصف المعانى التى يصل إليها من المشاهدات بحيث ينقل ذلك إلى نفس السامع بحالة تجعله كالمشاهد لها فإن الخطيب أحوج الناس إلى ضرب الأمثال وأنواع التشبيه فى الوصول إلى غايته من نفس السامع فإذا حصل على ملكة الاقتدار فله أن يبتكر ما شاء من وسائل التأثير التى يراها أرجى للوصول إلى ما يريد .

والاحتذاء أن يعمد الطالب إلى أساليب المتقدمين فيقتفى أثرها وينسج على منوالها فلا غنى له عن الاقتداء بالسابقين والاقتباس من الأولين فيما اخترعوه من معانيهم وسلكوه من طرقهم والتقليد عريق فى بنى الإنسان

وتشبهوا إن لم تكونوا مثلهم   إن التشبه بالرجال فلاح

وكان بعض خطباء العرب يتصدى لتعليم الفتيان كيف يخطبون كإبراهيم ابن جبلة السكونى فى عصر الدولة العباسية — ثم إن الخطابة كسائر الصنائع يتفاوت الناس فى إتقانها والأخذ بزمامها فمنهم من يقتدر عليها فى أمد قريب ومنهم من يحتاج إلى أن يقضى فى سبيلها زمناً بعيداً — يقول أهل الأدب إنهم لم يروا خطيباً بلدياً إلا وهو فى أول تكلفه للخطابة كان مستثقلا إلى أن يتوقح وتستجيب له المعانى ويتمكن من الألفاظ إلا شبيب بن شيبة فإنه ابتدأ بحلاوة ورشاقة وسهولة وعذوبة فلم يزل يزداد منها حتى صار فى كل موقف يبلغ بقليل الكلام ما لا يبلغه الخطباء المصاقع بكثيره . وأن العرب كانوا يأخذون أنفسهم بالتدرب عليها إلى أن تصير لهم سجية وعادة — يقولون

إن عمر بن سعيد بن العاص الأموى كان لا يتكلم إلا اعترته حبسة فى منطقه فلم يزل يتشادق ويعالج إخراج الكلام حتى مال شدقه ولذا لقب بالأشدق وفيه يقول الشاعر :

تشدق حتى مال بالقول شدقه   وكل خطيب لا أبالك أشدق

والأشدق واسع الشدقين والفم الفصيح اللسن — وسعة الفم عندهم من سمات الفصاحة والبيان . وصفوة القول أنه لا يحصل على ملكة الخطابة إلا من أحكم وسائلها وسلك سبيلها وتدرب عليها يوماً فيوماً وراض عليها لسانه فى النوادى العامة والجموع العظيمة ، وإن راعه الموقف أولا أمنه آخراً فقديماً قيل : من وقف حيث يكره وقف حيث يحب ، وبالله تعالى التوفيق .

• • •

الفصل الثانى

فى مجمل تاريخ الخطابة ــ حالها قبل الجاهلية
أول من دون قواعدها

قد عرفت أن الخطابة قديمة العهد وأن الاستعداد لها مخلوق مع الإنسان الذى لا غنى له عن الإبانة لغيره عما فى ضميره وعن إقناعه بصدق مقاله وسداد رأيه ــ وتعرف للأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام فيها الحظ الأوفى والمقام الأعلى فى سبيل الدعوة إلى طاعة الله وتوحيده وإرشاد الناس إلى الصراط السوى كما أخبر الله تعالى عنهم فى كتابه الحكيم . وقد بقى من آثارها على طول الأمد خطب التوراة التى قام بها الأنبياء عليهم السلام إلى بنى إسرائيل ليحملوهم بها على الاستقامة ويردوهم عن الشرور والغواية ــ كذلك عثر فى كتابة الأشوريين المسمارية وآثار قدماء المصريين الهيروغليفية على خطب تأدبية جاءت غالباً على ألسنة آلهتهم وملوكهم .

ولقد تحسنت الخطابة فى عهد قدماء اليونان والرومان ــ فنى اليونان ظهرت فى دولهم الأولى ومنازعاتهم السياسية وحروبهم وهى من أهم البواعث على تحريك لسان الخطابة ــ وفى إلياذة هوميروس خطب كثيرة أوردها على ألسنة الآلهة والأبطال فى القرن العاشر قبل الميلاد ــ ثم لبست ثوباً أحسن مما قبله فى أواخر القرن الخامس فى عهد برقليس زعيم أثينا وأحد خطبائها المحبوبين لدى الشعب اليونانى ــ وبعده بقليل ظهر خطباء منهم إيسوقراطيس فى القول التثبيتى وديمستينيس وكان قبل أن يعرفه أهل أثينا رجلا خاملا ضعيف البنية خافت الصوت ليست لحركته لباقة ولا فى لسانه طلاقة فلما اعتزم الخطابة أخذ يقوى رئتيه وحنجرته بالصياح فوق رءوس الجبال وعلى شواطىء البحار برفع صوته فوق صخب الأمواج وتغلب على عاهة النطق بممارسة الكلام وفى فيه حصى وتعلم أصول اللباقة ورشاقة الحركة (الحذق ولطف الحركة) بالوقوف أمام المرآة وهو يخطب حتى صار كبير الخطباء فى كل فنون الخطابة

وأول من دون قواعدها ثلاثة من فلاسفة اليونان فى أواخر القرن الخامس وأوائل الرابع قبل الميلاد: بروديكوس، وبرتاغوراس معاصره ثم غورجياس سنة ٣٨٠ ق م وفى أواخر القرن الرابع سنة ٣٢٢ ق م ظهر أرسطو زعيم فلاسفة اليونان فلم يغادر صغيرة ولا كبيرة من أصول هذا الفن إلا دونه ونشره فى كتابه (الخطابة) ومن هذا الحين صارت الخطابة فناً مدوناً.

ولم تظهر الخطابة فى الرومان إلا بعد اليونان بأمد بعيد لاشتغالهم بالحرب ومن أشهر خطبائهم كاتون المعروف بالنقاد فى القرن الثانى قبل الميلاد فى خطبه على قرطاجنة، ثم يوليوس قيصر القائد الرومانى الشهير، ثم شيشرون إمام الخطابة اللاتينية وكان عفيفاً نزيهاً فى حياته الخطابية وكلاهما ظهر فى القرن الأول قبل المسيح — وبعد وفاته عليه السلام كان كبار الخطباء من الحواريين ثم بقيت بعدهم فى رجال الدين من القسيسين والأساقفة وكبار الساسة.

الخطابة فى الجاهلية

مدة عصر الجاهلية قرن ونصف وينتهى بظهور الإسلام. ولقد اشتهرت الخطابة الأدبية فى ذلك العصر لما كان عليه العرب من النعرة(١) والحمية وشن الغارات فى المدافعة عن النفس والمال والعرض والمفاخرة بالشعر والخطب فى الحسب والنسب وقوة العصبية وشرف الخصال من الشجاعة والكرم والنجدة وحماية الجار وإباءة الضيم، وللقول فى ذلك أثر لا يقل عن الصول — فكانت الخطابة فيهم فطرية ولهم ضرورية مع ما فيهم من زلاقة اللسان وقوة البيان قضت بها طبيعتها المعيشية. ودعت إليها حالتها الاجتماعية فتفتقت بها ألسنة أبنائها صيانة لعزها وحفاظاً لمجدها وتخليداً لمآثرها، وتأييداً لمفاخرها ولا عجب فى أن يكون فى العرب قبل الإسلام تلك الخطابة الممتازة فإن الخطابة أثر انفعالات تنشأ عن حوادث تمس الجماعات. ونوازل تعرض للأمم والشعوب ولم تخل الأمة العربية فى جاهليتها من حوادث على هذا النحو فتثور بينهم لذلك محاورات شديدة وجدال عنيف، وكانت الحرب بينهم لا تكاد

---

(١) بوزن الشمرة صوت فى الخيشوم .

تضع أوزارها – وكانت لهم مع هذا مجامع يعرضون فيها مصنوعات قرائحهم ليباهوا بما فيها من بلاغة وحكمة – وإذا كان فى القوم قوة بلاغة ، وفى نفوسهم طموح إلى السيادة ، وفى ألسنتهم قوة على الجدل وشدة فى المحاورة وفى أيمانهم سيوف تتجافى عن أغمادها ، وفى بلادهم أسواق بضاعتها من بديع أفكارهم فلا عجب أيضاً أن يلدوا خطباء نجباء يقرعون الأسماع بذكر مفاخرهم ويثيرون العواطف إلى الدفاع عن كرامتهم وأنفسهم وأموالهم وأعراضهم .

ولعنايتهم قديماً بالشعر دون الخطابة لصعوبة حفظ النثر لم يصل إلينا أحوال خطبائهم الأوائل عند التأدية ولا شىء من خطبهم ولم تعن الرواة بنقل أخبار الخطباء وخطبهم إلا بعد أن وصلت الخطابة إلى منزلة أسمى من الشعر لابتذاله بتعاطى العامة والسفهاء له ، واتخاذهم له وسيلة للعيش والطعن على الحرم والخوض فى الأعراض ،فعلا بذلك شأن الخطابة واشتهر بها الأشراف – وكان لكل قبيلة خطيب كما كان لكل قبيلة شاعر يحفظ عليهم مآثرهم ويفخم من شأنهم ويهول على عدوهم بل كان كل واحد منهم فى نفسه خطيباً .

وأكثر استعمالها عندهم فى مواضع التحريض على القتال ، والتحكيم فى الخصومات ، وتحمل الديات ، وإصلاح ذات البين ، والمنافرات . والوصايا ، والوفادة على الملوك والأمراء – وحيث كان القصد منها امتلاك القلوب واستمالة النفوس كما هو الشأن فى الشعر كان الاعتماد فيها على الأقوال الخطابية المحركة للعواطف المؤثرة فى النفوس ممثلة فى صور العبارات الرائعة . والأساليب المتينة والألفاظ العذبة لتستولى على النفوس وتأخذ بمجامع القلوب وكثرت فيها الفواصل والأسجاع لحسن وقعها إلى ما فيها من استرواح الخطيب وسهولة تدارك المعانى .

وخطب العرب ضربان : طوال وافية وقصار كافية ،ولكل مقام يليق به قيل لأبى عمرو بن العلاء : هل كانت العرب تطيل ؟ فقال : نعم ليسمع منهم فقيل له وهل كانت توجز قال : نعم ليحفظ عنهم وقد مدحوا الإطالة فى مكانها كما مدحوا الإيجاز فى مكانه فكانوا يستحسنون الإطالة فى خطب الصلح يروى أن قيس بن خارجة بن سنان قيل له فى شأن الصلح بين عبس وذبيان : ما عندك فى هذه؟ فقال : قرى كل نازل ورضا كل ساخط وخطبة من لدن

تطلع الشمس إلى أن تغرب آمر فيها بالتواصل وأنهى عن التقاطع . قالوا : فخطب يوماً إلى الليل فما أعاد فى خطبته معنى — وكانوا إلى القصار أميل لانطباعهم على الإيجاز . ولأنها إلى الحفظ أسرع وفى البقاع أشيع — وكانت لهم عناية بسرد كثير من الحكم والنصائح والأمثال وخصوصاً فى القصار منها .

أما صفة الخطيب عند التأدية فكان من عادتهم فى غير خطب التزويج أن يخطب قائماً على منبر أو رُبَاوَةٍ(١) أو ظهر راحلة لإبعاد مدى صوته والتأثير بشخصه وإظهار ملامح وجهه وحركات جوارحه ، أما خطبة الزواج فإنهم كانوا يلقونها من جلوس إذ ليس من شأنها أن تحتوى معانى تدعو الحاجة إلى أن يسمعها جميع الحاضرين والتأثر بشخصه — وكان من عادة الخطيب أن يقوم معتصباً عمامة معتمداً على مخصرة(٢) أو عصا أو قناة أو قوس — وربما أشار بإحداها أو بيده تأييداً للكثير من مقاصده . وكانوا يستحسنون من الخطيب أن يكون رابط الجأش قليل اللحظ جهير الصوت متخير اللفظ قوى الحجة نظيف الثياب كريم الأصل صادق اللهجة أسرع الناس عملا بما يقول — ولا يخفى أن من هذه الأحوال ما ليس جوهرياً ولا يفيد فى مقصود الخطابة شيئاً يذكر ولكن لم يصل إلينا من أحوال الخطباء فى الجاهلية سواها .

ومن أشهر خطبائهم كعب بن لؤى وذو الأصبع العدوانى ، وقيس بن خارجة بن سنان ، وخويلد بن عمرو الغطفانى ، وعمر بن كلثوم التغلبى ، وقيس بن ساعدة الأيادى وأكثم بن صيفى ، وقد أجمع علماء الأدب على متانة قس وأكثم وأنهما أرعى للحق وأبر بالمكارم خصوصاً وأن فى خطبهما كلاماً عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وأحوال الآخرة وإن كانا فى باب الأدب أدخل منهما فى باب الدين إلا أن الخطيب الدينى يلزم أن يكون أديباً قبل كل شىء .

الخطابة فى الإسلام

لما كان مبدأ كل انقلاب عظيم فى أية أمة إما دعوة دينية أو سياسية وكانت تلك الدعوة تستدعى ألسنة قوالة من أهلها لتأييدها ونشرها وألسنة

---

(١) الرباوة : الرابية : وهى ما ارتفع من الأرض .
(٢) المخصرة : مايتوكأ عليها كالعصا ونحوها .

من خصومها لإدحاضها والصد عنها ، وذلك لا يكون إلا بمخاطبة الجماعات وذوى النجدات فى المحافل والمنتديات والحج والمواسم والأسواق ومواطن الزحف ومقدم الوفود ونحو ذلك ، كان ظهور الإسلام وبعثة الرسول بالأمر الجلل والشأن الخطير والدعوة العظمى التى لم يعهد لها مثيل فى العالم من أهم الحوادث وأعظم البواعث التى أطلقت الألسنة من عقالها ، وأثارت الخطابة من مكمنها وأغرت العقول بأحكامها ، والتفنن فيها واختلاب الألباب بسحر بيانها فوق ما كانت عليه فى جاهليتها .

وابتدأ طور الخطابة الإسلامية بظهور رسول الله (صلى الله عليه وسلم) خطيباً غير شاعر — وأول موقف وقفه للخطابة كان يوم نزل : « **فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين** » ، فدعا قومه وهو على الصفا ثم قال: « أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلا بالوادى تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقى ؟ قالوا : نعم ما جربنا عليك كذباً . قال : فإنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد » فكان ما كان — ولما نزل « **وأنذر عشيرتك الأقربين** » جمعهم عليه (الصلاة والسلام) ثم قال : « إن الرائد لا يكذب أهله والله لو كذبت الناس جميعاً ما كذبتكم ولوغررت الناس جميعاً ما غررتكم ،والله الذى لا إله إلا هو إنى لرسول الله إليكم خاصة وإلى الناس كافة والله لتموتن كما تنامون ولتبعثن كما تستيقظون ولتحاسبن بما تعملون ولتجزون بالإحسان إحساناً وبالسوء سوءاً وإنها لجنة أبداً أو نار أبداً » ، فكان العمل الأكبر لصاحب هذه الدعوة العظمى (صلوات الله وسلامه عليه) بادى أمره غير تبليغ القرآن وارداً من طريق الخطابة ، ثم ورثها من بعده (صلى الله عليه سلم) خلفاؤه الراشدون وهم أركان البلاغة وسادات الفصاحة فمن بعدهم من ملوك بنى أمية وعمالهم إلا قليلا ممن أترفوا فعجزوا عنها وكانوا يستخلفون فيها .

ولأمر ما جعلها الشارع شعار كل إمام فى حفل دينى أو سياسى كالجمعة والعيدين وموسم الحج الأكبر وعند أخذ العدة للجهاد وفى كل أمر جامع لنشر فضيلة أو نهى عن رذيلة أو إعلان نصر أو تأكيد وصية عامة أو خاصة إلى غير ذلك من الأمور ذوات البال . ولذلك كان سعاة النبى (صلى الله عليه

وسلم) ورسله إلى الملوك وأمراء جيوشه وسراياه ثم خلفاؤه من بعده وعمالهم كلهم خطباء مصاقع ولسنا مقاول أعانهم على ذلك أنهم يخطبون عرباً مثلهم للبلاغة عندهم هزة فى النفس وروعة فى القلب – وأن الشرع الشريف صرفهم عن الشعر الذى لا ينهض بأعباء الخطابة ولا سيما الدينية لشرحها الحقائق وقرعها الأسماع بالحجج العقلية والنقلية ، وترغيبها فى الثواب وترهيبها من العقاب وإطلاقها من قيود الوزن والقافية ولأنها تؤدى بعبارات تناسب الخاصة والعامة

وكان لهم من القرآن الكريم والسنة المحمدية والاقتباس منهما دائماً مدد لا ينفد ، ومعين لا ينضب . وعندما قامت الفتنة الشعواء بمقتل عثمان رضى الله عنه وهو أول حادث تصدع له بناء الجامعة الإسلامية انقسم لأجله المسلمون إلى فرقتين عظيمتين : عراقية وعلى رأسها إمام الخطباء وأمير البلغاء على رضى الله عنه وكرم الله وجهه . وشامية وعلى رأسها سيدنا معاوية رضى الله عنه ، وكان لكل دعوة يؤيدها ووجهة يناضل عنها ظهر فى تينك الطائفتين خطباء لا يحصى عددهم ولا يشق غبارهم ،وبعد انقضاء الشجار بين هاتين الطائفتين انقسمت كل طائفة منهما إلى أقسام متعددة لكل قسم خطباء كثيرون يؤيدون مذاهبهم ويدافعون عن نزعاتهم الدينية والسياسية بما أوتوا من بلاغة فى البيان وفصاحة فى اللسان .

والفضل فى ارتقاء الخطابة وتهذيبها يعود إلى الكتاب الحكيم والحديث الشريف فقد أخذت اللغة العربية عند ظهور الإسلام صيغة دينية من القيام بالدعوةوالنصح الإرشاد وتبيين العقائد الصحيحة وقواعد الإسلام وأصوله المحكمة وأحكامه العادلة وحكمه البالغة وآدابه العالية – وإنك لترى فى كلام الصدر الأول من الإسلام الحث على اتباع الدين القويم والتمسك به وإعلاء كلمة الحق والعمل للآخرة والأخذ من الدنيا بنصيب لا يشغل عنها والتحذير من الاسترسال فى اللذات والشهوات من النظر إلى خير الأقاليم التى فتحها المجاهدون والتطلع إليها خوف الافتتان بها والوقوع فى الزلل – فترى خطب هذا العصر المنير ورسائله ترجع إلى الكتاب والسنة حاثة على الفضيلة منفرة من النقيصة وكلها جاء فيه اللفظ تابعاً للمعنى صادرة عن شعور حى ووجدان صادق .

ولذا نفذت إلى سويداء القلوب وأصابت مواقع الوجدان وإذا كان القول صادراً عن قلب حى سليم فإنه يؤثر فى القلوب ويحركها نحو الغاية المقصودة بخلاف ما إذا كان صادراً عن اللسان فإنه لا أثر له ولا خير فيه. قال عامر بن عبد القيس : (إذا خرجت الكلمة من القلب دخلت القلب وإذا خرجت من اللسان لم تتجاوز الآذان) . وقد قضت هذه الخطب بما فيها من الحكم البالغة المواعظ المؤثرة والنصائح الخالصة الغالية على دولة الأوهام والرذائل (شأن الباطل أمام قوة الحق) وفسحت للحقائق والفضائل فصادفت أهلا وحلت مكاناً سهلا فتحلت بها النفوس وتغذت بها العقول وقويت العزائم وعلت الهمم فساد المسلمون يومئذ جميع الأمم وخضعت لهم رقاب الجبابرة ، وذلت لهم مماليد الفراعنة .

وبالجملة فقد كانت الخطابة فى الصدر الأول من الإسلام فى أسمى طبقات الفصاحة والبلاغة آخذة أسلوباً حياً متيناً مؤثراً مع إحكام فى الصنعة وحسن افتتاح وجودة اختتام كما ترى ذلك فى خطب الخلفاء الراشدين وغيرهم من الصحابة والتابعين رضوان الله تعالى عليهم أجمعين — كمعاوية وزياد بن أبيه وعبد الملك والحجاج وقطرى بن الفجاءة وأبى حمزة الشارى — وستأتى خطبهم إن شاء الله تعالى .

وإن الفضل فى ارتقاء الخطابة فى بلاغتها وتأثيرها فى عهد الصحابة والتابعين يرجع إلى الكتاب المبين والدين القويم من وجوه :

منها : أن القرآن الكريم : **« وإن نزل بلغة القوم التى بها يتخاطبون وبفصاحتها يتفاخرون »** بتراكيبه العالية وأساليبه المتينة التى أعجزت بلغاءهم وخطباءهم وأخذت بمجامع قلوبهم قد أكسبتهم ملكة من البلاغة فى انتقاء المعانى وتخير الأساليب السامية غيرت ملكتهم الأولى وأطلقت ألسنتهم من عقال الوحشية . والتقعر الذى كان ديدن كثير من خطبائهم فصاروا يقتفون أثره وينسجون على منواله ويزينون كلامهم فى رسائلهم وخطبهم بذكر آى منه حتى أنهم كانوا يعيبون الخطيب المصقع إذا خلا كلامه عن آى القرآن الحكيم

فقد روى الجاحظ عن الهيثم بن عدى عن عمران بن حطان أنه قال :

خطبت خطبة عند زياد أو ابن زياد فأعجب بها زياد وشهدها عمى وأبى ، ثم إنى مررت ببعض المجالس فسمعت رجلا يقول لبعضهم : هذا الفتى أخطب العرب لو كان فى خطبته شىء من القرآن — روى عن الهيثم أيضاً أن العرب كانوا يستحسنون أن يكون فى الخطب يوم الحفل وفى الكلام يوم الجمع آى من القرآن فإنه مما يورث الكلام البهاء والوقار وحسن الموقع .

ومنها : أن ما جاء فى القرآن الحكيم من الترغيب والترهيب والوعد والوعيد على الأسلوب البالغ حد الإعجاز وما كان له من التأثير فى القلوب والأخذ بشكائم النفوس أعانهم على التفنن فى أساليب الوعظ الخطابى عند حلول الأزمات أو الحاجة إلى تأليف قلوب الجماعات حتى لقد كان الخطيب البليغ منهم يدفع بالخطبة الواحدة من الملمات ما لا يدفع بالبيض المرهفات ، ويملك من قلوب الرجال . ما لا يملك بالبدر والأموال . كما صنع أبو بكر رضى الله عنه فى خطبته يوم السقيفة التى امتلك بها قلوب المهاجرين والأنصار وصرف عن الأمة تلك الفتن الكبار . وكما صنع الحجاج فى أول خطبة له فى أهل العراق يوم قلبوا للدولة المروانية ظهر المجن ، واثاقلوا عن الخروج لقتال الخوارج فإنهم ما طرق مسامعهم داعى الأمير إلى المسجد حتى أخذوا يفدون إليه أفواجاً يلتقطون من أرضه الحصى يريدون رجمه بها وهو على المنبر استصغاراً لشأنه واحتقاراً لمولاه ولم يلبثوا أن طرقت أسماعهم زواجره واخترقت أسوار قلوبهم صوادع كلمه حتى تناثرت من أيديهم الحصى وخشعت منهم النفوس،وطأطأت الرقاب رهبة منه وإجلالا له، كما ستقف عليه إن شاء الله تعالى .

ومنها : أن الإسلام بما هذب من أخلاقهم وألان من جفاء طباعهم وعدل من شيمهم أدخل من الرقة على عواطفهم ما رق به كلامهم وكثر للمعانى المؤثرة فى النفوس اختيارهم فى خطبهم ومخاطباتهم .

ومنها : أن الدين الحنيف بما مهد لهم من سبل الفتح ومخالطة الأمم وبما منحهم من سعة السلطان والسيادة على شعوب وفر لهم الأسباب الداعية إلى التوسع فى الخطابة بما تدعو إليه حاجة التوسع فى الملك والعمران وتقتضيه عادات الأمم المحكومة وأخلاقها — قال ابن خلدون: إن كلام الإسلاميين

من العرب أعلى طبقة فى البلاغة من كلام الجاهلية فى منثورهم ومنظومهم فإنا نجد شعر حسان بن ثابت ، وعمر بن أبى ربيعة ، والحطيئة ، وجرير ، والفرزدق ،ونصيب ، وغيلان ذى الرمة ، والأحوص ، وبشار ، وأمثالهم ثم كلام السلف من العرب فى الدولة الأموية وصدر الدولة العباسية فى ترسلهم وخطبهم ومحاوراتهم للملوك أرفع طبقة فى البلاغة من شعر النابغة وعنترة وعمرو بن كلثوم وزهير وعلقمة بن عبدة وطرفة بن العبد ومن كلام الجاهلية فى منثورهم ومحاوراتهم ، والطبع السليم والذوق الصحيح شاهدان بذلك للناقد البصير بالبلاغة . والسبب فى ذلك أن هؤلاء الذين أدركوا الإسلام سمعوا الطبقة العالية من الكلام فى الحديث الشريف والقرآن الكريم الذى أعجز البشر عن الإتيان بمثله لكونها ولجت فى قلوبهم ونشأت على أساليبها نفوسهم ونهضت طباعهم وارتقت ملكاتهم فى البلاغة على ملكات من قبلهم من أهل الجاهلية ممن لم يسمع هذه الطبقة ولا نشأ عليها فكان كلامهم فى نظمهم ونثرهم أحسن ديباجة وأصفى رونقاً من أولئك وأرصف مبنى وأعدل تثقيفاً بما استفادوه من الكلام العالى الطبقة اهـ .

هكذا كان شأن الخطابة فى صدر الإسلام ومبلغ تبريز القوم فيها وتسلطهم على النفوس الجافية بقوة سلطانها ، وقوى برهانها ، فلقد كان الخلفاء والأمراء من أنبغ الناس فيها وأكثرهم حرصاً عليها وكانوا يقربون الخطباء ، ويجزلون لهم العطاء . ويستعينون بهم فى استنهاض الهمم ، وإطفاء نار الفتن وتلك كانت منزلة الخطابة إلى أول دولة بنى أمية ثم بدأ يعروها الوهن ويحفها الفساد من أواسط الدولة المروانية حيث كان استحكم الفساد باللغة العربية بمعاشرتهم للأعاجم ، ودب فى نفوس الخلفاء داء العظمة والكبرياء ، فأقلوا من الظهور للعامة ، وترفعوا عن الوقوف موقف المخاطب للناس .

وقد كان الخلفاء فى صدر الإسلام يخطبون الناس عند طروء كل حادث جلل بلا تقييد بوقت ولا تكلف لقول ، فكانوا يجمعون المسلمين إلى المسجد تارة لإعلان خبر وتارة لاستشارتهم ووقتاً لتحذيرهم وآخر لوعظهم وتذكيرهم وأنى لمن اتخذوها بعد كسروية أن يقفوا للناس هذا الموقف وهم يرون

أن الرأى سلطان لا يتعداهم ، وأن الناس بالنسبة إليهم همل لا ينبغى لعصا القوة والجبروت أن تتخطاهم .

ما أعظم مكانة الخطيب فى النفوس وأنفذ كلامه فى القلوب وأشد إثارته للعواطف إذا كان ذلك الخطيب أمير القوم الذى تتجه نحوه أنظارهم وتحدق به أبصارهم وتلتف حوله قلوبهم وتترامى إليه آمالهم . يستلينهم بالقول إذا قسوا ويستخضعهم به إذا عصوا ، ويمتلك نفوسهم بالرغبة تارة وبالرهبة أخرى ، وينفخ فيهم وقت الحاجة روح الحماس فيقذف بهم الجبال فيدكونها بين يديه ويلين لهم بالقول فإذا استوهبهم الأموال بل الأرواح وهبوها له — تالله إنها لمكانة سامية انحط عنها الأمراء على غير علم وسلطان نافذ القوة فى الأرواح لا يدانيه نفوذ قوتهم الجبروتية فى الأجسام (وأنى يضارع الروح الجسم) .

ولقد كان أول وهن دخل على سلطان الخطابة فى الإسلام فى عهد الوليد ابن عبد الملك حين بدأ يخطب على المنبر جالساً وقد كان الخلفاء قبله يقفون لها . ومن ثم دب دبيب الاستهانة بهذا الموقف العظيم الشأن الجليل الشرف حتى مجه الخلفاء والأمراء وانحط عنه القادة إما عجزاً عن الوفاء بحقه فلم تثبت أقدامهم فيه وأما استهانة به وترفعاً عنه — غير أن ذلك لم يكن لينسيهم حلاوة العربية الأولى ولم يثن من عزمهم عن التنافس فى مغزاها والحرص بقدر الإمكان على معناها إذ هى لغة العلم والدين والسلطان والقرآن الكريم ، فنبغ فى الرعية خطباء ملكوا ببلاغتهم قلوب الأمة وخرجوا على الدولة وقاموا بالدعوة للعباسيين ، ونبغاء عصر بنى أمية مع قلتهم فاقوا العد ، وتجاوزوا الحد ومن أشهرهم زياد بن أبيه ، والحجاج ، وقطرى بن الفجاءة ، وأبو حمزة الشارى وشبيب بن شيبة .

ولما كان قيام الدولة العباسية فى المشرق والأدريسية بالمغرب والأموية الثانية بالأندلس من الأمور التى ينشأ عنها كثير من الانقلابات السياسية والمذهبية والاجتماعية ، وكان ذلك يستدعى تأليف العصابات ودعوة الناس إلى التشيع لزعماء الأحزاب والإنكار على ما انتهكته الدولة الأموية من حرمات الدين ، وكان التفاهم بالعربية الفصحى والانخداع بالبلاغة والشعر لا يزال متوافراً فى صدر هذا العصر كانت الداعية إلى الخطابة متوافرة لتوافر أسبابها

ووجود أهلها – وكان من دعاة الدولة العباسية وقوادها وخلفائها وولاتها ورؤساء وفودها خطباء مصاقع ، وبلغاء فطاحل لا يقلون عمن اشتهر من نظرائهم فى الدولة الأموية .

ولكن لما فترت هذه الدواعى باستقرار الدول وكثر اختلاط العرب بالعجم وتولى كثير من الموالى قيادة الجيوش وعمالة الولايات والمواسم ضعف شأن الخطابة لضعف قدرتهم عليها وقلة المجيبين لها لتناقص العناصر العربية فى الجند وأهل النجدة ، فلم يمض قرن ونصف من قيام هذه الدولة حتى بطل شأن الخطابة السياسية والمذهبية إلا قليلا فى المغرب أيام الحفل وقدوم الوفود وبقيت قاصرة على خطب الجمع والأعياد والمواسم والزواج ونحو ذلك وقل فيها الارتجال أو عدم جملة ، وحل محلها فى الأمور السياسية عمل المنشورات وفى الأمور الدينية مجالس الوعظ والتزهيد والتدريس فى المساجد والمدارس . (نعم) بقيت الخطابة ببعض أنواعها فى البادية زماناً طويلا بعد اضمحلالها فى الأمصار لتباطؤ فساد اللغة فى جزيرة العرب لقلة اختلاطهم بالعجم حتى كانت فتن الزنج فى أواخر القرن الثالث والقرامطة فى أواخره إلى نهاية القرن الرابع فامتزج كثير من الأعاجم بعرب الجزيرة ، وضاعت النعرة العربية فيهم ودب الفساد إلى لغتهم ، وعادوا إلى جهالة لم تعهد فيهم حتى فى عصر الجاهلية .

واشتهر بالخطابة فى هذا العصر جملة من الخطباء جلهم من بنى هاشم وبعض زعماء بنى أمية بالأندلس وآل الأغلب فى أفريقيا – ومن أشهرهم داود بن على بن عبد الله بن العباس رضى الله عنهم فى القرن الثانى والمهدى وهارون والمأمون وكان آخر الخطباء المجيدين من خلفاء المسلمين رضى الله عنه .

وكانت موضوعاتها فى الغالب الوعظ والنصح والذود عن الحقوق ورد جماح الأطماع وتأليف الأحزاب وتوحيد الكلمة – ولم يخرج الخطباء فى عهد الإسلام عن مألوفهم فيما قبل الإسلام من الاعتماد على العصا ونحوها والخطبة من قيام إلى غير ذلك – وكان (صلى الله عليه وسلم) يخطب قائماً على المنبر معتمداً على عصا . روى الإمام أحمد وغيره من حديث سعد بن عائذ وسعد القرظى مؤذن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا خطب فى الحرب خطب على قوس وإذا خطب فى الجمعة خطب

على عصا . وهكذا كانت الخلفاء بعده — ومما تقدم تعلم أن الخطابة فى عهد الإسلام قد امتازت عنها فى عهدالجاهلية بأمور :

١ — أخذها وجهة دينية فى مثل خطب الجمع والأعياد والحج والوعظ والإرشاد .

٢ — اتباعها خطة سياسية فى مثل تكوين الأحزاب وتأليف الجماعات وتوحيد الكلمة والتحريض على الجهاد لإعلاء كلمة الله تعالى وتأسيس الملك بحالة تغاير ما كانت عليه العرب فى الجاهلية فى ذلك .

٣ — صفاءألفاظها وسهولة عباراتها ومتانة أساليبها وتجنبها سجـع الكهان وقلة القصد فيها إلى سرد الحكم القصيرة الدقيقة لمناسبة وغير مناسبة خلافاً لما كانت عليه فى الجاهلية .

٤ — قوة تأثيرها ووصولها إلى سويداء القلوب وامتلاكهاالوجدانوالشعور بما يرقق القلوب القاسية ويسيل الأعين الجامدة .

٥ — محاكاتها أسلوب القرآن الحكيم فى الإقناع واستمدادها من آياته حتى اشترط بعض الأئمة اشتمال الخطبة على شىء منه .

٦ — بداءتها بحمد الله عز وجل والثناء عليه تعالى والصلاة والسلام على النبى وآله وصحبه .

* * *

الخطابة فى النهضة الأخيرة من سنة ١٢٠٢ إلى الوقت الحاضر

لقد كانت دائرة الخطابة ضيقة فى فاتحة هذه النهضة فكان أهل مصر وسوريا والحجاز لا يستعملونها إلا فى الأغراض الدينية، ثم تنوعت أغراضها لما اتسعت دائرة الأفكار فى عهد إسماعيل باشا ، وعلى أثر مجىء السيد جمال الدين الأفغانى إلى مصر فقد التف حوله كثير من رجال الأزهر وأدباء مصر وسوريا وأدخلهم فى جمعيته، واتخذ لهم أندية كانوا يتناوبون فيها الخطابة فى الأمور الدينية والأخلاقية، ثم انتقلت منها إلى الشئون السياسية وفشت الخطابة على عهد توفيق باشا بين شبان مصر وولدت رجال الثورة العرابية — ومن أشهر خطبائهم السيد عبد الله النديم وكان رحمه الله لا يدانيه أحد فى البديهة وشدة العارضة وقوة التأثير فى السامعين وكان يجيد الخطابة بالعربية الفصحى والعامية ، والأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده وغيرهما — ولما أقيمت الجمعيات العمومية والنوادى الأدبية وتعددت الأحزاب السياسية بمصر أخذت الخطابة مكانة سامية فى الحياة السياسية والأدبية وأصبحت فى عصرنا هذا على حال زاهية لا تقل كثيراً عما كانت عليه فى أطوارها الأولى أيام الدول العربية .

وبالتأمل فى أطوار الخطابة يعلم أنها قد ارتقت فى ثلاثة أحوال :

فى أواخر عصر الجاهلية ، وفى صدر الإسلام ، وفى أيام النهضة الأخيرة .

ومن الحالة الأولى : نعلم أن من دواعى رقيها بعد فصاحة اللغة حياة الأمة فى بيئة حرة مستقلة، وشعورها بأنها ذات سؤدد وفخار وكثرة خوضها غمار الحرب للذود عن حياضها والذب عن كرامتها .

ومن الحالة الثانية : نعلم أن من دواعى رقى الخطابة اعتناق الأمة ديناً تحملها الغيرة والعاطفة على التفانى فى المحافظة عليه، والجهاد فى سبيله، ونشر تعاليمه ، وبث نصائحه بما تملك من قوة .

ومن الحالة الثالثة : أن من عوامل رقيها شعور الأمة بالحاجة إلى أن تحيا حياة شريفة وأن تسلك الحالة الاجتماعية السياسية سبيلا أهدى من سبيلها وطريقاً أقوم من طريقها .

الفصل الثالث

فى أصول الخطابة

هى ثلاثة : الإيجاد ، والتنسيق، والتعبير — والأول هو إعمال الفكر فى استنباط الوسائل الجديرة بإقناع السامع. والوسائل الأدلة — ولابد مع الأدلة من توافر الآداب الخطابية ، والعلم بالأهواء والميول النفسانية . وذلك أن مقصود الخطيب :

أولا : إنارة العقول وتنبيه الأذهان وحملها على الإذعان ، وذلك لا يتم إلا بالأدلة .

ثانياً : التأثير فى الأرواح وجذب القلوب ، وذلك يكون بتوافر الآداب فى الخطيب .

ثالثاً : استمالة النفوس إلى ما يطلب منها بإثارة عواطفها ، وذلك يكون بمعرفة الأهواء والغرائز ، وطرق تهييجها أو تسكينها ، ولكل من هذه الثلاثة مبحث يخصه .

• • •

المبحث الأول

فى الأدلة

الدليل فى اللغة : المرشد ، وفى اصطلاح الحكماء ما يلزم من العلم به العلم بشئ آخر ، وهو قطعى وظنى ، فالقطعى ما أوجب التصديق اليقينى ويسمى برهاناً وهو ما تألف من اليقينيات الست .

١ – أوليات وهى القضايا التى يدركها العقل بمجرد تصور الطرفين كقولك : الواحد نصف الاثنين والكل أعظم من الجزء .

٢ – مشاهدات وهى القضايا التى يدركها العقل بالحس الظاهر .

٣ – مجربات وهى ما يدركها العقل بواسطة تكرار يفيد اليقين كقولنا : السقمونيا مسهلة للصفراء .

٤ – حدسيات وهى القضايا التى يدركها العقل بواسطة حدس يفيد العلم كقولك : نور القمر مستفاد من نور الشمس .

٥ – متواترات وهى ما يدركها العقل بواسطة السماع عن جمع يؤمن تواطؤهم على الكذب .

٦ – قضايا قياساتها هى القضايا التى قياساتها معها وهى ما يدركها العقل بواسطة لا تغيب عن الذهن عند تصور الطرفين كقولك : الأربعة زوج فإن العقل يدرك ذلك بواسطة لا تغيب عن الذهن عند تصور الطرفين وهى أن الأربعة تنقسم إلى متساويين وكل منقسم إلى متساويين زوج .

والبرهان لا يستعمل فى الخطابة قال فى المناهج الأدبية : والأقوال الصادقة يقيناً لا تقع فى الخطابة من حيث أنها خطابة ، فإن ألم بها الخطيب فقد عدل بالخطابة عن أصلها . والظنى ما أفاد الظن فقط ويتألف من غير اليقينيات وهى ست أيضاً مشهورات مسلمات والمؤلف منها يسمى جدلا ، كقولنا : الظلم قبيح وكل قبيح يشين والإحسان خير وكل خير يزين وقولك : خبر زيد خبر عدل وكل ما هو كذلك يعمل به – ومظنونات . مقبولات والمؤلف منها يسمى خطابة ، مخيلات والمؤلف منها يسمى شعراً ،

ووهميات والمؤلف منها يسمى سفسطة ، كقولك فى أمة شرقية : هذه أمة تساس بإرادتها لأن لها مجلساً نيابياً ينظر فى شئونها فإنه استدلال خطابى مؤلف من أقوال مظنونة إذ الشأن فى الأمم ذات المجالس النيابية أن تكون مسوسة بإرادتها . وليس هذا دليلا قطعياً لجواز أن تتغلب عوامل الهوى عند الانتخاب فلا يكون صحيحاً كقولك لمن تأخذه العزة بالإثم حينما تنكر عليه قوله أو عمله لا تستنكف أن ينكر عليك قولك أو عملك فقد قال أبو بكر الصديق رضى الله عنه لما بويع بالخلافة : « فإن رأيتمونى على حق فأعينونى وإن رأيتمونى على باطل فردونى » ، فإنه أيضاً استدلال خطابى قام على أقوال مقبولة صدرت من تقى يعتقد صدقه وكقول أرسطو لإسكندر : إن الناس إذا قدروا أن يقولوا : قدروا أن يفعلوا فاحترس من أن يقولوا : تسلم من أن يفعلوا ، فإن مبناه غلبة الظن لجواز أن يكون القادر على القول عاجزاً عن الفعل ، وأن يوجد الاحتراس ولا توجد السلامة من أفعال الناس وباقى الأمثلة لا تخفى على بصير .

وتؤخذ أدلة الخطابة من التأمل فى موضوع البحث وإمعان النظر فى أحواله وتسهيلا لاستخراج هذه الأدلة قد وضع الأقدمون من اليونان جدولا لما يمكن استعماله منها ، وأطلق العرب عليه اسم : مواضع قال ابن سينا : إن الحجج فى الجدل والخطابة تؤخذ من المواضع فمن طلب الإقناع وهو لا يعلمها كان كحاطب ليل يسعى على غير هداية لا لبخل فى الموضوع بل لنقصان فى الاستعداد فالمواضع مصادر الأدلة العامة التى يمكن للخطيب استعمالها فى كل مقام إما لإثبات قوله وتأييد رأيه أو توسيع المعانى بحسن البيان وهى نوعان ذاتية وعرضية .

فالذاتية ما تستفاد من ذات الموضوع وهى كثيرة :

منها : تعريفه بذكر خواصه اللازمة أى البينة الثبوت له والانتفاء عن غيره كقول الإمام على كرم الله وجهه لكميل بن زياد النخعى يا كميل . العلم خير من المال العلم يحرسك وأنت تحرس المال والعلم حاكم والمال محكوم عليه والمال تنقصه النفقة والعلم يزكو على الإنفاق مات خزان الأموال وهم أحياء والعلماء باقون ما بقى الدهر ، أعيانهم مفقودة وأمثالهم فى القلوب موجودة .

ومنها : شرح الأعراض التى تختص جملتها به فإنه فى معرفتها إعانة على كمال معرفة ما هى له فالتحلى بها كقول الحسن البصرى لعمر بن عبد العزيز

فى وصف الإمام العادل . اعلم يا أمير المؤمنين أن الله جعل الإمام قوام كل مائل وقصد كل جائر وصلاح كل فاسد وقوة كل ضعيف ونصفة كل مظلوم ومفزع كل ملهوف ، والإمام العدل يا أمير المؤمنين كالراعى الشفيق على إبله الرفيق الذى يرتاد لها أطيب المرعى ويذودها عن مراتع المهلكة ويحميها من السباع ويكنفها من أذى الحر والقر وكالأب الحانى على ولده يسعى لهم صغاراً ويعلمهم كباراً يكتسب لهم فى حياته ويدخر لهم بعد مماته . وكالأم الشفيقة البرة الرفيقة بولدها حملته كرهاً ووضعته كرهاً وربته طفلا تسهر بسهره وتسكن بسكونه ترضعه تارة وتفطمه أخرى وتفرح بعافيته وتغتم بشكايته ، وكالقلب بين الجوانح تصلح الجوانح بصلاحه وتفسد بفساده.

ومنها : تعريف الشيء بذكر آثاره فإن حقائق الأمور خفية وإنما تظهر بفوائدها وآثارها فإذا أردت إثبات حكم لأمر أو نفيه عنه فعدد آثاره الحسنة أو السيئة التى يستدل منها على صلاح علتها أو فسادها إذ حال المعلومات تابع لحال عللها ثم ابن حكمك على ذلك فى مقام الترغيب فيها أو الترهيب منها ، كقولك فى الصوم مثلا : إن للصوم آثاراً حسنة وفوائد عظيمة :

١ — إنه يضبط النفس ويطفىء شهوتها فإنها إذا شبعت تمردت وطلبت الشهوة وإذا جاعت خضعت وامتنعت عما تهوى قال صلوات الله وسلامه عليه : « يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء » (متفق عليه) . فكان الصوم ذريعة إلى كف النفس عن المعاصى .

٢ — أنه وسيلة إلى تربية النفوس وتهذيبها لأنها إذا انقادت للامتناع عن الحلال الذى لا غنى لها عنه طلباً لمرضاة الله تعالى وخوفاً من أليم عذابه فأولى أن تنقاد للامتناع عن الحرام الغنية عنه فكان سبباً فى اتقاء المحارم وقوة العزيمة وإليه الإشارة بقوله تعالى **« لعلكم تتقون »**

٣ — أنه وسيلة إلى شكر النعمة إذ هو كف النفس عن الأكل والشرب ومباشرة الحليلة وهى من جلائل النعم والامتناع عنها زماناً معتبراً يعرف الإنسان قدرها إذ لا يعرف فضل النعمة إلا بعد فقدها فيبعثه ذلك على القيام بشكرها (وشكر النعمة واجب) وإليه الإشارة بقوله تعالى **« ولعلكم تشكرون »** .

٤ ـ أنه يبعث فى الإنسان فضيلة الرحمة بالفقراء والعطف على المساكين فإنه إذا ذاق ألم الجوع فى بعض الأوقات تذكر به من هو ذائقه فى جميع الأوقات فيسارع إلى رحمته والإحسان إليه .

٥ ـ أنه ينقى الجسم من الفضلات الرديئة والرطوبات المعوية ويشفى من اضطرابات الأمعاء المزمنة ، والبول السكرى وزيادة الضغط الذاتى والتهاب الكلى الحاد والمزمن وأمراض القلب المصحوبة بورم وما إلى ذلك من المزايا الصحية التى شهد بها العدو قبل الصديق .

وقس على ذلك آثار تناول المسكرات وتعاطى المخدرات ومضارها البدنية ، العقلية والمالية والاجتماعية ـ واعلم أن التشبيه المعروف عند البيانيين وإن كانت الغاية منه حسن البيان إلا أنه يأتى أيضاً للإقناع وكثيراً ما يتوسل به الخطباء إلى مقاصدهم لأنه يزيد المعنى وضوحاً ويكسبه تأكيداً ولهذا جاء كثيراً فى الكتب السماوية وأطبق عليه جميع المتكلمين من العرب والعجم ولم يستغن أحد منهم عنه ، وقد جاء عن القدماء وأهل الجاهلية من كل جيل ما يستدل به على شرفه وفضله وموقعه من البلاغة بكل لسان كقوله تعالى ترغيباً فى بذل الأموال فى الجهاد لإعلاء كلمة الله ووجوه الخير « **مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم** » . وقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « المسلمون كالجسم الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالحمى والسهر » رواه الجماعة ، قول ابن المقفع : الدنيا كالماء الملح كلما ازداد صاحبه شرباً ازداد عطشاً ، وكالكأس من العسل فى أسفله السم للذائق منه حلاوة عاجلة وفى آخره الموت الزعاف أى السريع ـ وكأحلام النائم التى تفرحه فى منامه فإذا استيقظ ذهب الفرح .

ألا إنما الدنيا كأحلام نائم ... وما خير عيش لا يكون بدائم
تأمل إذا ما نلت بالأمس لذة ... فأفنيتها هل أنت إلا كحالم

فإنه شبه الدنيا ولذاتها فى سرعة الانقضاء بالحلم .

ومنها : المثل ولضرب الأمثال فى الخطابة مزايا لا يستهان بها فإنها

ألطف ذريعة إلى القلوب الغبية وأقوى وسيلة إلى تسخير العقول الأبية . ذلك لأنها تصوير للمعقول بصورة المحسوس . وإيراد لأوابد المعانى فى هيئة المأنوس. وبذلك تبقى صور المعانى راسخة فى الأذهان . لا تذهب بطول الزمان ولا يأتى عليها النسيان . وهى أنواع مفترضة ممكنة وهى ما نسب فيها النطق والعمل إلى عاقل كالأمثال النبوية وتختلف عن الحكاية من وجهين .

١ — أن لها مغزى .

٢ — كونها غير واقعية وإن كانت فى حيز الإمكان — ومخترعة مستحيلة وهى ما جاءت على ألسنة الحيوانات والجمادات فيعزى لها النطق والعمل لإرشاد الإنسان كأمثال كليلة ودمنة ومختلطة وهى ما دار فيها الكلام والعمل بين الناطق وغيره : وكثيراً ما يكون ضرب المثل على وجه التشابه والحكم كما قال ابن المقفع فى مودة الصالحين والأشرار : المودة بين الصالحين سريع اتصالها بطىء انقطاعها كآنية الذهب بطيئة الانكسار هينة الإعادة ، والمودة بين الأشرار سريع انقطاعها بطىء اتصالها كآنية الفخار يكسرها أدنى شىء ولا وصل لها أبداً ، وقوله : يبقى الصالح من الرجال صالحاً حتى يصاحب فاسداً فإذا صاحبه فسد مثل مياه الأنهار تكون عذبة حتى تخالط ماء البحر فإذا خالطته ملحت — وملح من بابى دخل وسهل — ومن الصور الوهمية التى يخترعها الوهم والأمور الفرضية التى يبتدعها الخطباء وسيلة إلى المقصود قول ابن المقفع مخترعاً صورة حسية لتبيان قصر الحياة ولذاتها الزائلة وعدم خلوها من المخاطر والمنغصات : التمست للإنسان مثلا فإذا مثله مثل رجل لجأ من خوف فيل هائج إلى بئر فتدلى فيها وتعلق بغصنين كانا على سمائها فوقعت رجلاه على شىء فى طى البئر فإذا حيات أربع قد أخرجن رءوسهن من أجحارهن ، ثم نظر فى قاع البئر فإذا فيه تنين فاتح فاه منتظر له ليقع فيأخذه فرفع بصره إلى الغصنين فإذا فى أصلهما جرذان أسود وأبيض وهما يقرضان الغصنين دائبين لا يفتران فبينما هو فى النظر لأمره والاهتمام لنفسه إذ أبصر قريباً منه كَوَارَةً(١) فيها عسل نحل فذاق العسل فشغلته حلاوته وألهته الفكرة فى شىء من أمره وأن يلتمس الخلاص لنفسه ، ولم يذكر أن تحت رجليه حيات أربع لا يدرى متى يقع عليها ولم يذكر أن الجرذين دائبان فى قطع الغصنين

(١) الكوارة والكوار : بيت يتخذ للنحل من قضبان ضيق المدخل تعسل فيه .

ومتى انقطع وقع على التنين فلم يزل لاهياً غافلا مشغولا بتلك الحلاوة حتى سقط فى فم التنين فهلك — فشبهت بالبئر الدنيا المملوءة آفات وشروراً ومخافات وعاهات ، وشبهت بالحيات الأربع الأخلاط الأربعة التى فى البدن فإنها متى هاجت أو أحدها كانت كحمة الأفاعى والسم المميت ، وشبهت بالغصنين الأجل الذى لا بد من انقطاعه ،وشبهت بالجرذين الأسود والأبيض الليل والنهار اللذين هما دائبان فى إفناء الأجل ، وشبهت بالتنين المصير الذى لا بد منه ، وشبهت بالعسل هذه الحلاوة القليلة التى ينال منها الإنسان فيطعم وينظر ويسمع ويشم ويلمس ويتشاغل عن مآله ، ويلهو عن شأنه ، ويصد عن سبيل قصدها هـ . أى أن الإنسان فى الدنيا مشغول بلذاتها الحقيرة الفانية عن الاهتمام بمصير أمره وطلب النجاة لنفسه فى تلك الحياة ليظفر بنعيمها العظيم الباقى .

وعلى الجملة فلضرب الأمثال أحسن موقع فى الخطابة قال ابن المقفع إذا جعل الكلام مثلا كان أوضح للمنطق ،وآنق للسمع ،وأوسع لشعوب الحديث . وقال إبراهيم النظام وقد خص بقوله: الأمثال السائرة فى المثل أربع لا تجتمع فى غيره من الكلام : إيجاز اللفظ وإصابة المعنى وحسن التشبيه وجودة الكناية فهو نهاية البلاغة كقولهم (الصيف ضيعت اللبن) لمن يقصر فى طلب الشيء فى أوانه ثم جاء يطلبه فى غير أوانه .

والأدلة العرضية ما تؤخذ من مصادر خارجة عن الموضوع يحتج بها الخطيب لإثبات قضيته وتأييد رأيه وتلك المصادر نوعان: إلهية وبشرية فالإلهية ما كانت عن وحى كالكتب المنزلة ، والبشرية سنن الأنبياء والرسل وأقوال مشاهير الأئمة وحكم الفلاسفة ومألوف عادات الأمم كقوله تعالى فى إثبات فضل العلم ترغيباً فيه : « **شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائماً بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم** »(١) . فشهادته تعالى بتوحيده هى إعلامه على لسان رسله أو بيانه بنصب الأدلة القاطعة لذلك فى الآفاق وفى نفوس البشر وشهادة الملائكة وأولى العلم بالتوحيد هى إقرارهم به — خص تعالى أولى العلم بالذكر من بين الآدميين تنبيهاً على أنهم هم المعتبرون وشهادتهم هى الموثوق بها أما غيرهم فهمل لا اعتداد به ولا وزن لشهادته وكفى بذلك شاهداً بفضل العلم وأهله وهذا أحد الوجوه التى تشير إلى فضل العلم والعلماء مما تضمنه هذا التنزيل الحكيم .

---

(١) سورة آل عمران الآية : ١٨ .

وثانيها : اقتران شهادتهم بشهادته تعالى فإن من المقطوع به أن شهادته تعالى كافية : « **وكفى بالله شهيداً** » ، لأنها من عليم خبير بدقائق خلقه وأسرار كونه فقرنه تعالى شهادة العلماء بشهادته إعلام منه تعالى بأنها حق ناشئة عن علم وخبرة وكفى بذلك فضلا للعلم والعلماء — وكقول رسول الله صلى الله عليه وسلم ، « من يرد الله به خيراً يفقهه فى الدين » متفق عليه أى يجعله فقيهاً فى الدين والمراد العلم المستلزم للعمل وفى حديث أبى الدرداء : « إن العلماء ورثة الأنبياء » . أخرجه أبو داود والترمذى وابن ماجه وغيرهم » ومعلوم أنه لا رتبة فوق النبوة ولا شرف فوق شرف الوراثة لتلك الرتبة العالية — وقال البيهقى : سمعت سعيد بن داود يقول : سألت ابن المبارك : من الناس ؟ فقال العلماء : قلت : فمن الملوك ؟ قال : الزهاد . قلت : فمن السفلة ؟ قال : الذين يعيشون بدينهم . والسفلة بكسر السين وسكون الفاء . . ولم يجعل غير العالم من الناس لما روى عن ابن مسعود : الناس رجلان عالم ومتعلم ولا خير فيما سواهما — لأن الخاصية التى بها يتميز الإنسان عن غيره هى العلم فإذا فقدت فقد منه شرف الإنسان والتحق بالبهائم إذ لم يبق معه إلا القدر المشترك بينه وبين سائر الدواب وهو الحيوانية المحضة لأن نطقه حينئذ كلا نطق فلم يبق فيه فضل على العجماوات بل قد يكون شراً منها — كالجهال الذين استهوتهم الزخارف فارتكبوا المنكرات وخالطوا الشهوات فسلبت عقولهم ، وأفسدت حالهم وقد ضرب الله لهم فى كتابه مثلا بقوله : « **إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون** »(١) . وكانوا شر البهائم لإبطالهم ما ميزوا به وفضلوا لأجله .

وكقول المسعودى مرغباً فى حب الوطن والمحافظة عليه ، فأورد كثيراً من الأدلة للوصول إلى غرضه : إن من علامة الرشد أن تكون النفس إلى ولدها مشتاقة ، وإلى مسقط الرأس تواقة . وقد ذكر أن من علامة وفاء المرء ودوام عهده حنينه إلى إخوانه ، وشوقه إلى أوطانه ، وبكاءه على ما مضى من زمانه . قال ابن الزبير : ليس الناس بشىء من أقسامهم أقنع منهم بأوطانهم . وقال بعض حكماء العرب : عمر الله البلدان بحب الأوطان . وقال بعض حكماء الهند : حرمة بلدتك عليك مثل حرمة والديك . لأن غذاءك منهما وغذاءهما منها . وقال بقراط : يداوى كل عليل بعقاقير أرضه لأن الطبيعة تتضلع بهوائها وتنزع إلى غذائها . وقال أفلاطون : غذاء الطبيعة من أنفع أدويتها .

---

(١) سورة الأنفال الآية ٢٢ .

المبحث الثانى

فى آداب الخطابة

لما كان من غاية الخطيب التأثير فى الأرواح وامتلاك القلوب ، لم يكفه فى بلوغ هذه الغاية الإتيان بالأدلة فقط ، بل لا بد له مع ذلك من التجمل بالأحوال المرضية ، والتحلى بالآداب النفسية . وبذلك يجذب إليه القلوب ، ويستولى على النفوس ، ويقودها إلى ما يريد منها وهى عشر صفات :

الصفة الأولى : سداد الرأى وأصالة العقل ، وتمييزه لوجوه الأمور ، ومعضلات المشاكل ، ليهتدى إلى إثبات الحق وإدحاض الباطل بالأدلة المعقولة حتى يتأثر السامع لقوله وينقاد له ، فإن كان ضعيف النظر ، عاجزاً عن إقامة الأدلة سقطت دعواه أمام خصمه ، وتنكب عنه السامع استهانة به ويثبت لدى السامعين سداد رأيه بإيراد قضيته مثلا على صورة جلية قريبة المنال ، وإثباتها فعلا بالحجج اللامعة والشواهد النيرة ، ومعارضة أدلة الخصم وتفنيدها كقول الإمام على كرم الله وجهه لما بلغه اتهام بنى أمية له بالمشاركة فى دم عثمان رضى الله عنه : أو لم ينه أمية علمها بى عن قرفى(١) أو ما وَزَعَ الجهال سابقتى عن تهمتى ، ولما وعظهم الله به أبلغ من لسانى . أنا حجيج المارقين ، وخصيم المرتابين ، وعلى كتاب الله تعرض الأمثال ، وبما فى الصدور تجازى العباد .

الصفة الثانية : صدق اللهجة وصحة القول ، وحسن السيرة ، ليقع فى نفوس السامعين خلوص نيته ، واستقامة عمله ، وحرصه على الحقيقة — وعلامتها أن يظهر على ملامح وجهه أثناء الخطابة ما هو عليه من طهارة القلب والإخلاص فى العمل ، وبذلك تطمئن القلوب إلى تصديقه ، وتمتلىء

---

(١) قرفه قرفا بالفتح — عابه .

النفوس ثقة به، فيستمعون إلى قوله، وينقادون له – أما الكاذب سيء السلوك فلا تركن النفوس إليه ولو جاء بالصدق . قال أبو العتاهية :

والقول أبلغه ما كان أصدقه والصدق فى موقف مستسهل عال

الصفة الثالثة : التودد إلى الناس ، وموجبات التحبب إليهم كثيرة . منها التحلى بالوقار والتصون والوفاء والأمانة والعفة وعزة النفس وعلو الهمة حتى يعلم أنه إنسان كامل خال عن الأغراض، يعمل الخير للخير ،لا يريد عليه ثناء ولا جزاء من أحد إلا من الله الغنى الكريم ، فلذلك أثره فى إقبال الناس عليه ونجاحه فى مهمته .

الصفة الرابعة : رباطة الجأش وشدة القلب وهى منشأ صفات كثيرة حميدة فإنها تحفظ له كرامته فى أعين السامعين ، وتستبقى عقله معه وهو يخطب فيسدد ويتفنن ويرتب قوله ويحكم مقاطعه ، ويلحظ حركات القوم حتى ينهلهم المناهل التى يسوقهم الظمأ إليها .

الصفة الخامسة : البديهة الحاضرة ، وسرعة الخاطر ، فقد يطرأ على الخطيب فى أثناء خطابته أو على أثرها ما يلجئه إلى الكلام فإن لم تواته بديهته بكلام يماثل الأول أو يتفوق عليه سقط ما بناه ولا كذلك إذا كان يغترف من طبع نافع وفؤاد ذكى .

الصفة السادسة : أن يكون طلق اللسان بريئاً من الحصر(١) والعى واللجلجة والتمتمة والفأفأة والجمجمة والثرثرة وسماجة التكلف والإغراب ،وما إلى ذلك من العيوب المشهورة .

الصفة السابعة : الحذق فى إدراك مقتضى الحال وملاحظة طوائف الناس من الأعلين والأوساط والأدنين ،فيختار من الألفاظ ما يناسب كل طبقة ،ولا يجرح أحداً ممن يتحبب إليهم حتى تبقى لخطابته هزة فى كل قلب وتستريح لمغزاها كل نفس ،والحاذق من يعرف الطباع الغالبة على الجمهور

---

(١) الحصر : ضيق الصدر عند النطق والعى : ضد البيان واللجلجة : ترديد الكلام والتمتمة : رد الكلام إلى التاء والميم والفأفأة : ترديد الفاء والجمجمة : عدم تبيين الكلام والثرثرة : التفريق والتبديد والثرثار : المكثار .

فيأتى إليهم من ناحيتها إذ لا ريب أن لكل مقام مقالا . ولكل فريق من الناس خطاباً يليق بحاله ويوافق عقليته ويناسب سنه ، فلا يخاطب أشراف الناس وأوساطهم وسوقتهم بخطاب واحد ، فأولئك تكفيهم الإشارة وهؤلاء يحتاجون إلى بسط الكلام — فعلى الخطيب أن يكون مع كل طبقة على مقدار مبلغها من الفهم والاستعداد لقبول ما يريد غرسه فى نفوسها من المعانى . فعن ابن عمر رضى الله عنه مرفوعاً : « أمرنا معاشر الأنبياء أن نكلم الناس على قدر عقولهم » . رواه مسلم . وعليه أن يراعى الأعمار فى خطابه مع شاب فتى السن وكهل تام القوة وشيخ وقور مهيب ، فإن لكل سن نزعة خاصة وأخلاقاً خاصة وأحوالا تستدعى ما يناسبها من فنون الكلام — وبذلك يكون حكيما يضع الشيء فى محله ويداوى كل علة بدوائها ، وقد غلب على الأمراء والوزراء والحكام عظمة السلطان وترفع الإمارة والأنفة وإباء الطبع وعلو الهمة وتمام المروءة ، إلا أنه يظهر فيهم العجب والخيلاء ويكثر بينهم التكاثر والتفاخر بالمال والأتباع ، يحبون الاطراء ويستميلهم الخضوع والثناء ، ويأبون قبول التأديب ولا ينقادون إلى استماع النصح بسهولة ، فلا بد لهم من المهارة فى التلطف بهم ، واللين معهم .

وطبع الأغنياء غالباً على التيه والصلف والسير وراء الهوى والشهوة ، تبطرهم الكرامة ، ويطغيهم المال والجاه ، ويشغلهم الحذر والحرص على الدنيا عن الاستعداد للموت وما بعد الموت ، يترفعون على الفقراء ، ويتعظمون على من دونهم ، يتكلفون طباع السادة ، وقد لا يقفون عند حد الاعتدال فى المعاملة لاسيما حديثو العهد منهم بالنعمة . أما العلماء والأدباء ففيهم كرم الأخلاق ولين العريكة وحسن السيرة وسلامة الأعراض وعدم الشره فى عرض الحياة الدنيا وقلة الطمع فى الحطام الفانى يرتاحون إلى حسن السمعة وجميل الأحدوثة ويحبون التوقير والتعظيم ويميلون إلى النعوت الدالة على التفرد بالفضل والتفوق فى العلم والأدب . وجملة القول : أن لكل طبقة من الناس طباعاً وأخلاقاً وعادات وأحوالا تميزهم على اختلاف وظائفهم وصناعاتهم ومذاهبهم وأوطانهم لابد للخطيب الاجتماعى من ملاحظتها ، وعلى مقدار هذه الملاحظة تكون مكانته فى النفوس ، ونجاحه فى مهمته .

الصفة الثامنة : المهارة فى إثارة العواطف وتحريك أهواء النفوس حتى يجعل أزمة الحب والبغض والرغبة والنفور والفرح والحزن والرجاء واليأس والشجاعة . الخوف والحمية والأنفه والحلم والغضب وغيرها من مشاعر النفس فى قبضة يده ، وسيأتى بيان طرق الوصول إلى إثارة الأهواء .

الصفة التاسعة : سعة الاطلاع فإن الخطابة ، كما تعلم ، تتناول جميع الشئون الدينية والدنيوية ، ومسالك القول فيها متشعبة كمسالك الكتابة ، فكما يكون الكاتب ملماً بكل العلوم كذلك يكون الخطيب . ولهذا لا يسمى من يخطب خطبة محفوظة أو يجيد الخطبة فى شىء دون غيره خطيباً ، فلو برع بعض الخطباء فى نوع من أنواع الخطابة كالسياسية أو القضائية فإن هؤلاء لا يسمون خطباء على الإطلاق إلا إذا كانوا يحسنون سوى ما برعوا فيه ، وإن كان دونه.

الصفة العاشرة : التجمل فى شارته وإشارته وملابسه وهيئته وحب النظام فى كل ما يحتف بالخطبة . وهذا وإن لم يكن من الصفات التى تقوم عليها الخطابة إلا أنه أمر يجب العناية به لأنه مطمح الأنظار ، والنظر يفعل فى القلوب ما يفعل السمع لا سيما فى هذا الزمان المفتون الذى يحترم فيه المرء بمجرد حسن هيئته ، فهو من هذه الناحية لا ينقص اعتباره عن اعتبار الصفات الأصلية . وجملة الأمر أنه يلزم أن يكون الخطيب أحرص الناس على الكمال وأبعدهم عن النقص ، فإن الذى ينصب نفسه لقيادة الناس يجب أن يكون من الفطانة والسداد بمنجاة من أقل الهفوات فإن أدنى هفوة تسقط اعتباره وتهون على الناس أمره ، حتى يجعلوا مجلسه ملهاة من الملاهى ، لا عبرة من العبر وبالله تعالى التوفيق والهداية .

• • •

المبحث الثالث
فى الأهواء والميول

قد عرفت أن مقاصد الخطيب استمالة النفوس إلى ما يريد منها بإثارة عواطفها، وأن ذلك يكون بمعرفة الأهواء ، وطرق تهييجها أو تسكينها . ولما كان الإنسان مركباً من روح وجسم لم يكف الخطيب أن يوجه كلامه إلى القوى العقلية فقط ، بل عليه أيضاً أن يثير من السامع عواطفه وميوله التى تدفع الإنسان إلى طلب ما يرغبه أو النفور والإعراض عما يرهبه ، والميول الغريزية هى المسماة بالأهواء .

وأهواء النفس الشهوية هى : المحبة والبغض والرغبة والنفور والفرح والحزن . وأهواء النفس الغضبية : الرجاء والقنوط والشجاعة والخوف والحلم والغضب .

فالمحبة : حركة فى النفس تميل بها إلى الشىء بمقدار شعورها بما فيه من خير ولذة وضدها البغض ، ويتمكن الخطيب من تحريك عاطفة المحبة فى القلوب بأمرين :

١ — بيان محاسن المحبوب الجميلة وسجاياه الكريمة .

٢ — أن يذكر أعماله الجليلة ومآثره الحميدة . هذا إن كان إنساناً وإلا ذكر ما فيه من خير ونفع وفائدة ومزية ، ومثيرات البغض أضداد مثيرات الحب .

والرغبة: حركة فى النفس تحملها على إرادة لذة مأمولة حسية كلذات الحواس وعقلية كلذة العلم والفضيلة . ويتوسل الخطيب إلى إثارة الرغبة فى النفوس بتعظيم المرغب فيه وتزيينه فى عيون السامعين ، ببيان الفوائد التى تترتب عليه ، وحاجة الناس إليه ، وذكر قرب مناله ، وسهولة دركه .

فالذى يرغب فى مثل الزواج لابد له من بيان فوائده الدينية ، والاجتماعية ، وحاجة البشر إليه ، وسهولته على كل مقتصد معتدل فى أمره ، والذى يرغب فى الصيام يجب عليه أن يذكر آثاره فى تهذيب النفس ، وصحة البدن ، والرحمة بالضعفاء .

وللخطيب فى مقام الترغيب أن يسلك طريق المقابلة بين المنافع المترتبة على عمل الأمر المرغب فيه ،والمضار الناتجة عن إهماله ،أو تفضيل بعض الأمور المرغوب فيها على غيرها كالأمور العقلية على الحسية من الكمالات النفسية والبدنية مثلا .

والنفور : حركة فى النفس تحمل الإنسان على العدول عن شريضره والسعى فى الفرار منه والإعراض عنه . وما يثير النفور ضد ما يثير الرغبة بأن يقبح للنفوس ما أراد التنفير منه بذكر المضار التى تنجم عنه مع الاستغناء عنه وعدم الحاجة إليه .

والفرح : لذة فى القلب لنيل المشتهى ،وأصدق وسيلة لتحريك شاعرة الفرح فى القلوب أمور ثلاثة :

الأول : صفة الفرح الناشئ عن إصابة الخير المقصود كالظفر بالعدو .

الثانى : ذكر ما لحق النفوس من الشدائد والآلام قبل إدراكه .

الثالث : الإطناب فى ذكر النعمة وبيان نتائجها الحسنة وعواقبها الجميلة بعد طول انتظارها ، أو اليأس من الحصول عليها .

والحزن : ألم النفس لوقوع مكروه أو فوات محبوب فى الماضى . ومن أقوى مثيرات الحزن – إن دعت إليها حاجة – بسط الكلام فى هول الخطب وعظم المصاب وشدة المحنة فى نحو حريق أو غرق نزل بقوم ،ثم تعديد مزايا المفقود وبيان جدارته بالجزع والحزن عليه ،مع ظهور مخايل الانفعال فى قوله ، وملامح وجهه حتى ينتقل تأثره إلى قلوب السامعين .

والرجاء فى اللغة : الأمل ،وفى الاصطلاح تعلق القلب بحصول محبوب فى المستقبل مع الأخذ فى الأسباب . والذى يبعث الرجاء فى القلوب أمران :

الأول : أن يصف الخطيب عظم الخير المبتغى كي يحببه إلى النفوس ويحملها على طلبه بالسعي في أسبابه المشروعة المعقولة .

الثانى : أن يبين أن الأمر المرجو ليس عزيز المطلب ولا بعيد المنال لتوفر الوسائل الصادقة والأسباب المشروعة المؤدية إلى إدراكه : كالإيمان الصحيح والأعمال الصالحة والأخلاق الفاضلة فى الظفر بحسن الخاتمة . وكالجنود المخلصين والعدة التامة والأقوات الموفورة وحسن القيادة وضعف العدو ، والثقة بحول الله ونصره ، وما إلى ذلك فى مثل الجهاد .

ومما يثير القنوط فى النفوس إذا أراد أن يصرفهم عن أمر يريدونه أن يبين الخطيب صعوبة الأمر الذى يتطلعون إليه ،وأنه معجز الدرك ، تحول دونه مخاطر ومشاق لا يقتحمها إلا الغبى الجاهل الباحث عن حتفه بظلفه ؛ وبذلك يحل اليأس محل الرجاء .

والشجاعة : هيئة للنفس تحصل لها عند اعتدال القوة الغضبية ، بها يقدم الإنسان على ما يجب الإقدام عليه مع التعرض للمكاره الحائلة دون المرغوب فمن أخص مظاهر الشجاعة الإقدام على الأمور التى يحتاج الإنسان أن يعرض نفسه لها لدفع المكاره والآلام الواصلة إليه مع ثبات الجأش عند المخاوف والاستهانة بالموت ، وهى بالأشراف والملوك أليق ، بل لا يستحقون الملك مع عدم هذه الخلة ، وهى وسط بين التهور والجبن . وبواعث الشجاعة لا تختلف كثيراً عن بواعث الرجاء بأن يرغب السامعين بوصف الأمر العظيم ويشهيه إلى القلوب ليبعثها على طلبه مع ذكر الإمدادات الإلهية والثقة بالله تعالى فى صدق ما وعد ، والفرق بين الرجاء والشجاعة : أن الرجاء لا يقتضى الإقدام على الأمر بخلاف الشجاعة التى تهيجها المكاره فتبعثها على اقتحام المخاطر ومقاومة من يحول بين الشجاع ومطلوبه .

والخوف : هيئة للنفس بها يحجم المرء عن مباشرة أمر لما يتوهم به من المخاوف والأهوال ، ويتمكن الخطيب من إلقاء الخوف فى القلوب بأمور :

منها : إنذار القوم بخطب عظيم وطامة كبرى وسوء الطالع ووخيم العواقب ، وما إلى ذلك من الأهوال التى تلقى الرعب فى القلوب .

ومنها : أن يتوعد السامعين بحلول البلايا وانقضاء الآجال على أسوأ الأحوال إذا هم تمادوا فى غيهم ولم ينتهوا من غفلتهم .

والغضب : هيئة للنفس تتوجه إلى دفع المؤذيات قبل وقوعها وإلى التشفى والانتقام بعد الوقوع . وقوت هذه القوة الغضبية وشهوتها الانتقام، وفيه لذتها ولا تسكن إلا به . واعتدال هذه القوة أن تنبعث حيث يجب وتسكن حيث يحسن الحلم . والكلام هنا فى هذه القوة المعتدلة . والذى يهيج الغضب أمران :

الأول : ذكر الإهانة التى لحقته وتعظيم الأذى فى عينه وأن مثل ذلك لا يليق السكوت عليه وما إلى هذا مما يثير الغضب فى النفوس ، كما فعلت عفيرة بنت غفار وكان طسم قد انتهكوا حرمتها :

أيجمل أن يؤتى إلى فتيـــاتكم	وأنتم رجـال فيكم عدد الرمل
أيجمل تمشى فى الدمـاء فتـاتكم	صبيحة زفت فى العشاء إلى بعل
فإن أنتم لم تغضبوا بعـد هـذه	فكونوا نساء لاتغب من الكحل
ودونكم ثوب العروس فإنمـا	خلقتم لأثواب العروس وللنسل
فلو أننـا كنا رجـالا وكنتم	نساء لكنا لا نقر على الذل
فموتوا كراماً أو أميتوا عدوكم	وكونوا كنار شب بالحطب الجزل
وإلا فخلوا بطنهـا وتحملوا	إلى بلد قفر وموتوا من الهزل
فللموت خير من مقام على أذى	وللهزل خير من مقام على نكل
فدبوا إليهم بالصوارم والقنـا	وكل حسام محدث العهد بالصقل
ولا تجزعوا للحرب قومى فإنمـا	تقوم بأقوام كرام على رجل
فيهلك فيها كل وغـد مواكل	ويسلم فيها ذو الجلادة والفضل

* * *

الثـانى : بيان ضرورة التشفى بالانتقام من الظالم حتى لا يتمادى فى باطله وغيه . ويلحق بهذا المقام المنافسة والحياء . فالمنافسة : منازعة النفس إلى التشبه بالغير فيما يراه المرء حسناً ويرغب فيه لنفسه والاجتهاد فى الترقى إلى درجة أعلى من درجته وهى محمودة فى معالى الأمور . وكل ما يكسب مجداً بشرط أن تكون من طريق شريف مشروع . وتثار المنافسة بذكر محاسن من يقتدى بهم وبيان العار الذى يلحق بالسامعين إذا لم يسلكوا سبيلهم .

أما الحياء فهو: انقباض النفس من شيء وتركه حذراً من اللوم فيه، وإن شئت فقل: هو أن يحسن المرء ارتداع النفس عما يقبح تعاطيه والإقدام عليه لملاحظته من ذلك قبح الأحدوثة، فهو كمال لا نقص، وإنما النقص الإفراط فى هذه الصفة بحيث تضعف عن الإقدام على الحسن النافع اتقاء لذم من لا يعرف حسنه أو لا يعترف به، وتحريكه فى القلوب بوصف سماجة الأمر الذى يراد الصد عنه، مع بيان قبح الأحدوثة بمزاولته، وهو أعمل فى قلوب الأشراف منه فى غيرهم.

والحلم: سكون النفس عند هيجان الغضب. وَحَدَّهُ ابن سينا بأنه الإمساك عن المبادرة إلى قضاء الغضب فيمن يجنى عليه جناية يصل مكروهها إليه. وقال يحيى بن عدى: إنه ترك الانتقام عند شدة الغضب مع القدرة على ذلك، ويسمى هذا كرماً وصفحاً وعفواً وتجاوزاً واحتمالا وكظم غيظ. والحلم محمود ما لم يؤد إلى ثلم جاه أو فساد سياسة وهو بالملوك والرؤساء أحسن لأنهم أقدر على الانتقام، وأقرب الوسائل لإطفاء نار الغضب وكظم الغيظ أمور:

الأول: الإقرار بالذنب، فإنه كما قيل: الاعتراف يزول به الاقتراف قال ابن حازم:

إذا ما امرؤ من ذنبه جاء تائباً   إليك فلم تغفر له فلك الذنب

الثانى: الإخبات والخضوع إذا كان الجانى دون المستضعف رتبة وقدراً، أو كان ذنبه عظيماً فعليه أن يتذلل ويستكين لذوى القدرة كقول إبراهيم بن المهدى للمأمون بعد عصيانه عليه:

أذنبت ذنباً عظيماً   وأنت للعفو أهل
فإن عفوت فَمَنٌّ   وإن جزيت فعدل

الثالث: ذكر الحلم وفضل كظم الغيظ على التشفى والانتقام بما جاء فى ذلك من الكتاب والسنة وآثار السلف الصالح وأقوال الحكماء.

الرابع: وصف ما يجنيه الحليم من الشكر والثناء والذكرى الخالدة.

الخامس : حسن تبرؤ الجانى من ذنبه كأن يذكر خلوص مودته وحسن نيته فى صنيعه، وأنه لم يأت ما يأتى إلا سهواً ويقرن كل ذلك بالأسف على تغيظ المعاتب، وإبداء صادق الرغبة فى الرجوع عما ساءه .

السادس : تحرى الظروف المناسبة والأحوال الملائمة كيوم عيد ووقت سرور، ومجلس أنس مع الاستعانة بمن يشفعون له من ذوى المنزلة — بهذه الوسائل يخمد الخطيب نار الغضب، ويحرك عاطفة الحلم، ويدعو إلى الصفح والعفو .

ومن قبيل الحلم الرحمة وهى رقة فى القلب تقتضى العطف على من حل به شىء من المكاره والآلام، ويتوسل الخطيب إلى تحريك عاطفة الرحمة فى القلوب بأمور :

منها : بسط الكلام فيما لحق المصاب من البلايا والخطوب مع ذكر الأحوال التى تزيدها فجعة وتأثيراً كشدتها وفظاعتها، ولا سيما إذا كان المبتلى من ذوى الحسب والنسب، أو سيد قومه فأخنى عليه الدهر .

ومنها : أن يأتى بشخص المصاب أمام السامعين، أو يحضر بعض آثاره يعرضها على المسترحمين فتعمل رؤية ذلك فى قلوبهم ، كما لو أراد حمل القلوب على الرحمة بمسكين بائس أو يتيم ضائع فيحضره، أو يظهر ثيابه البالية ، وضعفه وعجزه .

ومنها : أن يبين أن من طرأت عليه المحن من ذوى الأخلاق الكريمة والأعمال النافعة .

ومما يفيد كثيراً فى تحريك الأهواء وإثارة العواطف على الإطلاق بعد تمام الإحاطة بأطراف الموضوع أن يكون الخطيب عند التأدية متأثراً بما يقول تأثراً صحيحاً بادياً ذلك فى لهجته وملامح وجهه فإن الغاية من الخطابة أن ينتقل ما فى قلبه من الإحساسات إلى قلوب السامعين وبذلك يبلغ منها ما يريد ، وهذا معنى قول أحد الأدباء : إن الأهواء والعواطف هى الخطيب فى الجماهير . وقوله : السر كل السر أن يكون الإنسان ملتهباً بالعواطف .

سمع الحسن متكلماً يعظ الناس فلم تقع موعظته من قلبه بمكان فقال : يا هذا إن بقلبك لشراً أو بقلبى . يريد أن الكلام الخالى من العاطفة والشعور قد يكون مفعماً بالحقائق متين الأسلوب، ولا يجد مع ذلك إلى النفوس سبيلا ، فالكلام لا يكون أسرع نفاذاً فى القلوب إلا إذا كان صادراً عن شعور صحيح ، وإحساس صادق ، وبالله تعالى التوفيق .

الأصل الثانى

التنسيق

وفيه ثلاث مطالب :

وهو فى اللغة التنظيم والترتيب ، وفى الاصطلاح تنظيم معانى الخطبة وسياق أجزائها وذكر أدلتها ، وهو من أعظم أركان البلاغة ووسائل التأثير فإنه بمنزلة تنظيم صفوف الجند ، فكما لا نصرة لجيش لم يراع فيه حسن النظام كذلك لا قوة للخطبة ولا أثر لها إذا لم ترتب ترتيباً حكيماً بحيث تكون أبين غرضاً وأحسن فى النفوس وقعاً — وأقسام الخطبة إجمالا ترجع إلى ثلاثة أشياء : المقدمة ، والإثبات ، والخاتمة .

المطلب الأول

فى المقـدمة

وفيه مباحث :

المقـدمة : هى فاتحة الكلام ومرجع فحواه ولما كانت بمثابة الأساس من البناء والرأس من الأعضاء وجب أن تكون محكمة الوضع مناسبة مشوقة للسامعين إلى بسط الكلام فيما تشير إليه ، فهى خطبة مجملة .

* * *

المبحث الأول
فى حسن الإفتتاح

وهو أن يكون الابتداء لائقاً بموضوع الخطبة بأن يأتى الخطيب فى صدرها بما يدل على المقصود منها، وهو براعة الاستهلال . قال أبو عثمان الجاحظ نقلا عن أبى على القالى : وليكن فى صدر كلامك دليل على حاجتك كما أن خير أبيات الشعر البيت الذى إذا سمعت صدره عرفت قافيته (كأنه يقول : فرق بين صدر خطبة النكاح وبين صدر خطبة العيد وخطبة الصلح) حتى يكون لكل من ذلك صدر يدل على عجزه ، فإنه لا خير فى كلام لا يدل على معناه ، ولا يشير إلى مغزاه ، ولا إلى العمود الذى إليه قصدت والغرض الذى إليه نزعت . وجملة الأمر أن المطلع هو أول ما يستأذن على السمع من الكلام ، فإن كان حسناً رائقاً ظريفاً مناسباً للموضوع أذن له وتقبلته النفوس، وتطلعت إلى ما يورده الخطيب بعد، وحثها الشوق إلى الآتى بإضافته إلى الماضى ، وهذا هو سر حسن الافتتاح. ويستهجن فى الافتتاح أمور :

الأول : الإسهاب والاستطالة بما يمل السامع منه ما دام فى الإيجاز وفاء بالغرض .

الثانى : أن يكون مبتذلا مشاعاً يصلح لكل خطبة .

الثالث : أن لا يوافق الموضوع فيكون قلقاً غير ملتئم معه .

وأنواع الافتتاح أربعة : السهل ، والجزل ، والبديهى ، والملوح .

فالسهل : ما يبين فيه الموضوع بلا تكلف ويسمى الساذج وهو أحرى بالخطب العادية ومحافل الأدب ومجالس العظات والتشاور .

والجزل : ما كان أنيق اللفظ شريف المعنى يزينه حسن التعبير ورونقه ويصلح للأحوال الخارقة للعادة والوقائع الشريفة والنوازل الهامة إذ يتوقع

الجمهور ما يكشف عن عظائم الأمور كقول أبي بكر رضى الله عنه يوم موت رسول الله صلى الله عليه وسلم : أيها الناس إنه من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حى لا يموت ، ثم تلا الآية : « **وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل . . .** » (١) وكقول أبى الحسن الأنبارى فى افتتاح قصيدته فى رثاء الوزير أبى طاهر لما صلبه عضد الدولة حيث قال :

علو فى الحيــاة وفى الممات   لعمرى تلك إحـدى المعجزات

والبديهى : ما أصاب السامع على غير انتظار ، وأبرز عن حميم العواطف والقلوب المتألمة ، ومقامه الوقائع الباغتة والطوارئ المفجعة .

والملوح أو المعرض فى اللغة خلاف المصرح وفى الاصطلاح : ما يخرج مخرج الكناية والتعريض ، ويستعمل فى سياسة النفوس النافرة ، وترقيق القلوب العاتية المتكبرة الجبارة . وكثير من خطباء هذا العصر يقلد خطباء أوربا فى ترك هذه المقدمات رأساً مكتفين بمقدمة أجنبية فيها ثناء أو اعتذار أو تنويه بشأن الموضوع ، وهو خروج عن الطريقة المألوفة فى الخطابة عند الصدر الأول على ما عرفت .

* * *

(١) سورة آل عمران : ١٤٤ .

المبحث الثانى

فى بيان المقصد

هو أن يظهر الخطيب ما يبنى عليه كلامه بذكر ما سيلقى بعبارة جامعة جلية موجزة لتكون كالعنوان للكتاب . ولبيان المقصد عند العرب أسماء أخرى وقد يسمونه بالسمة وهى عنوان الخطاب ليكون عند السامع إجمال ما يفصله الخطيب بعد . والصفات الملائمة لبيان المقصد ثلاث :

الأولى : أن يكون مترتباً على قضية واحدة فقط كما لو أردت الكلام على العدل فإنك تقول : إن العدل أساس عمران الممالك مثلا .

الثانية : أن يكون واضحاً لأن الغرض إذا كان خفياً بعيد المأخذ تبرم منه السامع ، مثلا إذا كان الكلام على حسن الخلق قلت : من حسن خلقه وجبت محبته ، ومن ساء خلقه تنكدت معيشته ، أو على شرف العقل . قلت : خير المواهب العقل ، وشر المصائب الجهل .

الثالثة : أن ينشط السامعين بابتكار صورته ولطيف مخرجه كما تقول فى كثرة خطوب الدهر : الليل والنهار غرسان يثمران للبرية صنوف البلية ، أو زوايا الدنيا مشحونة بالرزايا ، أو التحذير من المعاصى . قلت : رأس الحكمة مخافة الله .

* * *

المبحث الثالث
فى تقسيم الخطاب

التقسيم فى اللغة مصدر قسمت الشىء إذا جزأته وفى اصطلاح الخطباء هو تفصيل المقصد ببيان أجزائه بعد ذكره مجملا ، وله فوائد كثيرة منها ما يعود إلى نفس الخطيب من حيث أنه وقاية له من الهذر والخروج عن الموضوع وتكرار المعانى ، ومنها ما يعود على السامعين بتسهيل إدراك الموضوع وترويح خاطرهم فينشطون للسماع بالانتقال من قسم إلى آخر – هذا – إلى أن التقسيم يفيد الخطبة وضوحاً ويكسوها حسناً وجمالا . وصفات التقسيم الحسن أربع :

الأولى : أن تكون القسمة شاملة لكل أجزاء الموضوع لا يخرج عنها جزء من أجزائه .

الثانية : أن تكون الأقسام متباينة لا يدخل بعضها فى بعض .

الثالثة : أن تكون واضحة يتلقاها عقل السامع بسهولة فترسخ فى ذهنه .

الرابعة : أن تكون مبتكرة موجزة كقول بعضهم فى دواعى المحبة : ثلاثة تورث المحبة : الأدب ، والتواضع ، والدين .

المطلب الثانى
فى الإثبات

وفيه مبحثان :

هو فى اللغة التمكين يقال : أثبت الأمر جعله مكيناً ، وفى الإصطلاح : تأييد القضية بالبرهان وهو قطب الخطابة وعمادها ، فإن كان معقولا متين الدعائم تلقاها الناس بالقبول ، وإن كان ضعيفاً واهياً سقطت كما يسقط البناء القائم على أساس ضعيف وهو نوعان :

إيجابى : وهو ما اشتمل على تصديق القضية وتعزيزها بالأدلة الواضحة والحجج الدامغة ، ويسمى التبيان .

وسلبى : يفند به الخطيب حجج الخصم ويدحض مقاله ويسمى التفنيد .

المبحث الأول
فى بيـان القضيـة

وطريق التبيان معرفة البحث والجدل على ما هو مبسوط فى علمى المنطق وآداب البحث وأمرهما هين عليك إلا أن القياس المنطقى يختلف عن القياس الخطابى من وجهين :

الأول : أن المنطقى يتبع اليقينيات .

أما الخطابى فيستند إلى المقبولات والمظنونات لكفايتها فى الإقنـاع كما علمت .

الثـانى : أن المنطقى عادة لا يتصرف فى القياس بخلاف الخطابى فإنه يتصرف فى المقدمات بالتقديم والتأخير على ما يراه أقرب لغايته وأوفق بمقصوده .

* * *

المبحث الثانى

فى التفنيد

ويسمى أيضاً النقض وهو فى اللغة التكذيب والتجهيل وفى الإصلاح هو قسم من الخطابة يخطىء به المتكلم رأى خصمه ويرد على ، حججه والمطلوب تفنيده فى الخطابة أصناف ثلاثة :

الأول : ما يسبق إليه توهم السامع والأولى أن يفنده الخطيب فى صدر خطابه كما لو أراد حمل الجند على الجهاد ، فإن توهم الجند الخوف من العدو فلا ينجح كلامه فيهم ما لم يبطل خوفهم منه فى مبدأ كلامه ببيان تفوقهم عليه ولو من بعض الوجوه .

الثانى : ما يورده الخطيب على نفسه لكثرة علوقه بأذهان الناس ليبطله ويبين خطأهم فيه كتفنيد حجج من يتهاون بالمعاصى إتكالا على حلم الله وكرمه وسعة رحمته ، أو من يرجىء التوبة رجاء أن ينيب إلى ربه فى آخر حياته .

الثالث : ما يأتى به الدفاع أمام القضاء فى المنازعات وهذه المحاجة تقدم أو تؤخر بحسب مقتضيات الأحوال .

المطلب الثالث

فى الختـام

هو آخر ما ينتهى إلى آذان السامعين من كلام الخطيب ويسمى حسن الانتهاء وحسن المقطع ، وكما يجب التألق فى المطلع تجب البراعة فى المقطع إذ هو الأثر الباقى فى نفوس السامعين بعد الإتمام وآخر ما يتردد صداه فى قلوبهم وبه تتم الفائدة . وأحسنه ما آذن بانتهاء الكلام بأن يشير المتكلم

فى كلامه إلى ما يشعر بانتهاء الغرض المقصود وأمثلة حسن الختام كثيرة فى القرآن الكريم ، وخطب البلغاء .

انظر فى خواتم السور تجدها غاية فى الحسن ونهاية فى الإبداع ، فقد جاءت متضمنة للمعانى البديعة مع إيذان السامع بانتهاء الكلام حتى لا يبقى معه للنفوس تشوف إلى ما يذكر بعد ، لأنها بين أدعية ووصايا وفرائض وتحميد وتهليل ومواعظ ووعد ووعيد وما إلى ذلك كالدعاء الذى اشتملت عليه الآيتان من آخر سورة البقرة ، والوصايا التى ختمت بها سورة آل عمران : **« يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون »** . والفرائض التى ختمت بها سورة النساء ، وحسن الختام لما فيها من أحكام الموت الذى هو آخر أمر كل حى ، والتبجيل والتعظيم الذى ختمت به سورة المائدة ، والوعد والوعيد الذى ختمت به سورة الأنعام ، والتحريض على العبادة بوصف حال الملائكة الذى ختمت به سورة الأعراف ، والحض على الجهاد وصلة الأرحام الذى ختم به سورة الأنفال ، ووصف رسول الله صلى الله عليه وسلم ومدحه وتسليته ووصيته بالثقة بالله تعالى والتهليل بالتفويض إليه سبحانه الذى ختمت به سورة براءة ، وتسليته صلى الله عليه وسلم التى ختمت بها سورة يونس ، ومثلها خاتمة سورة هود ، ووصف القرآن ومدحه الذى ختم به سورة يوسف ، والوعد والوعيد والرد على من كذب الرسول صلى الله عليه وسلم الذى ختم به سورة الرعد . ومن أحسن ما آذن بالختام خاتمة سورة إبراهيم : **« هذا بلاغ للناس ولينذروا به »** ، ومثلها خاتمة سورة الأحقاف ، وكذا خاتمة سورة الحجر بقوله : **« واعبد ربك حتى يأتيك اليقين »** . وهو مفسر بالموت فإنها غاية فى البلاغة ، وانظر إلى سورة الزلزلة كيف بدئت بأهوال القيامة وختمت بقوله : **« فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره . ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره »** .

والغاية من حسن المقطع أمران : أن يتم إقناع السامعين حتى لا يبقى للنفوس بعده تطلع وذا يكون بذكر مجمل ما أتى به مفصلا ، وأن يقوى

فيهم الرغبة فى العمل بمـا أذعنوا له وذا يكون بإفراغ ما فى الوسع فى تحريك العواطف والمهارة فى التأثير ، وعلى الخطيب إذا لخص الخطبة أن يعمد إلى أهم ما جاء فيها من البيانات فيبرزها فى صورة جديدة وأسلوب رشيق لئلا تذهب طلاوتها ، وحتى لا يكون إعادة أدلتها مثلا من باب التكرار الممل المعيب

الأصل الثالث

التعبـــــير

وهو تصوير المعانى بالألفاظ وشأنه فى الخطابة عظيم لأنه كساء الكلام به تنال الخطبة رونقها وبهاءها كالثوب يزين لابسه ويكسبه حسناً وجمالا ، فإذا لم يراع الخطيب حسن التعبير فلا أثر له فى إرادة السامع ولا سلطان له على قلبه ، بل تبقى عواطفه نائمة لا حراك لهـا فلا يندفع إلى العمل بمـا يقصده منه .

هـــذا : وإن التعبير يدخل فى فن الإنشاء ، ولمـا كان المنشئ والخطيب بمنزلة واحدة من حيث توجيه الكلام نحو الغير للإفهام لم تكن للخطيب حاجة إلى قواعد خاصة لتأدية مراده أكثر ممـا هو معلوم فى فن الإنشاء ، وإنا نذكر لك الآن ما يهم الخطيب منه ، وهو أمور :

الأول : التفنن :

وهو أن يأخذ بأنواع من الكلام وأفانين من القول ويذهب فيه إلى طرق شتى وأساليب متنوعة فيلبس المعنى الواحد عدة أثواب ويكسو غرضه حللا مختلفة من الجمل والتراكيب ، فيكون قد أتى بشىء يجذب النفوس إلى استماعه فإنها ميالة إلى حب الجديد ، بخلاف ما إذا التزم أسلوباً واحداً من الكلام ، فإنه بذلك يوقع السامعين فى الملل والسآمة ، فقد جبل الإنسان على الملال من الاستمرار على شىء واحد ، فكلما انتقل من أسلوب إلى أسلوب انشرح صدره ، وتجدد نشاطه ، وتكامل ذوقه ولذته ، وصار أقرب إلى فهم معناه والعمل بمقتضاه ، وكان كمن انتقل من بلد إلى بلد ، أو من بستان إلى بستان أو فاكهة لذيذة إلى أخرى ، وفى ذلك ما فيه من ترويح النفس وتنشيطها . قال

أبو على القالى : التفنن موجب لإيقاظ السامع وتحريكه للجد فى الإصغاء فإن تغيير الكلام المسوق لمعنى من المعانى وصرفه عن سننه المسلوك ينبئ عن اهتمام جديد بشأنه من المتكلم ويستجلب مزيد رغبة فيه من المخاطب .

والقرآن الكريم أعدل شاهد على التفنن مع متانة الأساوب وحسن السياق وعذوبة الألفاظ ودقة المعانى وبعدها عن مظنة التكرار ،وذلك كما فى قصة آدم عليه السلام وأكله من الشجرة وهبوطه من الجنة ، وكما فى قصة إبراهيم عليه السلام مع ضيفه ومع أبيه وقومه ، وقصة موسى عليه السلام مع فرعون ، فإن هذه القصص ذكرت فى القرآن الحكيم فى عدة مواضع مع تفنن فى العبارة مما يظنه الجاهل بأساليب البلاغة تكراراً وليس به ، بل هو غاية فى الإبداع ونهاية فى الإعجاز ، واعلم أن التفنن المذكور غير الافتنان الذى هو نوع من أنواع البديع وهو ارتكاب فنين من الكلام فى سياق واحد عند ذكر ما يقتضيه كالجمع بين التعزية والتهنئة فى قول عبد الله ابن همام السلولى حين مات معاوية رضى الله عنه،وتولى الخلافة بعده ابنه يزيد،وقد حار الناس فيما يقولون : أيعزون أم يهنئون ، فدخل عليه وجمع بين التعزية والتهنئة حيث قال : آجرك الله على الرزية وبارك لك فى العطية وأعانك على الرعية،فقد رزئت جسيماً ورزقت عظيماً ، فاشكر الله على ما رزقت ،واصبر على ما رزئت فقد فُقِدَ الخليفة ،وأعطيت الخلافة ، ففارقت خليلا ووهبت جليلا :

اصبر يزيد فقد فارقت ذامقة	واشكر حباء الذى بالملك أصفاك
لا رزء أصبح فى الأقوام نعلمه	كما رزئت ولا عقبى كعقباك

وكالجمع بين الفخر والهجاء فى قصيدة السموءل المشهورة ، فقد جمع بين الفخر لنفسه وقومه ، والهجاء لقبيلتى عامر وسلول فى قوله :

لنا جبل يحتله من نجيره	منيع يرد الطرف وهو كليل
رسا أصله تحت الثرى وسما به	إلى النجم فرع لا ينال طويل
وإنا لقوم ما نرى القتل سبة	إذا ما رأته عامر وسلول
يقرب حب الموت آجالنا لنا	وتكرهه أجالهم فتطول

الثـانى : متانة الأسلوب :

ومما ينبغى رعايته أن يعمد الخطيب بعد استحضار المعانى إلى الألفاظ التى يريد أداءها بها فيفرغ المعنى فى قالب يناسبه ، فالمعانى الجزلة لابد لها من جمل وتراكيب فى غاية الضخامة والفخامة ، والمعانى الرقيقة المستملحة لابد لها من ألفاظ تناسبها رقة وسلاسة ليحصل التشاكل بين النوعين ،وتكون المعانى مع الألفاظ كالعروس المجلوة فى الثوب القشيب والحلى الفاخر، مع إعطاء كل موضوع حقه من شدة العبارة ولينها فى النطق ليكون ذلك أدل على المعنى المقصود ، كما سيأتى ،وأصدق شاهد على ذلك ما تراه فى قوارع القرآن الكريم من جزالة المعانى وفخامة التراكيب عند ذكر مفارقة الدنيا والحساب والعذاب وأهوال يوم القيامة .

وما تراه أيضاً عند ذكر الرحمة والمغفرة وما يدل على البشارة والملاطفات فى خطابات الأنبياء والمرسلين والتائبين والمنيبين من العباد. وغير ذلك مما استعمل فيه رقيق العبارة مع تمام الانسجام بين المعانى والألفاظ ،فالأول كقوله تعالى : « **ونفخ فى الصور فصعق من فى السموات ومن فى الأرض إلا من شاء الله ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون . وأشرقت الأرض بنور ربها ووضع الكتاب وجيء بالنبيين والشهداء وقضى بينهم بالحق وهم لا يظلمون. ووفيت كل نفس ما عملت وهو أعلم بما يفعلون . وسيق الذين كفروا إلى جهنم زمراً حتى إذا جاءوها فتحت أبوابها وقال لهم خزنتها ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم وينذرونكم لقاء يومكم هذا قالوا بلى ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين . قيل ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين** »(١) هذه الآيات الكريمة المتضمنة ذكر المحشر على تفاصيل أحواله، وشديد أهواله وذكر النار والعذاب لا تجد فيها كلمة إلا وهى جزلة مستعذبة على ما فيها من الضخامة الملائمة لجزالة المعنى المقصود منها، وكذلك كل آية سيقت للإرهاب والتخويف والإنذار والوعيد تراها فى منتهى الجزالة ، وضخامة التراكيب، ومتانة الأساليب البالغة حد الإعجاز :

---

(١) سورة الزمر : ٦٨ – ٧٢ .

والثانى كقوله تعالى : « **وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمراً حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين . وقالوا الحمد لله الذى صدقنا وعده وأورثنا الأرض نتبوأ من الجنة حيث نشاء فنعم أجر العاملين . وترى الملائكة حافين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم وقضى بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين** »(١). فإنها لاشتمالها على دخول الجنة والتمتع بما فيها من النعيم المقيم والحصول على ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين قد اشتملت على رقيق الألفاظ ولطيف المعانى المسوقة للتشويق إلى نيل تلك المنزلة العالية والمرتبة السامية .

وانظر إلى حسن الملاطفة ولطف الملاينة فى أدق معانيها وأرق مبانيها فى مخاطبة النبي صلى الله عليه وسلم فى قوله تعالى : « والضحى والليل إذا سجى ما ودعك ربك وما قلى » . السورة فإنك تجدها تشف عن تمام العطف عليه والرضى عنه صلوات الله وسلامه عليه ، وانظر إلى تقديم العفو قبل العتاب فى قوله تعالى : « **عفا الله عنك لم أذنت لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين** »(٢). فإنها على وجازتها دلت على عدم المؤاخذة وكمال الملاطفة وتمام الرضى عنه صلى الله عليه وسلم ، وبالتأمل ترى سبيل القرآن الكريم فى كلتا الحالتين من الجزالة والرقة على هذا الأسلوب الحكيم الذى أعجز أساطين البلاغة عن معارضته ، والإتيان بأقصر سورة من مثله .

الثالث : الاقتباس :

وهو أن يأخذ المتكلم شيئاً من كلام غيره فيدرجه فى كلام نفسه بعد التمهيد له لتأكيد ما أتى به من المعنى ، فإن كان قليلا فهو إيداع ، وإن كان كثيراً فهو تضمين ، وعلى كل فإنه يكون من كلام الله عز وجل أو من كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أو من كلام البلغاء وغيرهم . وقد رخص بعض العلماء فى تضمين بعض آيات القرآن فى الخطب والمواعظ من غير إفراط حتى استعمله كثير من الناس ما لم يخرج القرآن فى التضمين عن الغرض المسوق له . وكان يعطى الكلام حلاوة وطلاوة وإلا منع منه . فمن الجائز قول بعضهم :

اغتنم فودك الفاحم قبل أن يبيض ... فإنما الدنيا جدار يريد أن ينقض

---

(١) سورة الزمر : ٧٣ – ٧٥ . (٢) سورة براءة : ٤٣ .

وقوله :

رب بخيل لو رأى سائلا لظنه رعباً رسول المنون
لا تطمعوا فى النزر من نيله هيهات هيهات لما توعدون

وقوله :

أيها السائل قوماً ما لهم فى الخير مذهب
اترك الناس جميعاً وإلى ربك فارغب

وقول الآخر :

اعبد الله ودع عنـ ـك التوانى بالهجود
ومن الليل فسبحه وإدبار السجود

وقول الحريرى فى صفة عبد أراد شراءه : وقد لبس ثوباً من الجمال وحلة من الكمال . فلما تأملت خلقه القويم ، وخلقه الصميم ، خلته من ولدان جنة النعيم وقلت : ما هذا بشراً ؟ إن هذا إلا ملك كريم . وما إلى ذلك مما لا إفراط فيه ولا خروج عن الغرض المسوق له . ومن الممنوع قول عبد الله بن طاهر لابن السرى حين ملك مصر وقد رد رسوله وهديته إليه : لو قبلت هديتك نهاراً لقبلتها ليلا ، بل أنتم بهديتكم تفرحون . وقال لرسوله : **« ارجع إليهم فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون »** (١).

وكقول رجل لآخر جاء فى وقت حاجته إليه : **« ثم جئت على قدر ياموسى »**(٢). وكقول الحجاج لمن فى سجنه وقد طلبوا الإفراج عنهم والرحمة بهم : **« اخسأوا فيها ولا تكلمون »**(٣).وعلة المنع ما فيه من صرف كلام الله تعالى عن وجهه وإخراجه عن المعنى الذى سيق لأجله ولما فيه من الإخلال بإجلال كلام الله وتعظيمه (هذا) والتضمين لا غنى للخطابة عنه لكن على الخطيب أن يكون فيه حكيماً يضع كل شىء فى محله، والله الهادى إلى سواء السبيل .

---

(١) سورة النمل الآية : ٣٧ . (٢) سورة طه الآية: ٤٠
(٣) سورة المؤمنون الآية : ١٠٨

الرابع : الأداء الخطابي :

تمهيد :

قال الفلاسفة : النفس شيء واحد وإن تعدد ما يصدر عنها، وأقل قواها الإدراك الحسي، ولا يتعدى صفة الشيء إلى جوهره ، وفوقه قوة الحس المشترك وهي التي تجمع الإدراكات من الحواس ، وتقرن بعضها ببعض ، وفوقه قوة الخيال، وبها تجتمع صور الأشياء من غير شعور بأنها من إدراكات حسية سابقة وأعلى منها القوة التي تحفظ الصور مدركة لها من ادراكات حسية ماضية وتعرف بالحافظة، ويليها قوة خامسة هي الذاكرة تستطيع أن تحضر ما في الحافظة من صور أمام العقل باختيارها ، وفوقها العقل وتعرف قدرته على التفكير قبل الفعل بالعقل القابل ، فإن فكر بالفعل سمي عقلا فاعلا .

والأداء الخطابي هو إلقاء الخطبة بما يليق بها من حسن اللفظ وموافقة الصوت وحركات الجسم – وشأنه في الخطابة عظيم لأنه بحسن الأداء ينقل إلى نفس السامع مشاعره ويحرك أهواءه ويجذبه إلى حيث يقصد من الغاية وبحسن الأداء يجعل للخطابة فضلا على قراءتها في صحيفة . فكم من خطبة يحسن الرجل إلقاءها فيجد الناس في سماعها من الارتياح وهزة الطرب فوق ما يجدون عندما يقرءونها في صحيفة أو يستمعون إلى من يسردها عليهم سرداً متشابهاً . فالخطبة دون جودة الأداء شجرة غير مثمرة، وجسم لا روح فيه – ولا بد في الأداء من أشياء – الذاكرة وحسن اللفظ والصوت والإشارة لأن جودة الأداء تستدعي أن يتذكر الخطيب للحال ما يريد بيانه من المعاني وأن يوصلها إلى السامعين بالصوت الخاص ناطقاً بها ، ولا غنى له معهما عن إشارات تؤيد الكلام وتزيد المعاني وضوحاً وبذلك يصل إلى المقصود من قلوب الحاضرين .

فالذاكرة قوة يقتدر بها على استحضار المعاني ، والحافظة قوة بها تتمكن النفس من حفظ المعاني التي يدركها العقل وليس للخطيب غنى عن هذه القوة وما أحوجه إلى ذاكرة سريعة لأن الخطب عادة تلقى عن ظهر القلب فإن خانته ذاكرته تلعثم واضطرب أو أدركه الحصر فسقط من عيون السامعين، وإن ارتجل

الخطبة وجب عليه بقدر الإمكان أن يحكم معناها ويرتب أقسامها ليأمن من الاضطراب والتكرار ويسلم من الخروج عن الموضوع وتنال الخطبة رونقها وبهاءها وينتفع بها السامعون . وهذا لا يتيسر إلا بقوة الذاكرة — وأقرب وسيلة إلى تقويتها الممارسة بأن يستظهر الخطيب طرفاً من نظم القدماء وملحاً من أقوال البلغاء ويجهد ذاكرته فى حفظها ومراجعتها والتمرين على تأديتها بصوت عال دون عى ولا لكنة ولا تمتمة مع التأنى والتؤدة ، فإن الذاكرة مثل الحمال يقوى بالتمرين على حمل الأثقال ، وترتيب أقسام الخطبة فإن المعانى الحسنة التنسيق يدعو بعضها بعضاً كسلسلة متصلة الحلقات وإن صعب عليه ذلك فى أول أمره فقريباً يصير سهلا بالتعود والتدريب ففى الحكم المأثورة : من وقف حيث يكره وقف حيث يحب .

وللصوت فى الخطابة التأثير الأكبر ،لأنه المترجم عن مقاصد الخطيب والكاشف عن أغراضه لمصاحبته للألفاظ كالشارح لما أريد بها مما لا تستقل بالكشف عنه ، ولأنه الطريق إلى قلب السامع والممثل لصورة المعانى أمامه .

وطبقة الصوت واللفظ وهيئة الوجه وحركات الجسم كلها تتضافر على بيان ما فى النفس ،وتصوير ما بالخاطر فعلى الخطيب أن يراعى من جهة الصوت حسن اللفظ واعتدال الصوت والتفنن فيه ، والمراد بحسن اللفظ أن يعطى كل حرف حقه من الوضع المتعارف بين الأدباء ، بخرجه من مخارجه الطبيعية مع اجتناب لهجة العامة المبتذلة والمحافظة على الإعراب والبناء فإن التزام اللغة العربية الفصحى فى الخطابة ألذ على الأسماع وأشهى للنفوس وأقرب إلى فهم السامعين من أى طبقة كانوا متى كان الخطيب فصيح اللسان حسن البيان يعبر عما فى نفسه بعبارة بليغة بعيدة عن اللبس والخفاء ولا بأس إن تكلم بين الدهماء أن يتقرب منهم ويخاطبهم بلغتهم دون ركة ووحشية إذا اقتضى الحال ذلك .

واعتدال الصوت موافقته للأحوال والظروف فإنه يختلف باختلاف الحضور والمكان فيحتاج المكان الرحب مع وفرة السامعين إلى صوت أدق وأجهر .

والتفنن فيه أن يجعله طبق المعانى التى يصورها بالألفاظ ويمثلها بالصوت بأن يعطى ألفاظ الاستفهام والتعجب والتوبيخ واللوم والتقريع والزجر والتفخيم والتهويل والتحزن والندم والحيرة والوعد والوعيد وما إلى ذلك حقها فى النطق فيكيف الصوت فيها بكيفيات خاصة وانفعالات تتناسب مع المعنى الذى يقصد ، حتى يثير ذلك فى نفس السامع الرغبة والرهبة والانزعاج والندم ، ويحدث فيها هزة الفرح والارتياح والنشاط تبعاً لسير المعنى الذى يتكلم فيه ، وأن يخفض صوته فى موضع الخفض واللين ، ويشتد فى موضع الشدة ، ويتأفف فى موضع التأفف ، ويتطامن فى موضع التطامن كالدعاء والاستعطاف والاسترحام واستنداء الأكف عند جمع المال للأعمال النافعة أو الإنفاق على بيوتات مجد أخنى عليها الدهر وما إلى ذلك ، وأن يشمخ بأنفه ويظهر العزة وعلو النفس فى مواضع الفخر والحماسة، وذكر شرف العلم والتقوى، وأن يتأثر حتى يظهر أثر الانفعال المعتدل فى صوته وإشارته وملامح وجهه عند ذكر حادثة مؤلمة أو حكاية خطب فظيع أو ندم على فوات مطلب عزيز بحيث تكون لهجته فى جميع ذلك لهجة خطابة لا لهجة تلاوة يسرد فيها الكلام سرداً أو لهجة ترنمية تخرجها عن المألوف إلى نوع من الأغانى .

وعلى الجملة ينبغى للخطيب أن يعطى الموضوع حقه من :

١ — حسن العبارة .

٢ — وقربها من الأفهام .

٣ — وجودة الإلقاء والتشخيص لمقامات الخطابة حتى يبكى أو يتباكى عندما تدعو إلى ذلك حاجة مراعياً ما يناسب الخطب الدينية وغيرها من غير أن يظهر عليه أثر التصنع أو التكلف، وإلا سقط من العيون وانصرفت عنه الأسماع وظل موضع النقد والسخرية، كما يلزم أن يتجنب التزام السجع البارد الممقوت والجناس المتكلف ، وعليه أن يرسل الكلام إرسالاً من غير تقعر ولا تكلف، فإن أتى السجع أو الجناس عفواً قاراً فى موضعه غير ناد عن الذوق ولم تظهر عليه مسحة التكلف فذاك وإلا أساء حيث أراد الإحسان .

أما الإشارة الخطابية فهى حركات تبدو من جسم الخطيب ووجهه ورأسه وجوارحه من شأنها تأييد الكلام الذى يتفوه به ، وحسنها من تمام حسن البيان باللسان ، وأفضل الإشارات الطبيعية اللطيفة المتوسطة بين غلظة العامة ومبالغة المتصنعين ، ولها فى الخطابة شأن عظيم لأنها تشارك النطق فى نقل الفكر وانفعالات الخطيب متخذة البصر لها سبيلا فهى اللغة العمومية التى يفهمها كل إنسان وما يحدثه من التأثير لا تأتى بمثله لغات العالم ، ولا يكاد صاحب حديث يستغنى عنها . قال تمام بن أشرس : لو كان ناطق يستغنى بمنطقه عن الإشارة لاستغنى جعفر بن يحي عن الإشارة كما استغنى عن الإعادة . فهى ضرورية للخطيب وبها يحرك الانتباه ويصل إلى ما ينبغى من التأثير . والصوت وحده لا يكفى للإفادة والإقناع والتعبير عن معانى اللذة والألم والغضب والرضا ، واليأس والرجاء ، والاحتقار والتوقير وما إلى ذلك ما لم تساعده حركات اليد ، وملامح الوجه وبريق العينين وإشارة الطرف والحاجب.

فنى الكلام العادى المعتدل كالوصف يجب الإقلال من الحركة ، أما فى الحماسة وغيرها من مثيرات العواطف فالحركة الكبيرة الواسعة لازمة .

أما الوقفة الموافقة للخطابة فهى الطبيعية أيضاً دون توتر فى الجسم ولا تخنث بحيث يبعد الخطيب فيها عن عظمة المتجبر واضطراب الطائش الأرعن ، ويحسن بالرأس أن يحيد عن الانتصاب الزائد والانحناء المفرط ، وبالوجه والنظر أن يكون كمرآة للنفس فى بيان عواطفها ، وباليدين أن لاترخيا مهملتين ولا تمدا بإفراط أو تلصقا بالصدر ، وإن تحركت اليمنى فلابد أن تشير بإشارات أنيقة حسنة الدلالة موافقة للمعنى وسابقة عليه سريعة فى أولها كلما كان الكلام حاداً ملتهباً .

وصفوة القول : يجب على الخطيب أن يكون فى وقوفه بعيداً عن التكلف والخروج عن المألوف فى إشاراته وإلقائه محافظاً ما أمكن على صوته الطبيعى غير مقلد لغيره من الخطباء والوعاظ والممثلين مجتنباً التزام نبرة واحدة وحركة واحدة لئلا يكون كالتلميذ فى تلاوة درسه لا الخطيب فى فيض بلاغته بعيداً عن الإكثار من الإشارة أو الإتيان بحركات مستهجنة ، وعن التنحنح والسعال وكل مايدل على الضعف أو يورث الملل جاعلا من تأثرنفسه فى صوته وحركاته

ليخلع على كلامه لباس الحياة . . . (هذا) وإن الارتياض مع مراقبة الخطباء البلغاء ، وحسن الذوق أحسن معلم لهذا الفن .

ومن آداب الأداء أن يتمهل قليلا بعد الوقوف، وقبل التكلم ليتم له الإصغاء ويوجه إليه أنظار السامعين ولا سيما إذا كان صعوده إلى المنبر بعد نزول خطيب آخر عنه فإن هذا التريث يساعد على لفت نظرهم، وجمع انتباههم بعد أن يتباعد عنهم صوت الخطيب السابق، ويذهب صداه من آذانهم فيكون للكلام الجديد أثره فى القلوب، وأن يفتح الخطبة بصوت متوسط لا خافت ولا جهير ، إلى أن تدعوه الحالة إلى الجهر شيئاً فشيئاً .

واعلم أن أحسن الكلام ما كان قليله يغنيه عن كثيره ، ومعناه فى ظاهر لفظه وكان الله عز وجل قد كساه من الجلالة وغشاه من نور الحكمة على حسب نية صاحبه وتقوى قائله ، فإذا كان المعنى شريفاً واللفظ بليغاً وكان صحيح الطبع بعيداً من الاستكراه والاختلال مصوناً عن التكلف صنع فى القلب صنيع الغيث فى التربة الكريمة، ومتى فصلت الكلمة على هذه الشريطة ونفذت من قائلها على هذه الصفة أصحبها الله من التوفيق ومنحها من التأييد ما لا يمنع من تعظيمها به صدور الجبابرة، ولا يذهل عن فهمها عقول الجهلة. وقد قال عامر بن عبد القيس : الكلمة إذا خرجت من القلب وقعت فى القلب، وإذا خرجت من اللسان لم تتجاوز الآذان . وبالله تعالى التوفيق .

* * *

الفصل الرابع

أنواع الخطابة

اعلم أن صناعة الخطابة تقوم على أمرين : أصولها ، وأنواعها . وقد مر بيان الأصول ، وبقى الكلام على الأنواع فنقول :

قسم اليونان قديماً الخطابة إلى ثلاثة أقسام تبعاً لأصول الزمان . من ماض ، وحاضر ، ومستقبل،وسموها (التثبيتية) أو البيانية ، والشورية ، والقضائية . فالأولى : تختص بالزمن الحاضر لمدح فترغيب أو ذم فتنفير ، والثانية : تتعلق بالمستقبل لحمل السامعين على جلب النفع للأمة أو دفع الضر عنها، أو للحض على الحرب أو السلم ، وسن القوانين التى تسير عليها الأمة ، والثالثة : تختص بالماضى والغاية منها الدفاع عن متهم بتبرئته أو الحكم عليه بإدانته وهى من اختصاص المحامين ، ورجال النيابة .

وهذا التقسيم وضعه أرسطو فى كتابه المعروف بالخطابة ، وقد سار على هذا التقسيم أرباب الخطابة عشرين قرناً ، ولعله لم يتعرض للخطابة الدينية لندرة استعمالها فى أمته . ثم تطورت أحوال المعيشة المدنية والسياسية والدينية مما دعا إلى تبديل ذلك التقسيم وصار المعول عليه هو تقسيم الخطابة إلى خمسة أنواع : علمية ، وسياسية ، وقضائية ، وعسكرية ، ودينية .

* * *

النوع الأول
الخطابة العلمية

هى لأول الأمر أقل الخطب بلاغة لا تستنزل الدموع ولا تثير العواطف ولا توقد نار الغضب والحماسة، ولا تحرك عوامل البغض أو الرحمة ، فإنها كلام علمى ، صناعة وبحثاً ، وتركيب بسيط يقرب منال الحقائق العلمية من الأذهان ، ولكن الخطيب البليغ يستطيع أن يخلع على الموضوع الجاف ثوباً من الجمال والرونق والجاذبية، فتزداد بساطته تأثيراً ، وهى تتناول المحاضرات وخطب المدح والتأبين والشكر والتهنئة .

فالمحاضرة وتسمى قراءة ، نوع من الدرس يلقى فى النوادى العلمية والأدبية على الجمهور كما يلقى المعلم درسه على تلاميذه ومريديه غير أنها لاتقبل المناقشة والمعارضة حال الأداء . وقد لا تخلو من مسحة خطابية بحسب الموضوع والمحاضر . والمقصود منها الإفادة والإقناع بالمواضيع العلمية على اختلاف أنواعها ، كقول شيخنا الأستاذ الإمام : إنما ينهض بالشرق مستبد عادل .

مستبد يكره المتناكرين على التعارف ويلجىء الأهل إلى التراحم ويقهر الجيران على التناصف ، يحمل الناس على رأيه فى منافعهم بالرهبة إن لم يحملوا أنفسهم على ما فيه سعادتهم بالرغبة .

عادل لا يخطو خطوة إلا ونظرته الأولى إلى شعبه الذى يحكمه فإن عرض حظ لنفسه فليقع دائماً تحت النظرة الثانية فهو لهم أكثر مما هو لنفسه ، يكفى لإبلاغهم غاية لا يسقطون بعدها خمس عشرة سنة . وهى سن مولود يبلغ الحلم ، يولد فيها الفكر الصالح ، وينمو تحت رعاية الولى الصالح ويشتد حتى يصرع من يصارعه ، خمس عشرة سنة يثنى فيها أعناق الكبار إلى ما هو خير لهم ولأعقابهم ، ويعالج ما اعتل من طباعهم بأنجع أنواع العلاج ، ومنها البتر والكى إذا اقتضت الحال وينشىء فيها نفوس الصغار على ما وجه العزيمة نحوه ، ويسدد نياتهم بالتثقيف يتعهدها كما يتعهد الغارس شجرة بضم أعواد

مستقيمة إلى سوقها لتنمو على الاستقامة ، خمس عشرة سنة تحشد له جمهوراً عظيما من أعوان الإصلاح من صالحين كانوا ينتظرونه، وناشئين شبوا وهم ينظرونه ، وآخرين رهبوه فاتبعوه وغيرهم رغبوا فى فضله فجاروه .

حتى إذا عرفت الأفكار مجاريها بالتعريف وانصرفت إلى ما أعدت له بالتصريف وصح الشعور بالتعليل واستقامت الأهواء بالتعديل أباح لهم من غذاء الحرية ما يستطيع ضعيف السن قضمه والناقه من المرض هضمه ، وأول ما يكون ذلك بتشكيل المجالس البلدية ثم بعد سنين تأتى مجالس الإدارة لا على أن تكون آلات تدار ، بل على أن تكون مصادر للآراء والأفكار ثم تتبعها بعد ذلك المجالس النيابية .. نعم ربما لا يتيسر لرجل واحد أن يشهد هذا الأمر من بدايته إلى نهايته، ولكن الخطوة الأولى هى التى لها ما بعدها، ويكفى لمدها خمس عشرة سنة ، وما هى بكثير فى تربية أمة فضلا عن أمة .

هل يعدم الشرق كله مستبداً من أهله، عادلا فى قومه يتمكن به العدل أن يصنع فى خمس عشرة سنة مالا يصنع العقل وحده فى خمسة عشر قرناً .

وخطب المدح : هى التى يثنى فيها على عظيم أو ذى فضل ومنة، والأسباب الحقيقية للثناء هى الفضائل النفسية لا غير، فيعنى فيها الخطيب بذكر ما جبلت عليه نفس الممدوح من الأخلاق الكريمة والعواطف الشريفة التى برهن عليها بآثاره وجليل أعماله . أما ما سواها من الجاه والثروة ومآثر الآباء وحسبهم وكرم الأرومة فلا يمدح بها إلا تبعاً للفضيلة لكونه مظهراً لها :

إن الفتى من يقـول هأنـذا ليس الفتى من يقول كان أبى

والمنهاج العلمى لها ما يأتى :

الأول : أن يفتتح الخطبة بذكر بعض الفضائل الموافقة لفضائل الممدوح وبيان آثارها فى المجتمع الإنسانى .

الثانى : ذكر الظروف التى كان عليها الناس قبل ظهور الممدوح بوصف أحوال العصر من جهة الدين والعلم والأخلاق والسياسة ثم يبين ما كان من الملاءمة بين ظهوره وبين تلك الظروف كأن يذكر أحوال بنى إسرائيل فى مصر على

عهد الفراعنة قبل ظهور موسى عليه السلام لينجلى للناس حاجة الشعب الإسرائيلى إلى من ينقذهم من ظلمات الوثنية ويخلصهم من ذل الاستعباد ، أو يذكر أحوال العرب قبل ظهور رسول الله (صلوات الله وسلامه عليه) ليتبين للسامعين حاجة الناس إلى من يخرجهم من ظلمات الشرك والجهل إلى نور الإيمان والعلم بل من الفوضى إلى النظام والشقاء إلى السعادة .

الثالث : ذكر الفضائل النفسية التى عرف بها بين الناس كالحكمة والشجاعة والعفة والعدل والسخاء وعلو الهمة وعزة النفس والحلم والرحمة بالضعفاء فهذه الفضائل وما إليها يذكرها الخطيب بلا مبالغة ولا تزلف إلى الممدوح وإلا كان كاذباً ومتملقاً ،وشىء من ذلك لا يليق بالخطيب الاجتماعى .

الرابع : ما يكون عنده من العلوم النافعة وما حصل عليه من المعارف الصحيحة المفيدة لما وهبه الله من سعة العقل ومنحه من سرعة الإدراك، فبرع فى العلوم وفاق أقرانه فى اتقان الفنون حتى صار آية الزمان وكعبة العرفان كقول الأستاذ الإمام يمدح أستاذه السيد جمال الدين الأفغانى : أما منزلته من العلم وغزارة المعارف فليس يحدها قلمى إلا بنوع من الإشارة إليها . لهذا الرجل سلطة على دقائق المعانى وتحديدها وإبرازها فى صورها اللائقة بها، كأن كل معنى قد خلق له ، وله قوة فى حل ما يعضل منها كأنه سلطان شديد البطش فنظرة منه تفكك عقدها كل موضوع يلقى إليه يدخل للبحث فيه كأنه صنع يديه فيأتى على أطرافه ويحيط بجميع أكنافه ويكشف ستر الغموض عنه فيظهر المستور منه ، وإذا تكلم فى الفنون حكم فيها حكم الواضعين لها . ثم له فى باب الشعريات قدرة على الاختراع كان ذهنه عالم الصنع والإبداع . وله لسن فى الجدل وحذق فى صياغة الحجة لا يلحقه فيها أحد إلا أن يكون فى الناس ما لا نعرفه ، وكفاك شاهداً على ذلك أنه ما خاصم أحداً ولا جادله عالم إلا ألزمه : « **ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم** » وإجمالا تقول :

إن حارت الألباب كيف تقول ... فى ذا المقام فعذرها مقبول

إن كان لا يرضيك إلا محسن ... فالمحسنون إذن لديك قليل

سامح بفضلك مادحيك فما لهم ... أبداً إلى حسن الثناء سبيل

الخامس : ما تم على يديه من جلائل الأعمال النافعة له ولأمته فى هذه الحياة وفى تلك الحياة ويأتى بما يفيد التفخيم له كأن يقول : إن الممدوح هو أول من فعل هذا الشىء ، أو أنه فعل فى زمان يسير ما شأنه أن يفعل فى أزمان كثيرة . كذا يأتى بأطراء جليل الأعمال التى قام بها الممدوح وما فيها من المزايا الحسنة فذلك خير طريق لإدخال السرور عليه وأدعى إلى التأسى به .

السادس : وإن كان كريم الأصل ذا حسب ونسب ذكرت ما ترك أسلافه من الآثار الحسنة التى خلدت لهم أحسن الذكرى وجميل الأحدوثة وجعلته المتمم لمجدهم والمحافظ لكرامتهم والمستوفى لعزهم وأنه خير خلف لخير سلف . وإن كان ضعيف الأصل توسلت بضعفه إلى إثبات فضله وصورته للسامعين بمن يرقى من وهدة الذل إلى ذروة العز ويخرج من ظلمة الجهل إلى نور العلم وضيق الفقر إلى ساحة الغنى بجده وهمته رغماً عن خمول إبائه وضعف بيته .

السابع : ذكر الوطن الذى نشأ فيه إذا كان منبتاً لقوم مشاهير أجلاء لهم فى الفضل قدم وبالمعروف صلة ، وإن كان وطنه خامل الذكر قيل إنه قد أحرز قصب السبق فى مضمار الرقى بقوة عزيمته وعلو همته مع أنه من بلد خامل لا ذكرى له إلا بفضل الممدوح ونهوضه إلى المعالى والرقى .

و**الخطب التأبينية** : هى التى يعدد فيها مآثر ميت يوم موته أو يوم إحياء ذكراه . وأجزاؤها ثلاثة : الثناء على الفقيد بذكر فضائله وأعماله الصالحة وتسلية ذويه وأحبائه ، وحث السامعين على أن يجعلوا أخلاقه الكريمة وأعماله النافعة إماما يتبعونه وهادياً يهتدون به ، ولا يكون التأبين مقبولا خفيفاً على القلوب إلا لذوى القدر الجليل والمآثر الحميدة الذين تشعر الناس بفقدهم شعورهم بانطفاء مصباح أو بنضوب عين ماء أو بانهدام سور منيع ، وذلك إذا كان فاضلا ذا رأى سديد أو صالح السيرة أو جواداً ذا هيبة وصولة والمنهاج العلمى لها ما يأتى :

الأول : افتتاح الخطبة بما يناسب المقام من آية كريمة أو حكمة بليغة أو مثل سائر أو بيت شعر حكيم وما إلى ذلك مما يدل على أن الدنيا دار زوال لا دار قرار وأن عطاءها متبوع بالسلب وحلوها مشفوع بالمر كقوله تعالى :

« كل نفس ذائقة الموت » أو **« كل شيء هالك إلا وجهه »** أو **« كل من عليها فان »** وكأن تقول : هى الدنيا لا يعجب من طوارقها ، ولا ينكر هجوم بوائقها ، عطاؤها فى ضمان الارتجاع ، وحباؤها فى قران الانتزاع . ما الدنيا إلا دار النقلة . وما المقام فيها إلا للرحلة :

حكم المنية فى البرية جارى ما هــذه الدنيا بدار قرار

وكقوله بعض الأدباء :

إن الحبيب من الأحباب مختلس لا يمنع الموت بواب ولا حرس
وكيف يفرح بالدنيا ولــذتها فتى يعد عليــه اللفظ والنفس

الثانى : مدح الفقيد بذكر مآثره على نحو ما تقدم فى منهاج المدح ويزاد هنا ذكر حاله عند الموت وسبب الوفاة كما لو مات شيخاً ورعاً حميد الذكر يخشى الله ولا يرهب المنية على ما يجدر بالرجل العاقل الفاضل أو شاباً شجاعاً مقداماً قتل دفاعاً عن الوطن أو مجاهداً فى سبيل الله أو مقاساة أعمال جليلة ذات منافع عامة .

ومن تعظيم شأنه أن يكون قد فعل فى مدة وجيزة ما لا يفعله غيره فى مدة طويلة أو يكون هو المنفرد بالفعل الجميل أو السابق إليه أو الفاعل له فى وقت يشق فعله على النفس كمجاعة أو عسرة .

الثالث : تسلية أهله وذويه ببيان أن الكل يشاركونهم فى الحزن ويشاطرونهم الأسى وأنهم ليسوا هم المصابين فيه وحدهم وليس الألم قاصراً عليهم ، بل لهم فيه شركاء ، ويهون عليهم شدة الفاجعة بما أبقى من ذكره الخالد فى النفوس وفضائله الراسخة فى الأعقاب ، وأنه وإن ارتحل من هذه الدار وهى دار شقاء وعناء فقد حل فى الدار الأخرى وهى دار سعادة وهناءة مؤملا السامعين بوصول الراحل إلى دار النعيم والكرامة ، وأن آله ورثوا عنه تلك الفضائل الطيبة والسجايا الحميدة ، فهى لا تزال باقية بهم متوفرة لهم .

الرابع : ثم ينتقل إلى الجزء الثالث : فيرغب السامعين فى الاقتداء به والسير على نهجه ، ويسلم على الفقيد ويدعو له وبذلك تتم الخطبة .

وقف محمد على قبر أبيه الحسن بن على بن أبى طالب رضى الله عنهم وقد

اغرورقت عيناه بالدموع وقال : « رحمك الله يا أبا محمد فلئن عزت حياتك فلقد هددت وفاتك ، ولنعم الروح روح تضمنه بدنك ، ولنعم الجسد جسد تضمنه كفنك ، ولنعم الكفن كفن تضمنه لحدك . وكيف لا تكون كذلك وأنت سليل الهدى وخامس أصحاب الكسى وخلف أهل التقى . غذتك أكف الحق وربيت فى حجر الإسلام . ورضعت ثدى الإيمان، فطبت حياً وميتاً . فلئن كانت الأنفس غير طيبة لوفاتك إنها غير شاكة أن قد خير لك وأنك وأخاك لسيدا شباب أهل الجنة ، فعليك منا يا أبا محمد السلام » .

ومن أجود ما جاء فى التعزية ما روى أنه صلى الله عليه وسلم كتب إلى معاذ بن جبل يعزيه فى ولد له مات : « من محمد رسول الله إلى معاذ بن جبل سلام عليك فإنى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو (أما بعد) فعظم الله لك الأجر ، وألهمك الصبر ورزقنا وإياك الشكر، ثم أن أنفسنا وأهلينا ومواليـنا من مواهب الله السنية، وعواريه المستودعة نمتع بها إلى أجل معدود، وتقبض لوقت معلوم، ثم افترض علينا الشكر إذا أعطى ، والصبر إذا ابتلى ، وكان ابنك من مواهب الله الهنيئة وعواريه المستودعة متعك به فى غبطة وسرور وقبضه منك بأجر كثير . الصلاة والرحمة والهدى إن صبرت واحتسبت ، فاصبر ، ولا يحبط جزعك أجرك فتندم .

واعلم أن الجزع لا يرد ميتاً ، ولا يدفع حزناً ، فأحسن الجزاء وتنجز الموعود وليذهب أسفك ما هو نازل بك ، فكأن قد .

وكتب بعض الأدباء يعزى أخاً له فى عزيز لديه فقال : أخى الكريم بقلب ملؤه الحزن والأسى أقول : إن الماضى قبلك الباقى لك ، والباقى بعدك المأجور فيك ، وإنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب ، إن فى الله العزاء عن كل هالك والخلف عن كل مصاب ، وأنه من لم يتعز بعزاء الله تنقطع نفسه عن الدنيا حسرة فإن الصبر يعقبه الأجر والجزع يعقبه الهلع فتمسك بحظك من الصبر تنل به الذى تطلب وتدرك به الذى تأمل ، وإن استطعت أن يكون لله شكرك حيث وهبه لك فافعل فإنه حيث قبضه منك أحرز لك هبته ولو بقى لم تسلم من فتنته .

أرأيت جزعك على ذهابه وتلهفك على فراقه . أرضيت الدار لنفسك فترضاها لابنك ، فقد خلص من الكد وبقيت أنت متعلقاً بالحظر ، جعل الله ثواب ما رزئت به لك أجراً وأعقبك عليه صبراً ، وختم ذلك لك بعافية تامة ونعمة عامة فثواب الله خير لك منه ، وما عند الله خير له منك ، وأحق ما صبر عليه ما ليس إلى تغييره سبيل . السلام .

* * *

خطب الشكر

وهو الثناء بالجميل على المتفضل به بتعديد مناقبه،وذكر إحسانه قال فى العقد الفريد : الشكر المتعارف بين الناس هو إظهار النعمة والتحدث بها وبسط اللسان بالحمد والتعظيم للمنعم بها والتنويه بذكره ورفع قدره،وهو برهان على الاعتراف بالجميل وعدم نكران المعروف،وذلك من أخلاق الكرام وسجايا الفضلاء ذوى الحسب الرفيع ، فإن الأصول الكريمة هى التى يملكها الإحسان وقد قيل : لم يشكر الله من لم يشكر الناس .

والمنهاج العلمى لها ما يأتى :

الأول : ذكر صنيعة المحسن وارتياح المحسن إليه بقبولها .

الثانى : تعظيم قدر الإحسان وذلك من أربعة أوجه .

(ا) من قدر المحسن كما لو كان ملكاً أو وزيراً أو عظيما من العظماء فإن قدر النعمة على قدر مسديها .

(ب) بتعريف حال المنعم عليه إذا نال هذه النعمة عفواً من غير استحقاق وعلى حين حاجته إليها .

(ح) ببيان مقدار النعمة فى ذاتها كقيمتها وحسنها وكونها مما يندر أو يعسر وصول مثله إليها وملاءمتها لحاله، وأن المحسن بها قد أصاب مكانها الجدير بها :

إن الصنيعــة لا تكون صنيعــة حتى تصيب بهــا مكان المصنع

(د) من ظروفها كما لو جاد بها المنعم احتساباً لوجه الله تعالى عن طيب نفس وإخلاص من غير سابقة التماس ومن غير أن تكون على سبيل المكافأة على معروف جرى على يديه . وكونها معجلة فخير الإحسان ما كان عاجلا كقول الحسن بن وهب لأميره : من شكرك على درجة رفعته إليها أو ثروة أقدرته عليها فإن شكرى على مهجة أحييتها وحشاشة أبقيتها ورمق أمسكت به وقمت بين التلف وبينه فلكل نعمة من نعم الدنيا حد تنتهى إليه ومدى يوقف

عنده وغاية من الشكر يسمو إليها الطرف خلا هذه النعمة التى قد فاقت الوصف وأطالت الشكر وتجاوزت قدره ، وأنت من وراء كل غاية رددت عنا كيد العدو وأرغمت أنف الحسود ، فنحن نلجأ منك فيها إلى ظل ظليل وكنف كريم فكيف يشكر الشاكر وأين يبلغ جهد المجتهد .

الثالث : بيان أن هذه النعمة سيبقى ذكرها فى النفوس ما بقيت فهو يشكره عليها ما دام حياً .

الرابع : وبه تختم الخطبة عادة . الدعاء لصانع المعروف والابتهال إلى الله تعالى أن يتولى مكافأته عليه لعجزه هو عن القيام بواجبها . . لما ترجم محمد حافظ بك إبراهيم الجزء الأول من كتاب البؤساء بالعربية أهداه إلى شيخنا بهذا الخطاب : إلى الأستاذ الإمام إنك موئل البؤساء ومرجع البائس ، وهذا الكتاب أيدك الله قد ألم بعيش البائسين وحياة اليائسين ، وضعه صاحبه تذكرة لولاة الأمور وسماه كتاب (البؤساء) وجعله بيتاً لهذه الكلمة الجامعة وتلك الحكمة البالغة (الرحمة فوق العدل) وقد عنيت بتعريبه لما بين عيشى وعيش أولئك البؤساء من صلة النسب وتصرفت فيه بعض التصرف واختصرت بعض الاختصار ورأيت أن أرفعه إلى مقامك الأسنى ورأيك الأعلى لأجمع فى ذلك بين خلال ثلاث :

أولها : التيمن باسمك والتشرف بالانتماء إليك .

ثانيها : ارتياح النفس وسرور اليراع برفع ذلك الكتاب إلى الرجل الذى يعرف مهر الكلام ومقدار كد الأفهام .

ثالثها : امتداد الصلة بين الحكمة الغربية والحكمة الشرقية بإهداء ما وضعه حكيم المغرب إلى حكيم المشرق فليتقدم سيدى إلى فتاه بقوله والله المسئول أن يحفظه للدنيا والدين وأن يساعدنى على إتمام تعريبه للقارئين . . فكتب إليه الأستاذ الإمام : لو كان لى أن أشكرك لظن بالغت فى تحسينه أو أحمدك لرأى لك فينا أبدعت فى تزيينه لكان لقلمى مطمع أن يدنو من الوفاء بما يوجبه حقك ويجرى فى الشكر إلى الغاية مما يطلبه فضلك . لكنك لم تقف بعرفك عندنا بل عممت به من حولنا ، وبسطته على القريب والبعيد من أبناء لغتنا .

زففت إلى أهل اللغة العربية عذراء من بنات الحكمة الغربية ، سحرت قومها وملكت فيهم يومها ولا تزال تنبه منهم خامداً ، وتهز فيهم جامداً بل لا تنفك تحيي من قلوبهم ما أماتته القسوة ، وتقوم من نفوسهم ما اعوزت فيه الأسوة ، حكمة أفاضها الله على رجل منهم فهدى إلى التقاطها رجل منا فجردها من ثوبها الغريب ، وكساها حلة من نسيج الأديب ، وحلاها للناظر ، وجلاها للطالب بعدما أصلح من خلقها وزان من معارفها (المعارف من وجه الإنسان ما يعرف به ويمتاز من غيره كالعينين والملامح) حتى ظهرت محببة إلى القلوب ، شيقة إلى مؤانسة البصائر تهش للفهم (تصل إليه بسهولة) وتبش (بفتح الباء من البشاشة) للطف الذوق ، تسابق الفكر إلى مواطن العلم ، فلا يكاد يلحظها الوهم إلا وهى فى النفس مكان الإلهام .

حاول قوم من قبلك أن يبلغوا من ترجمة الأعجم مبلغك ، فوقف العجز بأغلبهم عند مبداء الطريق وصل منهم فريق إلى ما يحب من مقصده ولكنه لم يعن بأن يعيد إلى اللغة العربية ما فقدت من أساليبها ويرد إليها ما سلبه المعتدون عليها من متانة التأليف ، وحسن الصياغة ، وارتفاع البيان فيها إلى أعلى مراتبه .

أما أنت فقد وفيت من ذلك ما لا غاية لمزيد بعده ، ولا مطمع لطالب أن يبلغ حده ، ولو كنت ممن يقول بالتناسخ ، لذهبت إلى أن روح ابن المقفع كانت من طيبات الأرواح فظهرت لك اليوم فى صورة أبدع ومعنى أنفع

ولعلك قد سننت بطريقتك فى التعريب سنة يعمل عليها من يحاوله من ظهور كتابك ويحملها الزمان إلى أبناء ما يستقبل منه ، فتكون قد أحسنت إلى الأبناء ، كما أجملت الصنع مع الآباء وحكمت للغة العربية أن لا يدخلها بعد من معجمة سوى ما هو فى الأسماء ، أسماء الأماكن والأشخاص لا أسماء المعانى والأجناس ، ومثلى من يعرف قدر الإحسان إذا عم ، ويعلى مكان المعروف إذا شمل ، ويتمثل فى رأيه بقول الحكيم العربى :

ولو أنى حبيت الخلد فرداً	لمـــا أحببت بالخلد انفرادا
فلا هطلت على ولا بأرضى	سحائب ليس تنتظم البلادا

فما أعجز قلمى عن الشكر لك ، وما أحفك(١) بأن ترضى من الوفاء باللفاء تقول : إن الذى وصل سببك بسبب صاحب الكتاب ، ووقف بك على دقائق من معانيه اشتراكك معه فى البؤس ونزولك منزلته من سوء الحال وربما كان فيما تقول شيء من الحقيقة ، فإن كان البؤس قد هبط على صاحبه بتلك الحكمة ثم كان سبباً فى اختيارك من بين المترفين بتلك النعمة سألت الله أن يزيد وفرك من هذا البؤس حتى يتم الكتاب على نحو ما ابتدأ ، وأن يجعلك فى بؤسك أغنى من أهل الثراء فى نعيمهم ، والسلام . رحم الله أستاذنا الإمام .

وخطب التهنئة والتكريم : هى التى تلقى فى اجتماع عظيم للإعراب عن الفرح بنعمة عامة كانتصار دولة ، أو خاصة كرتبة سامية نالها صديق ولا تختص بالنعم الحادثة ، بل تتناول الحوادث القديمة كاستقلال أمة ، والمواسم الدينية السنوية تذكاراً لأمر جليل كمولد ملك ، أو تولية خليفة ، والمنهاج العلمى لها ما يأتى :

الأول : بيان الداعى إلى الاجتماع والنعمة الشاملة التى احتشد القوم لإحياء ذكراها وسرورهم العظيم بها .

الثانى : الإفاضة فى وصف تلك النعمة وتعظيم قدرها والتوسع فى بيان سوابقها ، ولواحقها ، وعلائقها .

الثالث : ذكر ما غمر المهنىء من الفرح والسرور لنيل ما أمله لصديقه لاتحاد شخصيهما خيراً وبراً ، وامتداح المهنأ واستحقاقه لتلك النعمة لفضله وأخلاقه واستقامته ونبله .

الرابع : ختمها بالشكر لله تعالى على هذه النعمة والدعاء للمهنأ بالحياة الطيبة والعز الدائم فى رقى ومجد ، كقول الأستاذ أحمد مفتاح فى التهنئة بنيل رتبة :

إذا ما راية رفعت لمجد   تلقاها عرابة باليمين

---

(١) أحفك أكرمك — واللفاء — بالفتح — القليل الذى هو دون الحق .

أقول والنفس بين فرح مقيم وقصور مقعد ، واللسان بين واجب يدفعه وحصر يمنعه قول من ولج إليك باب التهنئة تجذبه عوامل الإخلاص ، وسلك فجاج المودة تقوده أزمة الصدق بما شملتك به العناية الإلهية والمراحم الملكية من توجيه الرتبة الأولى إليك لما رأته فى محاسنك الغراء وشمائلك العلياء . من نزاهة الذمة وبذاخة الشرف الأثيل والحسب التليد والقيام بأعباء الأعمال وإدمان التيقظ لما أنت منوط به .

ولعمرى إن تلك المراحم رمت عن قوس التحرى فأصابت غرض الحقيقة وساقت عقيلة شرف إلى كفء كريم يكرم مثواها ، ويحسن وفادتها فأسندتها خير مسند، وبوأتها بحبوحة فضل عريق ومكانة شماء ،ولئن أبانت هذه الصنيعة عما لك من المآثر الجميلة، والأعمال المبرورة، وجذبت بضبعك إلى حيث ضرب الفخر رواقه ، ومدت الأبهة أطنابها لقد أسمت سرحها فى مرابع الخلال الظاهرة ، وشحذت سيفها بيد الاستحقاق ، فحمد عندك سراها ، وعمر بك مغناها :

وألقت عصاها واستقر بها النوى   كما قر عيناً بالإياب المسافر

خــاتمة :

بالتأمل فى الخطابة العلمية وما ألحق بها يتبين أنها تتشابه موضوعاً وتختلف حسب الأقدار والأعمار وقيمة العمل ، أو المآثر التى للمحتفل به على أمته وبلاده، على أن التكريم الصحيح الذى يكون لأعمال جليلة القدر حقيقة النفع يعطى الخطيب من الموضوع نفسه مصدراً للوحى فيجمع الإخلاص فى البيان إلى فصاحة اللسان .

* * *

النوع الثانى
الخطابة السياسية

هى التى تلقى فى المجالس النيابية أو الشورية أو النوادى العمومية التى ينظر فيها النواب ورجال الشورى فى شئون الدولة وأمور الرعية لسن القوانين العادلة وتنظيم الدوائر الرسمية كالمالية ، والعدل ، والحربية ، والمعارف وما يناط بكل منها ، ولهذه الخطب شأن كبير فإن عليها مدار حياة الأمة ورقيها مادياً وأدبياً والعمل فى الحرب والسلم ، وتكون فى الدول الدستورية الحرة سواء أكانت جمهورية يديرها نواب الأمة ، أم ملكية يخضع ملكها للدستور ، فيملك على الدولة ولا يسوسها إذ الحكم فيها لنوابها ، ومثلها الولايات المتحالفة أو الممتازة فى تدبير شئونها الخاصة ، أما الدول ذات السلطة المطلقة فلا . لأن زمام الأمر فى يد الفرد يأمر وينهى كما يشاء .

وهى من أصعب أنواع الخطابة لأن حركات الأمة نتيجة مد وجزر منشؤه سيطرة الأفراد على الجمهور ، أو الجمهور على الأفراد . فيتبع الخطيب هذه الأمواج آمراً فى القوم أو خاضعاً لرغباتهم ، فلا هو موقن بالنجاح كل الإيقان ولا ييئس منه كل اليأس وكثيراً ما نرى من خطباء السياسة من يذوق فى المجالس النيابية أو عند احتكاكه بالجمهور لذة الظفر والانتصار . أو ألم الخيبة والهزيمة ، وهذا دليل واضح على حرج الموقف . ولضمان العدل والوصول إلى ما ينفع الأمة والسلامة من المضار والأمل فى النجاح يجب أن تتوافر فى الخطيب السياسى زيادة على ما تقدم الصفات الآتية :

الأولى : أن يكون ذا دراية تامة بالقوانين الدولية ، والحقوق الشخصية والمدنية ملماً بأسرار الدولة الداخلية والخارجية وأحوالها المادية والأدبية لصلة ذلك بحياة الأمة فى صعودها وهبوطها فيتسنى له إظهار العدل ونصرة الحق وإدراك الصواب والعمل على ما فيه سعادة الأمة .

الثانية : أن يكون مخلصاً فى محبة وطنه ، بريئاً من كل أنانية وغرض شخصى أو تحيز إلى نصرة إنسان أو خذلانه فلا يرى إلا حياة الأمة ، ولا يعمل إلا للخير المحض .

الثالثة : أن يحسن درس الأمور التى يدور عليها البحث ويمعن النظر فى جميع وجوهها ليكون حكمه فيها عن بصيرة تامة بعيداً عن الخطأ والزلل .

الرابعة : أن يكون حر الضمير فلا يملكه لأحد ، مستقلا فى رأيه لا مقلداً فيه لغيره .

الخامسة : أن يكون شجاعاً ذا عارضة ولسن ، بعيداً عن الغضب ليستطيع أن يقوم فى وجه معارضيه ويلزمهم الحجة ، وهذه وإن كانت من لوازم الخطيب مطلقاً إلا أنها بمثل الخطيب السياسى ألزم ، فما أحسن العلم مع الحلم ، وما أحسن الشجاعة ، وما أحسن الإخلاص .

وعلى الخطيب السياسى إذا أشار بشىء أن يقيم الأدلة الحسية والعقلية على ما فيه من منافع للأمة ، وبالعكس إذا أراد المنع منه .

ومن خطبة للإمام على كرم الله وجهه يبين أنه لابد للناس من أمير حيث قال فى الخوارج لما سمع قولهم : « لا حكم إلا لله » : كلمة حق يراد بها الباطل . نعم إنه لا حكم إلا لله ، ولكن هؤلاء يقولون : لا إمرة إلا لله ، وأنه لابد للناس من أمير بر أو فاجر يعمل فى إمرته المؤمن ويستمتع فيها الكافر ، ويبلغ الله فيها الأجل ، ويجمع به الفىء ، ويقاتل به العدو ، وتأمن به السبل ، ويؤخذ للضعيف من القوى حتى يستريح ويستراح من فاجر . وفى رواية أنه رضى الله عنه لما سمع تحكيمهم قال : حكم الله انتظر فيكم ، وقال : أما الإمرة البرة فيعمل فيها التقى ، وأما الإمرة الفاجرة فيتمتع فيها الشقى إلى أن تنقطع مدته ، وتدركه منيته .

ومن أمثلة الإشارة بالمنع من الشىء قول يحيى البرمكى للهادى ، وكان قد عزم الهادى على أن يخلع أخاه هارون من الخلافة ويبايع لابنه جعفر فصده يحيى عن ذلك مبيناً ضرر فعله فقال : يا أمير المؤمنين إن فعلت حملت الناس على نكث الأيمان ونقض العهود ، وتجرأ الناس على مثل ذلك

ولو تركت أخاك هارون على ولاية العهد ، ثم بايعت لجعفر بعده كان ذلك أوكد فى بيعته ، ولو حدث بك حادث الموت وقد خلعت أخاك وبايعت لابنك جعفر ، وهو صغير دون البلوغ افترى خلافته كانت تصح وكان مشايخ بنى هاشم يرضون ذلك ويسلمون الخلافة إليه ، فدع هذا الأمر حتى تأتيه عفواً ، ولو لم يكن المهدى بايع لهارون لوجب أن تبايع أنت له لئلا تخرج الخلافة من بيت أبيك . وهى كما ترى من أبلغ ما عرف فى المشورة .

* * *

النوع الثالث
الخطابة العسكرية

الخطب العسكرية هى التى يلقيها قواد الجيوش قبل الحرب يحضون فيها الجند على قتال الأعداء ، والغاية منها إنهاض همم الجنود وإذكاء نار الحماسة فيهم وإثارة النخوة والحمية والإقدام وتهوين الموت وتحسين التضحية فى سبيل الشرف والكرامة ، وخطرها عظيم فكثيراً ما يتوقف عليها إحراز النصر ، فإن الجندى إذا تحمس بقول الرئيس نشط للقتال وجاهد العدو غير مبال بالخطر حتى يفوز بإحدى الحسنيين الظفر والغنيمة ، أو الموت والشهادة. والواجب فى الخطب العسكرية أمران :

الأول : أن يستنهض همة الجندى بأن يعظم فى نفسه شأن الوطن الذى تصدى للدفاع عنه والحياة فى عزة وكرامة وما سيناله بحسن بلائه من المجد العظيم والشرف الرفيع والذكرى الخالدة فى الناس والثواب الجزيل لدى الله تعالى حياً وميتاً .

الثانى : أن يبغض إليه العدو ويملأ قلبه حنقاً عليه ببيان جوره وطمعه فى الاستعمار وحب السيادة على الشعوب بلا مسوغ ، ثم يذلل الأمر له ببيان ضعف قوته وسهولة الانتصار عليه والفوز بعدده وذخائره بصدق الحملة والاستماتة فى الدفاع والثبات فى وجه العدو ثقة بالله وأملا فى النجاح والظفر .

ولهذه الخطب ثلاث صفات :

الأولى : أن يلقيها الخطيب بحماس عظيم ، وانفعال شديد ليجيز فى نفوس السامعين ما فى نفسه من الشجاعة والحمية والنشاط .

الثانية : أن تكون واضحة قريبة المنال يدركها الجند بسهولة .

الثالثة : أن تكون موجزة لأن الحرب لا تدع مجالا واسعاً للإطالة ،

فإذا توافرت فيها هذه الصفات خرجت من فم الخطيب كشهب النار الملتهبة وعملت فى نفوس الجند عمل السهام الصائبة والنبال الراشقة فيتهافتون على نزال العدو غير مبالين بالموت كما يرى ذلك فى خطب القواد من السلف وغيرهم ، كخطبة طارق بن زياد قبل فتوح الأندلس ، لما بلغ طارقاً دنو لذريق قام فى أصحابه يحرضهم على الجهاد فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال : أيها النـــاس أين المفر ، البحر من ورائكم ، والعدو أمامكم ، وليس لكم والله إلا الصدق والصبر ، واعلموا أنكم فى هذه الجزيرة أضيع من الأيتام فى مأدبة اللئام وقد استقبلكم عدوكم بجيشه وأسلحته،وأقواته موفورة وأنتم لا وزر لكم إلا سيوفكم ، ولا أقوات لكم إلا ما تستخلصونه من عدوكم وإن امتدت بكم الأيام على افتقاركم ولم تنجزوا لكم أمراً ذهب ريحكم وتعوضت القلوب من رعبها منكم الجرأة عليكم ، فادفعوا عن أنفسكم خذلان هذه العاقبة من أمركم بمناجزة هذه الطاغية ، فقد ألقت به إليكم مدينته الحصينة ، وإن انتهاز الفرصة فيه لممكن إن سمحتم لأنفسكم بالموت ، وإن لم أحذركم أمراً أنا عنه بنجوة ولا حملتكم دونى على خطة أرخص متاع فيها النفوس إلا أبدأ بنفسى ، واعلموا أنكم إن صبرتم على الأشق قليلا استمتعتم بالأرفه الألذ طويلا ، فلا ترغبوا بأنفسكم عن نفسى فما حظكم فيه بأوفر من حظى ، وقد بلغكم ما أنشأت هذه الجزيرة من الخيرات العظيمة ، وقد انتخبكم الوليد بن عبد الملك أمير المؤمنين من الأبطال عرباناً ، ورضيكم لملوك هذه الجزيرة أصهاراً وأختاناً ثقه منه بارتياحكم للطعان ، واستماحكم بمجالدة الأبطال والفرسان ليكون حظه منكم ثواب الله على إعلاء كلمته وإظهار دينه بهذه الجزيرة ، وليكون مغنمها خالصة لكم من دونه ومن دون المؤمنين سواكم ، والله تعالى ولى أنجادكم على ما يكون لكم ذكراً فى الدارين ، واعلموا أنى أول مجيب إلى ما دعوتكم إليه وإنى عند ملتقى الجمعين حامل بنفسى على طاغية القوم (لذريق) فقاتله إن شاء الله تعالى فاحملوا معى فإن هلكت بعده فقد كفيتم أمره ولم يعوزكم بطل عاقل تسندون أموركم إليه وإن هلكت قبل وصولى إليه فاخلفونى فى عزيمتى هذه واحملوا بأنفسكم عليه واكتفوا الهم من فتح هذه الجزيرة بقتله .

ويلحق بالخطابة العسكرية خطب التحريض والتقريع والطلب والوصية

والشفاعة والتوصية – فخطب التحريض والحث هى الخطب الحماسية التى يقصد بها تهييج النفوس إلى فعل النافع وترك الضار ، ومناهجها ما يأتى :

الأول : إثارة الأمل ببيان الثمرات الأدبية التى يجنيها المرء من وراء العمل كنيل العز والشرف وحسن الذكرى فى هذه الحياة والأجر العظيم من الله فى تلك الحياة .

الثانى : أن يبعث فيهم الشوق إلى ذلك الفعل ، ويحببه إليهم ببيان فوائده وما تضمنه من المنافع المادية .

الثالث: توريطهم بالمدح ، وذكر مآثرهم العظيمة ، وشمائلهم الكريمة ولا سيما إذا كانوا ورثوها عن الآباء ، فإن ذلك مما يستميلهم ويقوى همتهم نحو العمل .

الرابع : أن يغرس فى نفوسهم فضيلة المنافسة بذكر ما وصل إليه سواهم من الأمم وما يفعله الواحد منهم من الخير وحبه لأمته .

وخطب التقريع هى التى تلقى على سبيل التوبيخ واللوم والإنكار لحمل المخاطب على الإقلاع عن القبيح والتخلق بالحسن لدفع المخاطب إلى قصد عظيم كطاعة بعد عصيان ، وجد بعد كسل ، وعمل بعد فشل ، وللناس فيها تفننات كثيرة وسبل مختلفة ، وأمثل الطرق لها ما خلط فيه الوعد بالوعيد والشدة باللين فيكون بالعتاب أشبه كخطبة الإمام على رضى الله عنه لما أغار سفيان ابن عوف الأسدى بجيش من جيوش معاوية على الأنبار وقتل عامله عليها حسان البكرى ، خرج رضى الله عنه يجر ثوبه مغضباً حتى جلس على باب السدة وأتبعه الناس فرقى رباوة من الأرض وحمد الله وأثنى عليه وصلى وسلم على نبيه محمد (صلى الله عليه وسلم) ثم قال : أما بعد فإن الجهـاد باب من أبواب الجنة فمن تركه رغبة عنه ألبسه الله الذل وسيماء الخسف – علامة الذل والهوان – وديث بالصغار وإنى قد دعوتكم إلى حرب هؤلاء القوم ليلا ونهاراً وسراً وإعلاناً وقلت لكم : اغزوهم قبل أن يغزوكم ، فوالذى نفسى بيده ما غزى قوم قط فى عقر دارهم إلا ذلوا فتخاذلتم وتواكلتم وثقل عليكم قولى واتخذتموه وراءكم ظهرياً حتى شنت عليكم الغارات .

هذا أخو غامد قد وردت خيله الأنبار وقتلوا حسان بن حسان ورجالا

منهم كثيراً ونساء ، والذى نفسى بيده لقد بلغنى أنه كان يدخل على المرأة المسلمة والمعاهدة فينتزع أحجالها ــ الأحجال : الخلاخيل واحدها حجل ــ ورعاثها ــ والرعاث بالثاء : جمع رعثة وبحرك بمعنى القرط ــ ثم انصرفوا موفورين لم يكلم أحد منهم كلما . فلو أن إمرأ مسلماً مات من هذا أسفاً ما كان عندى فيه ملوماً بل كان به عندى جديراً . واعجبا كل العجب ، عجب يميت القلب ويشغل الفهم ويكثر الأحزان من تضافر هؤلاء القوم على باطلهم وفشلكم عن حقكم حتى أصبحتم غرضاً ترمون ولا ترمون ويغار عليكم ولا تغيرون ويعصى الله عز وجل فيكم وترضون، إذا قلت لكم: اغزوهم فى الشتاء . قلتم : هذا أوان قر وصر ــ القر بالضم: البرد وكذا الصر بالكسر ــ وإن قلت لكم : اغزوهم فى الصيف قلتم : هذا حمارة القيظ ــ القيظ : الصيف وحمارته اشتداد حره ــ أنظرنا ــ أخرنا ــ ينصر الحر عنا فإذا كنتم من الحر والبرد تفرون فأنتم والله من السيف أفر . يا أشباه الرجال ولا رجال ويا طغام الأحلام ــ الطغام من لا عقل له ولا معرفة ــ ويا عقول ربات الحجال ،والله لقد أفسدتم على رأيى بالعصيان ،ولقد ملأتم جوفى غيظاً حتى قالت قريش : إن ابن أبى طالب رجل شجاع ولكن لا رأى له فى الحرب ، لله درهم ومن ذا يكون أعلم بها منى أو أشد مراساً بها ــ المراس : المعالجة ــ فوالله لقد نهضت فيها وما بلغت العشرين ولقد نيفت اليوم على الستين ولكن لا رأى لمن لا يطاع ــ يقولها ثلاثاً .

وخطاب الطلب والوصية :

خطب الطلب هى ما يلتمس بها الخطيب خيراً لنفسه أو لغيره والطريقة المثلى فى خطب الطلب أن تعد نفس المنعم لقبول الطلب باستعطاف قلبه ثم تعرض المطلوب مبيناً أسبابه وصلاحيته وقدرة المخاطب عليه ثم تختم بالشكر للنعم مع الثناء والرجاء من الله تعالى أن يكافئه على حسن صنيعه ، مثالها : الخطب التى تقال لمساعدة البائسين وإعانة المنكوبين بحرب أو حريق وفك الأسرى وفى الخطوب العامة .

ومن الأمثلة الحسنة فى الطلب ما قاله بعض الأدباء يستعطف أحد الأمراء : إليك يا من استأثر النفوس بكرمه واسترق الأحرار بجميل صنعه أرفع خطاباً

تبعثه إلى ناديك عوامل الحاجة، وتسديه إلى ساحتك دواعى الشدة مؤملا أن يكون تذكرة بأمرى والذكرى تنفع المؤمنين فقد كان سيدى رفع الله قدره وأعلى قرنه وعدنى، ومثله من يتمسك من الوفاء بالعروة الوثقى — العروة: الحبل الوثيق المحكم — ويقطع حبل الإخلاف بسيف الوفاء ويطرز خلعة الوعد بوشى العطاء، أن يرسل إلى من خيراته ويولينى من آلائه وحسناته ما أشد به أزرى على الزمان وأطاول به نوائب الحدثان فقد بارزنى الدهر بسيوفه ورمانى بسهامه وأناخ على بكلاكله — جماعاته — وقد طال الأمر على حاجتى عند سيدى أطال الله بقاءه حتى طار غراب شبابها وصاح بجانب ليلها فخفت أن تكون هبت عليها ريح النسيان وعصفت بها عاصفة الحدثان فكتبت لسيدى ومولاى تلك الرقعة أستعجل بها بره وأستدر بها ضرع عطائه علماً بأن التعجيل يكبر العطية وإن كانت صغيرة ويكثرها وإن كانت يسيرة فعسى أن يكون قد لاح نجم النجاح وهب نسيم الفلاح فيرسل سيدى إلى سحاب كرمه ويمطرنى من غياث فضله فترف غصون آمالى بعد ذبولها وتضحك وجوه مطالبى بعد عبوسها وأملى فى ذلك فسيح، فإن سيدى من أكرم الناس نسباً وأشرفهم حسباً، ومثله جدير بحفظ العهد وإنجاز الوعد، فإن رأى سيدى أن يخفف ثقل الحاجة عنى ويرد ما سلبه الدهر منى بقطرة من بحر عطائه ومنة من بعض آلائه ويجبر ما كسره الدهر من جناحي ويرد عنى النوائب التى لا تفتأ تتولانى عقدت لسانى على مدحه ووقفت نفسى على شكره، فيحرز من الله أجراً جزيلا، ومنى شكراً جميلا، إن شاء الله تعالى.

والوصية:

التقدم إلى الغير بما يعمل به مقترناً بوعظ وتطلق على الأمر ومنه قوله تعالى: «**يوصيكم الله فى أولادكم**»(١) أى يأمركم، والنصح قريب منها فهو أن تسترعى من تشفق عليه لأمر يرجى نفعه أو تصرفه عن عمل يخشى ضره أو هو تحرى الصلاح والخير للمنصوح له والإخلاص فيه قولا وعملا من قولهم: ناصح العسل: لخالصه المصطفى منه فهو كما ترى من الدقة بحيث تجب العناية

---

(١) سورة النساء الآية: ١١.

باختيار معانيه واصطفاء مبانيه ، والمنهاج العلمى للوصية ما يأتى :

الأول : أن يبين للمنصوح ما حبب إليه نصحه وحمله على الاهتمام بشأنه من قرابة أو مودة أو أصل كريم وما إلى ذلك مما يراه يفسح صدره لقبول نصحه ، ويستدرجه للعمل بوصيته ، ويوضح له مع ذلك ثقته بولائه واعترافه بسداد رأيه ، وسلامة عقله .

الثانى : ذكر النصيحة برفق ولين خالية من التشهير به أو التعنيف له ومقرونة ببيان ما يعود عليه من الربح إن عمل بقوله ، وما يلحقه من الخسارة إن أعرض عن الأخذ برأيه ، فذلك خير طريق لإغرائه للخير وتحذيره من الشر .

الثالث : ذكر حق الطاعة إن كان أباً وحق الثقة إن كان أكبر سناً أو أكثر تجربة ، فإن العاقل يستضىء بمشكاة ذوى الخبرة بالأمور والتجربة للأيام .

وبالإخلاص فى الوصية يجره إلى الخير إن كان عنه راغباً ، ويشجعه فى الثبات عليه ، والمزيد منه إن كان فاعلا .

ومن أجود خطب الوصية ما قاله أبو بكر الصديق رضى الله عنه لأحد قواد جيشه : إذا سرت فلا تعنف أصحابك فى السير ، ولا تغضبهم وشاور ذوى الآراء منهم واستعمل العدل وباعد عنك الجور ، فإنه ما أفلح قوم ظلموا ولا نصروا على عدوهم : **« يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً فلا تولوهم الأدبار . ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفاً لقتال أو متحيزاً إلى فئة فقد باء بغضب من الله »**(١) .

وإذا نصرتم عليهم فلا تقتلوا شيخاً ولا امرأة ولا طفلا ولا تحرقوا زرعاً ولا تقطعوا شجراً ولا تذبحوا بهيمة إلا ما يلزمكم للأكل ولا تغدروا إذا هادنتم ولا تنقضوا إذا صالحتم ، وستمرون على أقوام فى الصوامع رهبان ترهبوا لله فدعوهم وما انفردوا إليه وارتضوه لأنفسهم ، فلا تهدموا صوامعهم ولا تقتلوهم والسلام . وهى كما ترى برهان واضح على سماحة الدين الإسلامى

(١) سورة الأنفال الآية : ١٥ ، ١٦ .

ورحمته وبره حتى بخصومه . ومن رسالة لعمر بن الخطاب رضى الله عنه إلى سعد بن أبى وقاص قائده الذى وجهه إلى فتح فارس : أما بعد : فإنى أوصيك ومن معك من الأجناد بتقوى الله فى كل حال فإن تقوى الله أفضل العدة على العدو وأقوى المكيدة فى الحرب ، وأن تكون أنت ومن معك أشد احتراساً من المعاصى منكم من عدوكم فإن ذنوب الجيش أخوف عليهم من عدوهم ، وإنما ينصر المسلمون بمعصية عدوهم لله ، ولولا ذلك لم تكن لنا بهم قوة لأن عددنا ليس كعددهم ولا عدتنا كعدتهم فإن استوينا فى المعصية كان لهم الفضل علينا فى القوة وإن لم ننصر عليهم بطاعتنا لم نغلبهم بقوتنا . واعلموا أن عليكم فى سيركم حفظة من الله يعلمون ما تفعلون فاستحيوا منهم ولا تعملوا بمعاصى الله وأنتم فى سبيل الله ، واسألوا الله العون على أنفسكم كما تسألونه النصر على عدوكم . وأقم بمن معك فى كل جمعة يوماً وليلة حتى تكون لهم راحة يحيون فيها أنفسهم ويرمون أسلحتهم وأمتعتهم ، ونح منازلهم عن قرى أهل الصلح والذمة فلا يدخلها من أصحابك إلا من تثق به ، وليكن منك عند دنوك من أرض العدو أن تكثر الطلائع وتبث السرايا بينك وبينهم ، ثم أذك أحراسك على عسكرك وتيقظ من البيات جهدك ، والله ولى أمرك ومن معك وولى النصر لكم على عدوكم .

ولما وجه أبو بكر رضى الله عنه زيد بن أبى سفيان إلى الشام شيعه راجلا فقال له إما أن تركب وإما أن أنزل فقال : ما أنت بنازل وما أنا براكب إنى أحتسب خطاى هذه فى سبيل الله ثم قال له : إنى موصيك بعشر : لا تغدر ولا تمثل ولا تقتل هرماً ولا امرأة ولا وليداً ولا تعقرن شاة ولا بعيراً إلا ما أكلتم ولا تحرقن نخلا ولا تخربن عامراً ولا تغل ولا تجبن — يقال غل شيئاً من المغنم يغل بالضم غلولا أخذه خفية وأغل إغلالا مثله — وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول عند عقد الألوية : بسم الله وبالله وعلى عون الله امضوا بتأييد الله وما النصر إلا من الله والزموا الحق والصبر ولا تمثلوا ولا تقتلوا امرأة ولا وليداً وتوقوا قتلهم إذا التقى الزحفان وعند شن الغارات . فانظر إلى رفق الإسلام ورحمته بخصومه حتى فى مواطن البأس وجهاد الأعداء .

ومن كلام سيدنا على رضى الله عنه فى النصح : إنما المرء فى الدنيا غرض

تنتضل فيه المنايا ونهب للمصائب وفى كل أكلة غصص ومع كل جرعة شرق، ولا ينال العبد فيها نعمة إلا بفراق أخرى، ولا يستقبل يوماً من عمره إلا بهدم آخر من أجله فنحن أعوان الحتوف وأنفسنا تسوقنا إلى الفناء وهذا الليل والنهار لم يرفعا من شيء شرفاً إلا أسرعا الكرة فى هدم ما بنيا، وتفريق ما جمعا ، فاطلبوا الخير وأهله ، واعلموا أن خيراً من الخير معطيه وشراً من الشر فاعله.

ومن كلام الأحنف بن قيس التميمى وهو من أبلغ الوصايا وأحكم النصائح قال بعد أن حمد الله وأثنى عليه : إن الكريم يمنع الحريم ، وما أقرب النقمة من أهل البغى ، لا خير فى لذة تعقب ندماً ، لن يهلك من قصد ، ولن يفتقر من زهد ، ورب هزل قد صار جداً ، من أمن الزمان خانه ، ومن تعظم عليه أهانه ، دعوا المزاح فإنه يورث الضغائن. وخير القول ما صدقه العمل ، احتملوا لمن أدل(١) عليكم ، واقبلوا عذر من اعتذر إليكم ، أطع أخاك وإن عصاك ، وصله وإن جفاك. انتصف من نفسك قبل أن ينتصف منك، وإياكم ومشاورة النساء ، واعلم أن كفران النعمة لؤم ، وصحبة الجاهل شؤم ، ومن الكرم الوفاء بالذمم ، ما أقبح القطيعة بعد الصلة والجفاء بعد اللطف ، والعداوة بعد الود ، لا تكونن على الإساءة أقوى منك على الإحسان ، ولا إلى البخل أسرع منك إلى البذل ، واعلم أن لك من دنياك ما أصلحت به مثواك ، فأنفق فى حل ولا تكونن خازناً لغيرك ، وإذا كان الغدر فى الناس موجوداً فالثقة بكل أحد عجز ، اعرف الحق لمن عرفه لك ، واعلم أن قطيعة الجاهل تعدل صلة العاقل.

وصية بعض نساء العرب لابنها وقد أراد سفراً :

قال أبان بن تغلب وكان عابداً من عباد أهل البصرة : شهدت أعرابية توصى ولداً لها وقد أراد سفراً وهى تقول : أى بنى اجلس أمنحك وصيتى وبالله توفيقك، فإن الوصية أجدى عليك من كثير من عقلك. قال أبان: فوقفت مستمعاً لكلامها مستحسناً لوصيتها فإذا هى تقول : أى بنى إياك والنميمة ،

---

(١) أجترأ والدلال الجرأه فى تكسر يكون من المرأة .

فإنها تزرع الضغينة ، وتفرق بين المحبين ، وإياك والتعرض للعيوب فتتخذ غرضاً ، وخليق ألا يثبت الغرض على كثرة السهام ، وقلما اعتورت السهام غرضاً إلا كلمته حتى يهيئ ما اشتد من قوته ، وإياك والجود بدينك والبخل بمالك . وإذا هززت فاهزز كريماً يلن لهزتك ، ولا تهزز اللئيم فإنه صخرة لا ينفجر ماؤها . ومثل لنفسك مثال ما استحسنت من غيرك فاعمل به ، وما استقبحت منه فاجتنبه، فإن المرء لا يرى عيب نفسه، ومن كانت مودته بشره ، وخالف ذلك منه فعله كان صديقه منه على مثل الريح فى تصرفها .

ثم أمسكت ، فدنوت منها فقلت : بالله يا أعرابية إلا زدته فى الوصية ؟ فقالت : أو قد أعجبك كلام العرب يا عراقى ؟ ! . قلت : نعم . قالت : والضرر أقبح ما تعامل به الناس بينهم ، ومن جمع بين الحلم والسخاء فقد أجاد الحلة : ريطتها وسربالها . الريطة : الملاءة إذا كانت قطعة واحدة ، والسربال : القميص .

وأوصى أعرابى أخاً له وقد أراد سفراً فقال : « آثر بعملك معادك ، ولا تدع لشهوتك رشادك ، وليكن عقلك وزيرك الذى يدعوك إلى الهدى ، ويعصمك من الردى ، وألجم هواك عن الفواحش وأطلقه فى المكارم فإنك تبر بذلك سلفك وتشيد شرفك، وابذل المودة الصادقة تستفد إخواناً، وتتخذ أعواناً ، فإن العداوة موجودة عتيدة ، والصداقة متعذرة بعيدة ، وجنب كرامتك اللئام، فإنك إن أحسنت إليهم لم يشكروا، وإن نزلت شديدة لم يصبروا » . آثره على نفسه قدمه والرشد: الصلاح — خلاف الغى والضلال — وهو إصابة الصواب والاسم : الرشاد ، ويعصمك: يحفظك ، وبذله بذلا من باب قتل سمح به ، وعتيدة حاضرة .

وخطب التوصية والشفاعة :

التوصية : طلب الخير للغير كالشفاعة ومناهجها ما يأتى :

الأول : أن يذكر ما للمطلوب منه من لطيف الشمائل وكريم السجايا والفضائل وصنائع المعروف فى مواطنه والعطف على الناس فى مواضعه وإنه فى الفضل لا يجارى وفى علو الهمة لا يسامى حتى بلغت كعبه فى المكرمات حيث لا تبلغ الآمال ونال الناس من جميله غاية لا تنال .

الثانى : بيان ما بينه وبين الموصى من ثابت الولاء وصادق الإخاء وعظم الثقة بنيل المبتغى وقبول الرجاء حتى يخف للإجابة وينشط لقضاء الحاجة .

الثالث : بيان أسباب العناية بالموصى به من لحمة قرابة أو حبل صداقة أو محض مكرمة ومن خلاله التى تؤهله للنعمة المطلوبة من حسن سيرته وصدق أمانته واستقامته وإخلاصه واحتياجه إلى الالتفات إليه ومد يد المساعدة له وما إلى ذلك مما يقبل سبباً للعناية به .

الرابع : ختمها بالشكر الدائم لمعروف المنعم من قبله وقبل الموصى به والدعاء له .

وخطب الشفاعة هى التى يستجلب بها الخطيب رضا المخاطب ويسأله التجاوز والصفح عن ذنب المسىء إليه، وأقوم طريق لخطيب الشفاعة أن يتخذ الشفيع كل الوسائل لإخماد نار الغضب عند من حاول استعطافه، ويفتتح كلامه بالإقرار بالذنب، ثم يتدرج إلى طلب الصفح عن المسىء إما ببيان جهله وخطئه وإما بذكر ما نزل به من العقاب أو التوبيخ بسوء فعله مع أسفه وندمه على ما اجترحه، ثم يذكر ما فى التجاوز عن إثم المسىء من الكرم وحسن الذكرى وجميل الجزاء فى الدارين ، ويختم بوعد الشكر المؤبد لمن يصفح عن الإساءة .

* * *

النوع الرابع
الخطابة القضائية

وهى التى يلقيها رجال المحاماة أمام المحاكم القضائية أهلية كانت أو شرعية أو المجالس الحسبية وكذا ما يلقيه رجال النيابة أمام القضاء لإدانة الجناة .

والمحاماة هى دفع الأذى . والإنسان مجبول بفطرته على دفع الأذى عن نفسه ولكنه قد يعجز عن ذلك لعدم علمه بوسائل الدفاع مثلا وحينئذ يجب وجوب كفاية على أهل المحاماة أن يقوموا بالدفاع عن ذلك العاجز فإذا قام به واحد منهم سقط الطلب عن الباقين . ولما كان اتساع العمران وكثرة السكان واختلاف صور المعاملات يقضى بتخصص بعض الطوائف فى دراسة الحقوق وطرق المطالبة بها والدفاع عنها كان طبيعياً أن يلتجئ أولئك الضعفاء إلى من انقطعوا لدراسة الحقوق ، فالباعث إذن على مزاولة مهنة المحاماة نزعة شريفة إلى الدفاع عن المظلومين وإقامة العدل ونصرة الحق وهذه النزعة لا تؤتى ثمارها الطيبة إلا بدراسة الحقوق وتطبيقها على الوقائع تطبيقاً صالحاً صائباً ، وكلا الأمرين لا غنى له عن الآخر . فدراسة الحقوق لا تؤهل الإنسان للمحاماة إذا كان مجرداً عن هذه النزعة كما أن هذه النزعة وحدها لا تجعل من الإنسان محامياً إذا لم يكن محيطاً بالحقوق وطرق المطالبة بها والدفاع عنها علماً وعملا فالمحامى قبل كل شيء نصير المظلوم ثم هو بعد ذلك الرجل القانونى الذى يستطيع أن ينتصر لذلك المظلوم انتصاراً مفيداً ، وعلى هذا الأساس يجب أن يفهم الناس وظيفة المحاماة .

ولما كان رأس مال المحامى هو ثقة الناس به كان لسلوكه الشخصى تأثير كبير فى نجاحه وفى أعماله وإقبال الناس عليه بأن يكون عفيفاً صادقاً أميناً ذا نشاط وإخلاص وإذا كان التحلى بمكارم الأخلاق واجباً على كل إنسان فهو على المحامى أوجب وله ألزم وأى محام لم يعمل على كسب الثقة به وكان سيء السلوك قبيح الأخلاق فقد ساء عيشه وضاع مستقبله . وعلى المحامى إذا

حضر لديه صاحب القضية أن يفسح له صدره لسماع أقواله من غير ملل ولا ضجر وقد يكون مع صاحب القضية قريب أو صديق أو عدو لخصمه ليقوم مقامه فى إبداء معلوماته وشرح أحوال القضية للمحامى . فواجب المحامى عندئذ أن يسمع القضية من صاحبها نفسه ليرسل الكلام على سجيته بدون تصنع ومن غير لف وكذب وتدليس فإن ذلك أدنى أن لا يغش المحامى فى تقدير مركز طالب التوكيل والوقوف على حقائق القضية وليوجه كل عنايته إلى الوقوف منه على الوقائع الصحيحة للدعوة بغاية الدقة فإنه بذلك يتمكن من إبداء رأيه فى القضية على الوجه الصحيح ، فإن تبين له أن صاحب القضية ليس محقاً فيما يدعيه وجب له أن ينصح له بالعدول عنها مبيناً وجوه الضرر فى استرساله فى الخصومة وما يجره عليه ذلك من خسارة القضية وضياع المال ومرارة الحكم عليه وقبح السير فى طريق الباطل . فإذا نجح فى إقناع المبطل ورده عن باطله فقد غنم .

أولا : راحة ضميره بقطع الخصومة بين طرفين.

ثانياً : ثقة صاحب القضية الذى اقتنع ببطلان دعواه فرجع وهو يحمد الله على توفير المال والكرامة .

ثالثاً : حسن الذكرى وجميل الأحدوثة حتى يعرف الناس له ذلك وأنه رجل الحق لا عبد المادة . ورب قضية رفض المحامى قبولها كان هذا الرفض النزيه سبباً فى ورود قضايا كثيرة عليه يربح فيها أضعاف ما كان يربحه من التى رفضها لو قبلها فإن الله لا يضيع أجر المحسنين . إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون . أما إذا علم المحامى أن صاحب القضية محق فيها واطمأنت بذلك نفسه فليأخذ بيده فى ضوء الحق إلى ساحة العدل وليقف بجانبه منتصراً لحقه مناضلا عنه بكل ما استطاع من قوة ، ويكون عمله هذا شريفاً موفقاً مباركاً . وعليه إذا قبل القضية أن يبدأ فوراً بتحضيرها فيدون وقائعها ويرسم خطة الدفاع فيها ويستوفى المستندات التى تؤيد هذا الدفاع ويبحث المواد القانونية التى تقوى مركزه فى الخصومة .

وليعلم أن أوقاته قد تعلق بها حق موكليه جميعاً فإذا كان عنده من القضايا ما يشغل كل أوقاته امتنع عليه أن يقبل قضايا جديدة لا يتسع لها وقته لأنه

إما أن يهملها وإما أن يأخذ لها من الوقت اللازم للعناية بالقضايا التى قد ارتبط بها فعلا قبل ذلك . وفى كلا الأمرين إخلال بواجبه نحو موكليه قد يؤدى إلى الإخلال بالثقة به .

وعليه أن يعمل على كسب ثقة المحكمة به فلا يترافع فى قضية إلا بعد الإحاطة بموضوعها تمام الإحاطة، وبعد أن يستجمع نقط الدفاع فيها ويستحضرها استحضاراً يصون موقفه عن الاضطراب والشطط والحشو والتكرار، وأن يعبر عن أفكاره بعبارة واضحة منزهاً آراءه عن سماجة المكابرة، ولسانه عن دنس المهاترة ، مراعياً كرامة المهنة ، وحرمة القضاء .

وعليه أن يكون مساعداً للقاضى ومعيناً له على إنجاز العمل وتعرف وجه الحق والصواب وإصدار حكمه بالعدل ، وأن يشعره بالفعل أن ينتصر للحق ويعمل على إنصاف المظلوم فذلك أدعى إلى استرعاء سمع القضاء واهتمامه بأقواله واحترامه لرأيه مهما كان مخالفاً . وليس كسب ثقة المحكمة بالتساهل فى التمسك بحقه وحق موكله بل إن هذا التمسك واجب لا محيص منه تقتضيه الأمانة . وعليه أن يحافظ على كرامة زملائه وكسب ثقتهم بأن يحسن الاستماع إليهم وينزه لسانه وقلمه عن العيب فيهم بما يستفزهم، فإن كرامته من كرامتهم وعزته من عزتهم .

وصفوة القول : أن الباعث على مزاولة هذه المهنة نزعة شريفة إلى نصرة الحق والدفاع عن المظلومين ولن تصل هذه النزعة إلى غايتها إلا بأن يكون صاحبها عالماً بالحقوق التى يريد أن ينتصر لها بارعاً فى أساليب المطالبة بها أو الذود عنها، واسع الاطلاع لا سيما فى هذا العصر، فإن اتساع ميدان العمل أخرج المعيشة عن حالتها البسيطة وولد فى المعاملات الاجتماعية وعلائق الناس بعضهم مع بعض حقوقاً جديدة وأحدث مشاكل لم تكن معروفة وجعل موقف القضاء أشد حرجاً وأكثر غموضاً ، وإن من الخطر على الحق والعدالة أن يكون المقصود منها الحصول على المادة فحسب لأنها حينئذ قد تنقلب إلى شىء آخر تنكره المهنة نفسها هو إعانة الظالمين ، وأكل أموال المظلومين .

وأن حياة المحامى منوطة بحسن سيرته ونزاهته واستقامته ونشاطه ، وأن يقف بنفسه على وقائع الدعوى من صاحبها نفسه بكل دقة وعناية، ثم إن رآها

عادلة وترجح عنده صحتها قبلها وإلا رفضها ونصح لصاحبها بالعدول عنها إلى الصلح مع الخصم مهما كانت قيمتها ، وأن يكون معتدلا فى تقدير مقابل العمل مراعياً كرامة المهنة ، وأن يعنى بتحضير القضية والاستعداد لها بكل الوسائل الكفيلة بكسبها وكسب ثقة القضاء به ، وأن يشعر منه القضاء أنه يساعده على الوصول إلى الحق والعدل ، وأن يعمل على إنجاز القضية فى أقرب الأوقات ما أمكن ، وأن يحسن اختيار المعروفين بالكفاءة والأمانة من الكتبة له ، ومدار مهمة رجال النيابة على اليقظة والمهارة فى تطبيق الحوادث على مواد القانون ، وأمرها خطير لتعلقها بالدماء وحفظ الأموال وحفظ الأمن العام ، وعلى الجملة فلا نفيض القول فى هذا النوع فإنه كما تعلم قد انفرد به طائفة معروفة ،وفيما ذكرنا هنا، وفى كتاب الإبداع فصل المعاشرة والعادات كفاية وبالله تعالى التوفيق والهداية .

* * *

النوع الخامس
الخطابة الدينية

قد عرفت أن الوعظ الديني نوع من الخطابة العامة وفن من فنونها إلا أنه يتميز عن باقى أنواعها بشروط خاصة وطرق معينة وإن كان كل نوع من الأنواع المتقدمة كذلك . شأن الأنواع المندرجة تحت جنس واحد والقدر المشترك الذى بيناه فى أصول الخطابة يغنى الخطيب إذا دعته الحاجة إلى مباشرة أى نوع من أنواعها . ونحن قدمنا الكلام على الوعظ والإرشاد اهتماماً بشأنه لأن الحاجة إليه أشد، والمزاولة له أكثر ، وذكرناه فى كتاب الهداية فى فصول على حدة بينا فيها مبادئه وما ينبغى أن يكون عليه المرشد من الصفات الحميدة والآداب الكمالية والطرق التى يسلكها فى إرشاد الخلق إلى الحق وما إلى ذلك مما تقدم فى ذلك الكتاب، ولتمام الفائدة فى فن الوعظ والإرشاد نقول : غير خاف عليك أن مصادر الوعظ والإرشاد وينابيعه الصافية هى الكتاب والسنة ثم خلاصة أفكار ذوى النفوس العالية التى لا تخرج عنهما ، فإن كل ما تراه من طرق الوعظ إنما هو معانى الكتاب والسنة تكيفها العقول بكيفيات مختلفة بالتصريح أو الاستنباط ، وأن أجود الناس فى هذا التكييف والإبداع هم الكملة من حملة الشريعة والأخلاق ، ولذلك كان المتحققون من الصوفية هم أكثر الناس أثراً فى هذا المقام ، وبقدر ما يكون اقتراب المعنى الإرشادى من الكتاب والسنة يكون نفوذه إلى القلوب وتأثيره فى النفوس وتلقى العقول له بالقبول . ومن هذا تعلم سر إعجاز القرآن الكريم ، وأنه جاء بأبلغ الأساليب وأعجز العالم بلفظه ومعناه ومتانة أسلوبه ووقوفه على أحوال البشر جليها وخفيها، واستقصائه أمراض النفوس ظاهرها وباطنها، لأن منزله هو الخالق لكل شىء ، والعالم بكل شىء ، فقرع ببليغ حكمه وحكيم وعظه النفوس العاتية وقهر بقوة سلطانه القلوب القاسية بالكفر والعناد والأنفة والكبرياء ، وأمر عباده الصالحين الداعين إليه أن يصلحوا به أمر العباد بتصحيح العقائد وإصلاح

الأعمال وتهذيب النفوس وتنظيم شئون الاجتماع ، فمن فتح قلبه لهدايته وكان على استعداد تام للتأثر به كفاه فى الرجوع إلى الله تعالى استماعه له بسلامة ذوقه وفطرته ، فسليم الفطرة والذوق يكفيه أقل منه إذا عرضت له الغفلة شأن الإنسان الحى فكيف بأعظم هاد وأكبر مؤثر ، ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين . لذلك كانت الخطابة وأساليب الوعظ فى الصدر الأول تدور حول الكتاب والسنة لا غير .

ولما تراجع الذوق العربى فى المسلمين وكثرت الأمراض النفسية أخذ الخطباء والوعاظ يتصرفون فى أساليب الوعظ بما يؤثر فى السامعين حسب أحوالهم واستعدادهم ، والكل مرجعه الكتاب والسنة سواء فى ذلك المسائل الاعتقادية أو العملية أو الخلقية أو الاجتماعية ، وكل ذلك نتيجة تولد الأفكار الراقية المهذبة . ومن هذا يتبين لك فضل رسول الله (صلى الله عليه وسلم) على سائر الخلق ، وأنه إنما أرسل رحمة للعالمين ، وفضل القرآن لأنه هدى وشفاء بخلاف الكتب السماوية السابقة عليه ، إذ لو جاءت بهذا الإعجاز لما ظهر أمام العقول فضل لهذا الكتاب ولا لمبلغ هذا الكتاب ، وستعلم إن شاء الله تعالى عند مرورك على خطب رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، والخلفاء الراشدين والتابعين لهم بإحسان ما يزيدك إيماناً بهذا القول . فإنك إذا نظرت إلى خطب رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، وهى قليلة موجزة جداً نجدها دائرة حول التوحيد وتصحيح العقائد ، ونبذ البدع المستهجنة ، وترك العادات المتحكمة الضارة بنظام العالم ، والتى كان لها السلطان الأعلى على نفوس الجاهلية .

أما بقية كلامه ، صلى الله عليه وسلم ، فكان يدور حول تقرير الشرع وتبيين الحلال والحرام والحث على مكارم الأخلاق التى لم يعلموها ولم يتعودوها ، ولكل كلام مقتضيات دعت إليه . فإن الكتب كانت تبعث إلى الكفار لدعوتهم إلى التوحيد وأمهات الفضائل العامة التى لا يختلف فيها العقلاء .

وبعد أن دخل الناس فى دين الله أفواجاً وأشربوا فى قلوبهم حبه والتفانى فيه والغيرة عليه لم تكن مهمته معهم إلا بيان ما شرع الله من الحلال والحرام وإسداء النصيحة واقتلاع العادات المتحكمة فيهم مخافة أن تهيج عليهم ، وكان

اقتداؤهم به ، صلى الله عليه وسلم ، وإخلاصهم فى محبته حاجزاً منيعاً من تمرد نفوسهم خصوصاً بعد العلم اليقينى بصحة دعواه والإيمان الكامل بصدق رسالته . كذلك كان شأن الخطب الدينية يبين فيها ما تدعو إليه الحاجة من الأحكام التشريعية والحوادث الاجتماعية مع التذكير بالله واليوم الآخر ليصابروا على مشاق الجهاد واحتمال مكائد الأعداء لإعلاء كلمة الله والمحافظة على دينه القويم . ولذلك كانت نفوسهم متشوقة للشهادة زاهدة فى الدنيا راغبة فى لقاء الله تعالى . كذلك كان شأن أبى بكر وعمر وعثمان رضوان الله عليهم لم تتغير فى عصرهم أساليب الوعظ والخطابة بعد رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، إلا فى أحوال خاصة قليلة دعت إليها الحاجة كخطبهم فى أول بيعتهم لأن لذلك شأناً خاصاً يدعو إلى الاختلاف وككلام أبى بكر رضى الله عنه مع أهل الردة ، وهكذا من الأحوال التى حدثت فى المسلمين ، ولم تكن على عهد رسول الله ، صلى الله عليه وسلم . ولذلك كانت خطبهم فى الأحوال الخاصة قليلة جداً .

بخلاف الإمام على رضى الله عنه وكرم الله وجهه فإنه خطب فى فنون مختلفة لأن الفتن كثرت بعد قتل عثمان ، رضى الله عنه ، كما سبق وكان التنازع فى الخلافة شديداً لذلك أكثر من الكلام فى الجهاد وذم المنافقين والمنشقين وأهل العصيان ، وتكلم فى الوعظ وأكثر من ذم الدنيا والتحذير منها ، كأنه رضى الله عنه أحس أن سبب هذه الانقلابات حب الدنيا والغفلة عن الله تعالى ، فكان يعظ الناس بحسب أحوالهم وما هم عليه من الأخلاق والأهواء .

وأن علياً كرم الله وجهه أول من تفنن فى أساليب الوعظ ووسع مادته ، وكل ذلك نتيجة الانفعالات النفسية الحقة والاحتكاكات الفكرية الصادقة التى أوجبت تلك الحكم البالغة الملتقطة من ينابيع الكتاب والسنة وقضايا العقل الصحيح ، وقد ساعد على إبرازها عوامل الفساد المنتشرة فى المسلمين يومئذ ، وقد كبر عليه ذلك وعظم لديه خصوصاً فى شباب الإسلام وفى عصر الصحابة الذين اهتدوا بهدى رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، واستناروا بنوره ، وأن أكثر مادة يستمد منها الخطيب بعد الكتاب والسنة خطب الإمام على ، رضى الله عنه ، وحكمه البالغة .

وصفوة القول أن الخطابة الدينية الإسلامية ابتدأها رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، كما سبق ، واستمرت إلى يومنا هذا . وقد اشتهر فيها بعد الإمام على رضى الله عنه أبو يحيى عبد الرحيم الشهير بابن نباتة فى القرن الرابع ، وله ديوان خطب عنى بشرحه كثيرون ، واشتهر بعده الإمام ابن الجوزى عالم الآفاق وواعظ العراق ، وحجة الإسلام الغزالى ، وأبو القاسم الزمخشرى وله كتاب أطواق الذهب فى المواعظ والخطب ، وهؤلاء كانوا فى القرن الخامس ، ومن مشاهير العهد الأخير الشيخ عثمان الألوسى صاحب « غالية المواعظ » والشيخ شعيب صاحب « الروض الفائق » وغيرهم كثيرون .

أما الخطابة الإسلامية المدنية : فأول من توسع فيها الإمام على رضى الله عنه ، ثم بعض الخلفاء وعمالهم كمعاوية ويزيد ابنه والمنصور العباسى وزياد بن أبيه عامل معاوية على البصرة وعتبة بن أبى سفيان عامله أيضاً على البصرة والحجاج بن يوسف الثقفى عامل عبد الملك بن مروان على العراق وقتيبة بن مسلم عامل يزيد بن مروان على خراسان وبعض الخوارج كقطرى بن الفجاءة وأبى حمزة الشارى ، ولكل منهم خطب قليلة تروى فى كتب الأدب كالعقد الفريد ونهاية الأرب وصبح الأعشى وقد ألقاها أصحابها بداهة فهيجوا بها بعض الأهواء لاسيما الغضب والأنفة والخوف ، وسترى إن شاء الله تعالى نموذجاً من الخطب على اختلاف أنواعها فى كتابنا : « هداية المرشدين إلى طرق الوعظ والخطابة » ينفعك فى مهمتك — والله الموفق .

• • •

هدى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى خطبه

خطب صلوات الله وسلامه عليه على الأرض وعلى المنبر وعلى البعير وعلى الناقة، وكان قبل اتخاذ المنبر يخطب إلى جذع يستند إليه، ثم صنع له المنبر من طرفاء الغابة وكان ذا ثلاث درجات . وكان إذا خطب احمرت عيناه، وعلا صوته، واشتد غضبه كأنه منذر جيش يقول : صبحكم ومساكم ، ويقول : «بعثت أنا والساعة كهاتين» ويقرن بين أصبعيه السبابة والوسطى ويقول : «أما بعد فإن خير الحديث كتاب الله تعالى ، وخير الهدى هدى محمد ، صلى الله عليه وسلم ، وشر الأمور محدثاتها ، وكل بدعة ضلالة » وكان لا يخطب خطبة إلا افتتحها بحمد الله . وأما قول كثير من الفقهاء : إنه يفتتح خطبة الاستسقاء بالاستغفار وخطبة العيد بالتكبير فليس معهم فيه سنة عن النبي صلى الله عليه وسلم البتة ، وسنته تقتضى خلافه وهو افتتاح جميع الخطب بالحمد لله وهو أحد الوجوه الثلاثة للإمام أحمد، وهو اختيار الحافظ بن تيمية رحمه الله . وكان يخطب قائماً، وكان إذا صعد على المنبر أقبل بوجهه على الناس ثم قال : السلام عليكم . وكان أبو بكر وعمر يفعلان ذلك ، وكان فى خطبته يتشهد بعد الحمد والثناء ويذكر فيها نفسه باسمه العلم ، وصح عنه أنه قال : «كل خطبة ليس فيها تشهد فهى كاليد الجذماء» — المقطوعة —، وكان يقول بعد الثناء والتشهد : أما بعد ، وكان يختم خطبته بالاستغفار ، وكان كثيراً ما يخطب بالقرآن ، وفى صحيح مسلم عن أم هشام بنت حارثة قالت : « ما أخذت ق والقرآن المجيد إلا عن لسان رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، يقرؤها كل يوم جمعة على المنبر إذا خطب الناس ، وكان مدار خطبه على حمد الله والثناء عليه بآلائه وأوصاف كماله ومحامده وتعليم قواعد الإسلام وذكر الجنة والنار والمعاد والأمر بتقوى الله وتبيين موارد غضبه ومواقع رضاه ، وكان يقول فى خطبه : « أيها الناس إنكم لن تطيقوا، أو لن تفعلوا كل ما أمرتم به ولكن سددوا وأبشروا » وكان يخطب فى كل وقت بما تقتضيه حاجة المخاطبين ومصلحتهم ، وكان إذا عرض له فى خطبته عارض اشتغل به ثم رجع إلى خطبته

جاء سليك الغطفانى، وهو يخطب، فجلس فقال له: قم يا سليك فاركع ركعتين وتجوز فيهما، ثم قال وهو على المنبر: « إذا جاء أحدكم يوم الجمعة والإمام يخطب فليركع ركعتين وليتجوز فيهما » ونهى المتخطى رقاب الناس عن ذلك وأمره بالجلوس، وكان يدعو الرجل فى خطبته: تعال اجلس يا فلان، وكان يأمر الناس بالدنو منه والإنصات ويخبرهم أن الرجل إذا قال لصاحبه: انصت فقد لغا – عدل عن الصواب – واللغو الساقط من القول وكل ما لا فائدة فيه، ويقول: من لغا فلا خطبة له، وكان يأمر بمقتضى الحال فى خطبته فإذا رأى منهم ذا فاقة أمرهم بالصدقة وحضهم عليها، وكان يمهل يوم الجمعة حتى يجتمع الناس، فإذا اجتمعوا خرج إليهم وحده من غير شاوش يصيح بين يديه إذا خرج من حجرته فإذا دخل المسجد سلم عليهم فإذا صعد المنبر استقبل الناس بوجهه وسلم عليهم، ثم يجلس ويأخذ بلال فى الآذان فقط ولم يقل شيئاً قبله ولا بعده، فإذا أخذ فى الخطبة لم يرفع أحد صوته بشىء البتة لا مؤذن ولا غيره، وكان إذا قام ليخطب أخذ عصاً فتوكأ عليها، وهو على المنبر، كذا ذكره عنه أبو داود عن ابن شهاب، وكان الخلفاء الثلاثة بعده يفعلون ذلك، وكان أحياناً يتوكأ على قوس ولم يحفظ عنه أنه اعتمد على سيف البته، وما يظنه بعض الناس أنه كان يعتمد على السيف دائماً وأن ذلك إشارة إلى أن الدين إنما قام بالسيف فهو جهل قبيح من وجهين:

أحدهما: أن المحفوظ أنه، صلى الله عليه وسلم، توكأ على العصا وعلى القوس.

الثانى: أن الدين إنما قام بالوحى والحجة والبرهان، وأما السيف فلمحق أهل الضلال والشرك والقضاء على الفتنة ومدينة النبى، صلى الله عليه وسلم، التى كان يخطب فيها إنما فتحت بالقرآن ولم تفتح بالسيف، وكانت خطبته العارضة أطول من خطبته الراتبة، وكان يخطب للنساء على حدة فى الأعياد ويحرضهن على الصدقة، وكان يخطب فى الجمعة قائماً ووجهه قبل الناس، وكان بعد خطبته الأولى يجلس جلسة خفيفة ثم يقوم فيخطب الثانية فإذا فرغ أخذ بلال فى الإقامة، وكان فى العيدين يبدأ بالصلاة قبل الخطبة فيصلى أولا ثم يقوم مقابل الناس وهم جلوس على صفوفهم، فيعظهم ويوصيهم ويأمرهم

وينهاهم وإن كان يريد أن يقطع جيشاً قطعه أو يأمر بشيء أمر به،ولم يكن هناك منبر يرقى عليه،وإنما كان يخطبهم قائماً على الأرض خارج المدينة ، وكان يستسقى بهم إذا قحط المطر فى خطبته ، وكانت خطبه صلوات الله وسلامه بياناً لأصول الإسلام وأمهات الدين من الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وذكر الجنة والنار ولقاء الله تعالى وما أعده لأوليائه وأهل طاعته وما توعد به أعداءه وأهل معصيته فيملأ القلوب بخطبته إيماناً وتوحيداً ومعرفة بالله وأيامه، لا كخطب غيره التى لا تفيد إلا أموراً مشتركة بين الناس كالنوح على الحياة والتخويف بالموت فهذا لا يحصل فى القلوب إيماناً بالله ولا توحيداً ولا معرفة خاصة ولا تذكيراً بآياته ولا بعثاً للنفوس على محبته والشوق إلى لقائه، فيخرج السامعون ولم يستفيدوا سوى أنهم يموتون وتقسم أموالهم ، ويبلى التراب أجسامهم .

• • •

حال الخطب اليوم وما يجب أن تكون عليه

إذا تتبعت تاريخ الإسلام بعد القرون المشهود لها بالخير تجد الخطب الدينية فى كل دولة قد تراجعت إلى الوراء حتى صارت إلى ما هى عليه الآن من التأخر والانحطاط فإنها لما كانت بيد الملوك كان أكبر همهم حث الناس على السمع والطاعة لهم، والاستنهاض إلى محاربة الأعداء بحق أو بغير حق، وقل من ينظر منهم فى أحوال الناس وأمراضهم النفسية فيعظهم من ناحيتها ولما تركها الملوك والأمراء، لترفعهم أولغيره، ووكلوا أمرها إلى أئمة المساجد وساروا فيها على أهواء الملوك والأمراء «إلا من رحم الله» حتى سقطت فى تلك المهواة ووقعت فى أيدى من لا يجيدها ما عدا القليل من الخطباء الذين لم يبلغوا بها درجتها اللائقة بها ولم يكونوا كافين لقلتهم فى دعوة الناس إلى الله وإرشادهم إلى الحق، وأصبحت الخطب اليوم عبارة عن كلمات تحفظ وتلقى ومعظمها يدور حول الدنيا وذمها والتزهيد فيها والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر بعبارات مجملة لا تغنى من أمراض النفوس شيئاً ولا تصل إلى أعماق القلوب وبعضها يخلط الأوامر بالنواهى ويجمع بين أمور كثيرة لا يستوفى الكلام على واحد منها. فيحذر من ترك الصلاة وشرب الخمور والزنا والربا وما إلى ذلك من المنكرات كل ذلك فى خطبة واحدة. وما يسمعه الناس من الخطيب اليوم يسمعونه غداً وما يلقى فى هذا العام يدور فى العام القابل مع أن الواجب كما عرفت مراعاة الخطيب لمقتضى الحال، وإصلاح السامعين على قدر ما فيهم من الشر والفساد، لا فرق بين متعلم وجاهل وكبير وصغير وأمير ومأمور شأن الهداية بالقرآن وشأن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وأصحابه والتابعين، رضى الله عنهم أجمعين.

وحيث كان الغرض من الخطابة الدينية دعوة الناس إلى الهدى ودين الحق وإحياء الفضيلة. وإماتة الرذيلة وإصلاح فساد قلوبهم، وتطهيرهم من الأمراض النفسية والاجتماعية تعلم أن الخطب المحملة لا تفيد الجمهور شيئاً لأنها لم تلمس مواضع الداء، ولم تهتد إلى الدواء.

فمثل من يقول : إن المعاصى تزيل النعم،وإن التعلق بالدنيا مبعد من الله تعالى ، وقد استحق الناس العذاب لظهور الفساد فى البر والبحر ، ولو استقمنا ما انتقمنا ، ما للمساجد خربت وبيوت اللهو والفسوق عمرت ، ما للقلوب قست،ما للعيون لا تبكى ، ما للقلوب لا تتألم قد انتهكتم الحرمات ، تعديتم الحدود ، وأغضبتم الجبار ، فإنا لله وإنا إليه راجعون،ولا حول ولا قوة إلا بالله وما إلى ذلك من مجملات القول .

مثل الطبيب الذى يخطب الجمهور فى قواعد الصحة العامة — وفيهم المسلول والمحموم والمجذوم والمبطون وذو الرمد الصديدى والبلهارسيا والمصاب بالسيلان أو الزهرى وما شاكل ذلك من الأمراض المعدية التى تحتاج إلى دواء خاص وعلاج خاص وحمية خاصة — ويقول : نظفوا غرف النوم وقللوا من الغذاء واحترسوا من الرطوبة ، ولا تأكلوا المغلظات ، ولا تبصقوا فى أماكن الاجتماع وما شاكل ذلك أيضاً من الكليات العامة التى تصلح للصحيح كما تصلح للمريض فهم لا يلتفتون إليها لأنها أصبحت لديهم فى حكم المعلوم بالضرورة لا تؤثر فيهم أدنى تأثير لأنها لم تلمس موضع الألم فيحس المريض ولم تصف دواء فيعلق عليه الأمل ، وينشط فى العمل .

لذلك يجب على الخطيب الدينى أن يتكلم على الموضوع الخاص ويحلله تحليلا دينياً أخلاقياً اجتماعياً فيتكلم على الإشراك بالله مثلا مبيناً أنه نتيجة البله والسقوط من مرتبة الإنسان الحق مهما كان صاحبه ذكياً مخترعاً فى الدنيا وماهراً فيها لأن من لم يعقل هذه العوالم الكبيرة المنظمة والآثار البديعة المحكمة ولم يهتد بالسنن الكونية إلى وجوب وحدة الصانع الحكيم يكون كالأنعام بل هو أضل ، وذلك سر كون الله تعالى لا يغفر أن يشرك به لأن المشرك قد عطل مواهبه وكل حواسه من النظر فى الكائنات ، وانكب فى الشهوات على وجهه . **« ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون »(١) « أرأيت من اتخذ إلهه هواه أفأنت تكون**

---

(١) سورة الأعراف الآية : ١٧٩ .

عليه وكيلا . «**أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا**»(١) . وإنما كانوا أضل سبيلا من الأنعام لأنها تنقاد لمن يتعهدها وتحبه وتميز من يحسن إليها ممن يسيء إليها وتطلب ما ينفعها وتنفر مما يضرها ، وهؤلاء لا ينقادون لربهم ولا يعرفون إحسانه من إساءة الشيطان ولا يطلبون رضاه وهو أعظم المنافع ولا يتقون غضبه وهو أشد المضار ، ولأن الأنعام إن لم تعتقد حقاً ولم تكسب خيراً لم تعتقد باطلا ولم تكسب شراً بخلاف هؤلاء ، ولأنها غير متمكنة من طلب الكمال فلا تقصير منها ولا ذنب لها . وهؤلاء مقصرون مستحقون أعظم العقاب على تقصيرهم ولأن جهالتها لا تضر بأحد وجهالة هؤلاء تفضى إلى إثارة الفتن وصد الناس عن الحق ، وقال تعالى في وصف الكفار : «**إن شر الدواب عندالله الصم البكم الذين لايعقلون**»(٢) وكانوا شر الدواب لإبطالهم ما ميزوا به وفضلوا لأجله من نعمة العقل والتمييز .

ثم إذا أراد أن يتكلم على الشرك الخفي الواقع في الناس سواء جاء من طريق الرياء أو الاعتماد على الأسباب يقول : إن مثل هذا قد تغلب عليه الشيطان بخيله ورجله فأضاع عليه الوقت بضياع عمله لأن من يعمل لغيره لا بد له من جزاء إن كان عاقلا بل من يعمل لنفسه لا بد له من ثمرة يتوخاها ،والناس والأسباب المادية لا تأثير لها ولا تجازى بثواب ، وقد انقطع مدد الله عنه فإنه لم يعمل له ، وهذا هو الخسران المبين ثم يذكر آيات وأحاديث التحذير من الشرك بنوعيه المنذرة بوخامة العاقبة وسوء المغبة .

ويتكلم على قتل النفس ظلماً مبيناً ما فيه من الأضرار المادية والاجتماعية كتولد الأحقاد والضغائن وبقائها بين الأسر وتربص الدوائر من كل منها بالأخرى ، وانتقال ذلك الشر من الأصول إلى الفروع ، والإخلال بالأمن والراحة . هذا إلى ما في هذه من الجناية الشنيعة الأثيمة من تعريض النفس للإعدام والأموال للإتلاف والأولاد للضياع فضلا عن غضب الله ومقته ذاكراً الآيات والأحاديث الواردة في التحذير من جناية القتل . ويقبح أيضاً جريمة الانتحار مبيناً أنه نتيجة السفه وقلة الإيمان وعدم الثقة بالله تعالى والرضاء

---

(١) سورة الفرقان الآية : ٤٣ ، ٤٤

(٢) سورة الأنفال الآية : ٢٢ .

عنه فى قضائه وقدره ، وأن المنتحر قد باء بإثمه ولقى الله وهو عليه غضبان تاركاً وراءه الخزى والعار وقبيح الأحدوثة . ثم يأتى بما يناسب المقام من الأدلة الشرعية محذراً من هذه البدعة السيئة غاية التحذير .

ومن يخطب فى الزنا يذكر أضراره البدنية والأخلاقية والاجتماعية من اختلاط الأنساب وتفريق الوحدة وأن زواج الزانية يضيع ماله على أولاد الأجانب ، وأن الزانية والزانى قد هتكا حرمة الزوج واعتديا على حقه الشرعى وهتكا الأسرة وسجلا عليها عاراً لا يمحى وخزياً لا يزول وتشبهاً بالحيوان الأعجم الذى ينزو ذكره على أنثاه بلا قيد ولا شرط ، وأن من اجترأ على الله بارتكاب هذه الجريمة الشنعاء يجترئ فى سبيل شهوته على ضرر العباد والسعى فى الأرض بالفساد . . فضلا عما فى الزنا من التعرض لغضب الله ومقته ، ثم يأتى بآيات وأحاديث الزنا وفظاعة عقوبته حيث كان فاحشة وساء سبيلا . وينفر الناس من الزانى والزانية بأنهما وباء على المجتمع لأن من استحكم فيه مرض يود أن يكون الناس مثله والتنفير باب عام ينبغى دخوله فى كل المهلكات وقريب من الزنا السفور وتبرج النساء فى الأسواق والطرقات .

ومن يخطب فى التحذير من الربا يذكر ما فيه من الأضرار المالية والاقتصادية وأنه ما انتشر فى أمة إلا ذلت بعد عزها وافتقرت بعد غناها وفقدت قوتها واستقلالها ووقعت فى قبضة الاستعباد . هذا إلى ما فى الربا من المحق وذهاب البركة ومحاربة الله والتعرض لغضبه وعقوبته فى العاجل والآجل ، ويستدل على هذا كله بالأدلة النقلية والمشاهدات الحسية .

وإذا خطب فى التحذير من تناول المسكرات وتعاطى المخدرات ذكر ما فيها من الأضرار المالية والصحية والخلقية والاجتماعية وأردف ذلك بما جاء فيها من الوعيد الشديد الوارد فى الكتاب والسنة .

وبالجملة إذا تكلم فى المنكرات يحللها على هذا النحو بادئاً بأشدها خطراً وأكثرها وقوعاً فى الأمة التى يخطب فيها ، ويعالجهم بالطرق المتنوعة الحكيمة كما بيناه فى الفصل العاشر من كتابنا هداية المرشدين .

وإذا خطب فى باب الأوامر والفضائل عمد إلى شعب الإيمان شعبة

وتكلم عن كل شعبة منها على حدة كالصلاة والزكاة والصيام والحج والصدق والوفاء والأمانة والحياء مبيناً حكمة مشروعيتها وآثارها التى تعود على صاحبها وعلى المجتمع الإنسانى ، وما فى تركها من الاتصاف باضدادها من الخسارة عليه وعلى الحياة الاجتماعية مشفوعاً ذلك بالأدلة النقلية والعقلية والحسية مراعياً أيضاً أكبرها خطراً ، وأكثرها شيوعاً فى الناس .

ويخطب فى المواسم بما يناسب الحال فيتكلم فى رمضان مثلا فى وجوب الصوم حتى على الأمم السابقة مبيناً سر مشروعيته من ضبط النفس وإضعاف شهوتها وكونه وسيلة إلى تربية النفس وتهذيبها وتعويدها على قوة الإرادة فإنها إذا انقادت للامتناع عما لا غنى له عنه من الغذاء فأولى أن تنقاد للامتناع عما لا حاجة لها فيه من الحرام ، فكان سبباً فى اتقاء المحارم وقوة العزيمة ، وأنه يبعث فى الإنسان فضيلة الرحمة بالضعفاء والعطف على البائسين ، وأنه ينقى الجسم من الفضلات الرديئة والرطوبات المعوية ، وما إلى ذلك من المزايا الصحية والخلقية والاجتماعية ، كما سبق تفصيله فى الفصل الثالث فى أصول الخطابة فى الأدلة الذاتية ، ثم يبين ما للصائم عند الله من عظيم المثوبة على هذا الجهاد العظيم ، ويذكر ما ورد فيه من أحاديث الترغيب .

ويتكلم فى العيدين عن الأعمال المطلوبة من صدقة وأضحية وتهليل وتكبير وصلة رحم وعطف على بائس وأرملة وإكرام يتيم مرغباً فى العفو عن الهفوات والصفح عن الزلات وترك الخصومات والإصلاح بين الناس ، ويحذر الناس من العوائد المحرمة والبدع القبيحة التى تقع فى العيدين كزيارة المقابر والمبيت بها وتجديد الأحزان ، ويبين أيضاً أن رضا الله فى مثل هذه الأيام أكبر وغضبه أعظم ويضرب لهم الأمثال بأنه لكل ملك حالات غير اعتيادية عند رعيته يعطى فيها الآلاف ويطلق المساجين ويعفو عن التائبين كذلك أيام الله تعالى بالنسبة لملك الملوك ورب الأرباب ، وإن غضب الملك فى أوقات الصفاء قد يخرجه عن مألوف الغضب فى بقية الأيام ، وينبغى أن يتكلم على صدقة الفطر فى الجمعة التى قبل العيد ليحسن الناس أداءها فى الوقت الأفضل على الوجه المطلوب .

ويتكلم فى شهر ربيع الأول على سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم

بذكر نسبه وحسبه ومزايا قومه وعشيرته وأخبار مولده وتربيته وصفة معيشته فى نفسه وزواجه وسيرته مع أهله تمهيداً لبيان المقصد الأعظم وهو نبأ بعثته التى كانت رحمة للعالمين مبيناً ما كان عليه من الأخلاق الكريمة والآداب العالية وما تم على يديه من الإصلاح وجلائل الأعمال وما قاساه من الأهوال والمتاعب الشديدة فى سبيل الدعوة إلى الله تعالى مستمداً ذلك كله من الكتاب المبين وصحيح السنة وما تمس الحاجة إليه مما أثبته ثقاة المؤرخين مجتنباً كل ما لم تثبت صحته مما يتعلق بسيرته الشريفة مبيناً أن الفائدة المقصودة من ذلك هى تذكير الناس بخلاصة تاريخ رسول الله صلى الله عليه وسلم ليتذكر المؤمنون منة الله تعالى عليهم ببعثته ، وتتغذى أرواحهم بزيادة الإيمان به وكمال محبته ، ويزداد تعلقهم بهذا الرسول العظيم صلى الله عليه وسلم ، ويحرصوا على اتباعه والاقتداء به والتمسك بدينه وإحياء سنته والتحلى بآدابه ، ولا يكفى ذكر نسبه الشريف مجرداً عن ذكر مآثر آبائه ولا ذكر أوصافه الجسمية كما يفعله بعض الخطباء اليوم ، فذلك لا يفى بالغاية المقصودة من ذكر حياته الشريفة ، صلوات الله وسلامه عليه .

وإذا تكلم على وفاته فلا يذكرها مجردة عن بيان ما فيها من العبر وإنما يتكلم عما لاقاه من الشدائد فى مرض الموت وسكراته مع الصبر والرضا ، وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا كان قد لقى مثل تلك الأهوال وهو المغفور له والمعصوم فكيف بنا ونحن المذنبون ولا ندرى ما يفعل بنا ثم ينبه العقول إلى الاحتفاظ بسيرته وتعظيمه ومحبته والعمل على إحياء سنته وإطعام الطعام شكراً لله على نعمة وجوده العظمى ، ويحث الناس على إكثار الصلاة والسلام عليه لتكون قلوبهم دائماً معمورة بمحبته صلوات الله وسلامه عليه ، ويبين لهم أن المحبة دائماً تقتضى الجرى على ما يهوى المحبوب ، وإن العاصى كاذب فى دعواه حب الله ورسوله صلى الله عليه وسلم ، ويبين أيضاً حقه على أمته وأن هذا الخير العظيم وتلك السعادة التى فيها العالم كانت كلها على يديه صلى الله عليه وسلم ، ولذلك شرعت الصلاة والسلام عليه قياماً له ببعض حقه على الناس ،وهكذا يتكلم فى كل وقت بما يناسبه مراعياً حال السامعين وأمراضهم واستعدادهم .

ويتكلم على القرآن الكريم مبيناً شيئاً من فضائله وما يجب على التالى والسامع له، وأن القارئ إنما يتكلم بكلام الله كنائب عنه فى إسماع الناس ما شرع لهم فيه . وإن من أعرض عن القارئ فقد أعرض عن الله ، وأن من أخل بالأدب عند سماعه فقد أخل بالأدب بين يدى ملك الملوك ، ويضرب لذلك الأمثال . ويذكر للناس إجمالا ما فى القرآن من المقاصد وأنواع الهداية التى تكفل لمن سلكها وتحلى بها سعادة الدين والدنيا ، وأن تلاوته عبادة وسماعه عبادة عندها تنزل الرحمات ، وأن الخضوع عند سماعه والتأثر به خضوع لله ، ولجلاله، وآية الفلاح والهداية .

وعلى الجملة يحض الناس على احترام مجلس القرآن ويحذرهم من انتهاك حرمته بالتغنى به أو الإعراض عنه ، ثم يلفت الناس إلى تعلمه وتدبره لتتسع عقولهم وتستنير بصائرهم ويحث المسلمين على المحافظة عليه بحفظ طائفة كثيرة من أبنائهم له فى كل عصر محافظة على ينبوع الملة وأساس السعادة فى العاجل والآجل ، وقد علمت أن منهلك الصافى فى هذا كله كتاب الله تعالى وكتب السنة الصحيحة لا سيما كتاب الإيمان والعلم والمغازى وفضائل القرآن وشمائله صلى الله عليه وسلم وكتب حكمة التشريع ، وإياك أن تذكر شيئاً من الآثار التى لم تثبت صحتها فى مثل هذه المقامات وإلا كنت هدفاً للطعن عليك فى معلوماتك والشك فى طريقك، وما أغناك عن هذا .

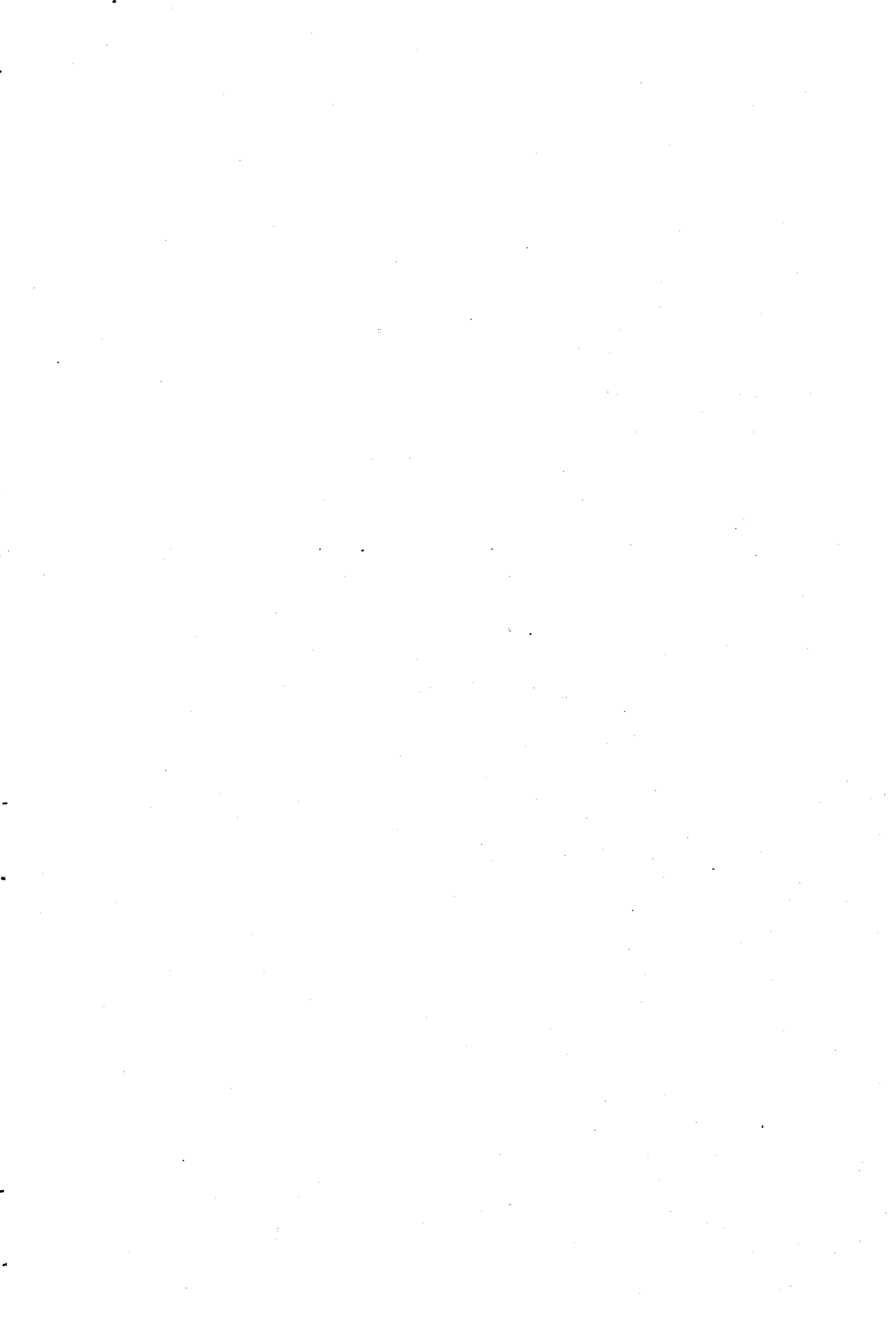
وصفوة القول : إن أفضل الخطب الدينية ما كان مطابقاً لمقتضى الحال ملائماً لما تدعو إليه حاجة السامعين ، وإن من أحب أن يكون نصحه نافعاً وإرشاده مفيداً فلينظر إلى المنكرات الفاشية فى الناس والأمراض النفسية المنتشرة فيهم والحوادث الحاضرة الحديثة العهد بينهم وليجعل شيئاً منها على حدة موضوع خطابته ، ثم يحصى ما فى ذلك من الأضرار المالية والبدنية والخلقية والاجتماعية ويعدها واحداً واحداً فى ذهنه ويدونها بقلمه، ثم يستحضر ما جاء فى الموضوع من الآيات الكريمة والأحاديث الصحيحة وآثار السلف وأقوال الحكماء مجيداً فهم ذلك شارحاً منه ما تمس الحاجة إلى شرحه، ثم يشرع فى تدوين الخطبة إذا أراد ذلك مضمناً لها أثار هذا المنكر وما جاء فيه عن الشريعة الغراء مراعياً فى أسلوب الخطبة ما يلائم عقول السامعين .

هذا إذا اقتضى الحال الترهيب من سيئة أو التنفير من نقيصة . وإذا دعت الحاجة إلى الترغيب فى نوع من أنواع البر أو التحلى بفضيلة فليجعل ما مست الحاجة إليه من أنواع الخير أو الفضائل موضوع الخطبة على حدة ، ثم يفكر فى مزاياه ومنافعه العامة ويحصيها عدداً ، ثم يستحضر ما يلائم الموضوع من الكتاب والسنة وما إلى ذلك من كل ما يؤيده ويؤثر فى نفوس السامعين من الدلائل الشرعية والعقلية والحسية ، ثم إذا فرغ من تدوين الخطبة فإن شاء استظهرها عن قلبه وألقاها ، وإن شاء تكلم على مضمونها بما لا يخرج عنه إلا بمقدار ما يعن له حالة الأداء مما يزيد الموضوع بياناً وجمالا . والأحسن بالمرشد والخطيب الاجتماعى أن لا يتقيد بعبارة خاصة ، بل الأليق به بعد استحضار المعانى أن يؤديها بما يستطيع من العبارات والأساليب ، وإذا اختار عدم تدوين الموضوع واكتفى باستحضاره فى ذهنه بعد التفكير فيه ولم تخنه ذاكرته عند الأداء فذلك غاية الحسن ومنتهى الكمال .

وقد جرت العادة بالتزام صورة واحدة فى الخطبة الثانية للجمعة سموها (خطبة النعت) وتلك عادة غير معروفة عن السلف الصالح فهى محدثة وغير لائقة بهذا الموقف العظيم الأسبوعى ، بل اللائق به العناية بالخطبة الثانية كالأولى، وباب الإرشاد واسع وميدانه فسيح وللناس حاجة إلى الإصلاح من وجوه كثيرة ، وفى الشرع الشريف أغذية للعامة وأدوية للخاصة فلا يصعب على الخطيب أن يستحضر للخطبة الثانية كل أسبوع من الآيات والأحاديث أو الآثار أو الحكم البليغة ما يناسب موضوع الخطبة كما ترى هذا جلياً فى نماذج الخطب المنبرية فى كتابنا هداية المرشدين .

هذا حال الخطيب اليوم وما يجب أن تكون عليه ، وهذا داؤها ودواؤها كما هدتنا إليه التجربة ، وكثرة المران والممارسة، والحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم .

* * *



الفصل الخامس

نماذج من مواعظ القرآن الكريم والسنة النبوية

صفات المؤمنين وعلامات حسن الخلق :

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم بسم الله الرحمن الرحيم : **« قد أفلح المؤمنون . الذين هم فى صلاتهم خاشعون . والذين هم عن اللغو معرضون . والذين هم للزكاة فاعلون . والذين هم لفروجهم حافظون . إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين . فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون . والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون . والذين هم على صلواتهم يحافظون. أولئك هم الوارثون . الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون » .**(١)

إن الله تعالى إذا أراد بعبد خيراً شرح صدره لما فيه فلاحه ونجاته ، واستعمل جوارحه فيما يرضيه . والسعيد الموفق إذا جاءته الموعظة انفتح لها قلبه ونشطت للعمل عليها أعضاؤه ، أولئك هم أهل الهداية ، وأولوا الأحلام الراجحة وأولئك لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة : **« فبشر عباد . الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولوا الألباب »**(٢) ثم يبين أن الله عز وجل حكم بالفلاح لمن كان مستجمعاً لصفات سبع .

الصفة الأولى : الإيمان بما علم ضرورة أنه من دين نبينا محمد صلوات الله وسلامه عليه من التوحيد والنبوة والبعث والجزاء ونظائرها حيث قال تعالى : **« قد أفلح المؤمنون »** ، فهؤلاء الذين اختصوا من بين المؤمنين بأن حملوا بواطنهم بأنوار المعارف ، وكملوا ظواهرهم بالقيام بوظائف العبودية ، وتحلو بمكارم الأخلاق قد فازوا بكل خير ونجوا من كل ضير حسبما كان متوقعاً من حالهم ، فإن إيمانهم الصادق وما تفرع عليه من أعمالهم الصالحة من دواعى الفلاح بموجب هذا الوعد الكريم . وفى هذا المقام يشبه الإيمان

---

(١) سورة المؤمنون الآية ١ – ١١ . (٢) سورة الزمر الآية ١٧ ، ١٨ .

بشجرة طيبة ، ويذكر لهم أن المقصود هو الإيمان الصحيح الذى يظهر أثره فى تهذيب النفس واستقامة الأعمال ، وليس ينفع المرء أن يقول : أنا مؤمن وهو خبيث النفس سيء القول ، فقد روى البخارى فى تاريخه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ليس الإيمان بالتمنى ، ولكن ما وقر فى القلب وصدقه العمل ، وإن قوماً غرتهم الأمانى حتى خرجوا من الدنيا ولا حسنة لهم ، وقالوا : نحن نحسن الظن بالله تعالى ، وكذبوا لو أحسنوا الظن لأحسنوا العمل » .

الصفة الثانية : الخشوع فى الصلاة بالخضوع والتذلل لملك الملوك ورب الأرباب ، وعدم التفات القلب فيها إلى شيء سوى التعظيم له تعالى ، وبسكون الجوارح والإطراق بالنظر إلى موضع السجود ، وعدم الالتفات يميناً ويساراً ، وهذه الثلاثة من لوازم خشوع القلب وتفريغه له تعالى ، فقد رأى بعض السلف رجلا يعبث بيده فى الصلاة ، فقال : لو خشع قلب هذا لخشعت جوارحه . روى ذلك عن حذيفة وسعيد بن المسيب رضى الله عنهما . قال تعالى : « **الذين هم فى صلاتهم خاشعون** » . فهؤلاء الخائفون من هيبة الله عز وجل المتذللون له الخاضعون لجلاله قد ألزموا أبصارهم مساجدهم فكانوا هم الفائزين . وفى هذا المقام يبالغ فى الحض على الخشوع فى الصلاة مبيناً أن منزلته منها منزلة الروح من الجسد، فكما لا عبرة لجسد بلا روح ، كذلك لا عبرة لصلاة بلا خشوع ، وذلك أن المصلى إنما يناجى ربه والكلام مع الغفلة ليس بمناجاة ، وما الصلاة إلا ذكر وقراءة وركوع وسجود وقيام وقعود . أما الذكر فإنه مناجاة ولا تحقق لها إلا إذا كان اللسان معبراً عما فى القلب من التضرعات ، فأى سؤال فى قوله : « **اهدنا الصراط المستقيم** » إذا كان القلب غافلا عنه ، ولا ريب أن المقصود من القراءة والذكر الثناء والدعاء ، والمخاطب هو الله تعالى ، فإذا كان القلب غافلا عن جلاله وكبريائه ولسانه يتحرك بحكم العادة ، فما أبعده عن القبول . وأما الركوع والسجود فالمقصود منهما التعظيم له تعالى، ومحال أن يكون مع الغفلة تعظيم ، فلم يبق إلا مجرد حركة الظهر والرأس وليس فى ذلك المعنى ما تصير الصلاة لأجله عماد الدين وفاصلا بين الكفر والإيمان . من أجل ذلك قال أرباب القلوب

بوجوب الخشوع فيها . كذلك يحذر الناس من العبث والالتفات فى الصلاة بأن المصلى مشمول بإحسان الله تعالى ما لم يلتفت ، فإن التفت قطع الله عنه إحسانه ، فعن أبى ذر رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « لا يزال الله مقبلا على العبد وهو فى صلاته ما لم يلتفت ، فإن التفت أعرض عنه » . رواه أبو داود والترمذى ، وعن عائشة رضى الله عنها سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الالتفات فى الصلاة ؟ فقال : « هو اختلاس يختلسه الشيطان من صلاة العبد » . رواه البخارى . والاختلاس : الاختطاف . وعن معاذ بن جبل : « من عرف من على يمينه وشماله متعمداً وهو فى الصلاة فلا صلاة له » . وإجمالا يبين أن الأليق والأحوط الخشوع فى الصلاة .

الصفة الثالثة : ترك العبد ما لا يعنيه من كل ما لا يعود عليه منه فائدة فى الدين والدنيا قولا أو عملا ، كالهزل واللعب وضياع الأوقات فيما لا ينفع والاسترسال فى الشهوات إلى غير ذلك من كل ما نهى الله عنه ، بل ينبغى للمرء أن يشتغل بما ينفعه من عمل صالح لمعاده أو درهم حلال لمعاشه . ومن حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه . قال تعالى : « **والذين هم عن اللغو معرضون** » تاركون له فى عامة أوقاتهم وخاصة حال اشتغالهم بالصلاة ، فهؤلاء قد مدحهم الله تعالى بالإعراض عما لا يفيد، والتباعد عنه رأساً مباشرة وميلا وشهوداً ، فهم لا يفعلونه ولا يرضون به، ولا يخالطون من يأتيه . قال تعالى فى امتداح الكملة من عباده: « **وإذا مروا باللغو مروا كراماً** »(١) أى معرضين عنه . وفى هذا المقام يحذر السامعين من الكسل فى الأعمال الدينية وإهمال الصنائع الدنيوية وينفرهم من البطالة وأهلها بما يحضره من الشواهد الشرعية وآثار الصالحين فى ذلك .

الصفة الرابعة : أن يقوم أغنياء المسلمين بأداء الحق الواجب فى أموالهم إلى مستحقيه، فبذلك تملك القلوب ويدوم الوئام والوفاق ويتم الصفاء والهناء بين الناس ، ويعظم الخير وتعم الرحمة والبركة فى الدارين . قال تعالى : « **والذين هم للزكاة فاعلون** » مؤدون . وصفهم تعالى بذلك بعدما وصفهم بالخشوع فى الصلاة دلالة على أنهم بلغوا الغاية من القيام بالطاعات البدنية على وجهها والمالية إلى أربابها والتجنب عن المحرمات وكل ما توجب المروءة

---

(١) سورة الفرقان الآية ٧٢ .

اجتنابه ، فطوبى لهؤلاء صلحت قلوبهم فخشعوا ، وطابت نفوسهم فبذلوا .
وفى هذا المقام يرغب الأغنياء فى دفع الزكاة ، ويرهبهم من منعها بذكر نصوص الوعد والوعيد فى ذلك مع بيان سر مشروعيتها فإنه يدع فى نفوس السامعين أحسن أثر .

الصفة الخامسة : نهى النفس عن مطاوعة الهوى والشهوة بمنع الفرج عن كل ما لا يحل ، وقصره على ما أحل الله له من الحرائر والإماء بعقد النكاح ، وملك اليمين . ففى ذلك الغنم والسلامة قال تعالى : « **والذين هم لفروجهم حافظون إلا على أزواجهم** » الآية . فهؤلاء الذين غلبت عقولهم على شهواتهم ، وهى داعية لهم إلى ما لا يخفى ، فصانوا فروجهم . وغضوا أبصارهم فلم يرسلوها على أحد إلا على الحلائل ، وبذلك بلغوا كمال العفة . أما من أرضى شهوته ولم يحصن فرجه ورضى لنفسه أن يكون حيواناً ينزو ذكره على أنثاه من غير قيد ولا شرط ، فذلك الجانى على حرمة الآداب المنتهك للحرمات ، قد أفرط فى الاعتداء على الأعراض ، وجاوز الحد فى تمزيق ثوب العفاف ، وعرض نفسه وأمته لمخاطر الشقاء فى العاجل والآجل .

وفى هذا المقام ينفر الناس من الزنا واللواط والاستمناء باليد ، وإتيان البهائم ويحذرهم من إرسال النظر إلى النساء والغلمان بل ومن إتيان الحلائل حال الحيض والنفاس مبيناً ما فى ذلك كله من الأضرار الدينية والبدنية والمالية والاجتماعية من فقد الحياء والزهرى والتهاب المثانة والسل الرئوى والسيلان وضياع الأموال وفساد الأخلاق .

الصفة السادسة : رعاية الأمانات والعهود وحفظها فتلك فضيلة عظيمة ومنقبة جليلة ، وآية على شرف النفس وعلو الهمة . قال تعالى : « **والذين هم لأماناتهم وعهدهم . . .** » لما يؤتمنون عليه ويعاهدون من جهة الحق أو الخلق « **راعون** » قائمون عليها حافظون لها . وفى هذا المقام يبين أن الأمانة تتناول كل ما يكون تركه خيانة لله أو للعبيد فمن ذلك سائر العبادات فإن المرء مؤتمن عليها ، ومنها ما يلتزمه بفعل أو قول كالودائع والعقود وما يتصل بهما ، ومنها الأسرار المأمور بكتمانها : فيلزمه المحافظة عليها وعدم إفشائها ، ويبين أن العهد يتناول العقود والأيمان والنذور ، وأن مراعاة هذه الأمور والقيام

بها لا بد منه لحصول الفلاح ودرك السعادة، ويرغب الناس فى الأمانة والوفاء ويحذرهم من الخيانة والغش فى الصنائع والمعاملات، ومن نكث العهود بما يحضره من الآيات والأحاديث والآثار مبيناً ما فى الخيانة والإخلاف من الأضرار الخلقية والاجتماعية، ويضرب لذلك الأمثال، ويسوق الحكم.

الصفة السابعة : المحافظة على الصلوات بالمواظبة عليها وتأديتها فى أوقاتها على الوجه الأكمل وتلك فضيلة مستقلة، كما أن الخشوع فضيلة أخرى قال تعالى : « **والذين هم على صلواتهم يحافظون** »، وفى هذا المقام يحض الناس على المحافظة على الصلاة فى الأوقات وشهود الجماعات وإتمام أركانها وشروطها، فبذلك تتهذب النفس ويصفو القلب ويمتلىء حياة وخشية. وبذلك ينال الخير وتسعد الأمة وتقلع النفوس عن غيها. ثم يذكر كل ماله بالمقام صلة. وهنا يرغب السامعين بأن الذين توفرت فيهم تلك الصفات السبع وامتازوا بها عن غيرهم من عامة المؤمنين موعودون من الله تعالى من أجل هذه النعوت الجليلة بدار النعيم، وأنهم المستحقون لها بأعمالهم حسبما يقتضيه الوعد الكريم قال تعالى : « . . . **أولئك هم الوارثون** » الجديرون بأن يسموا وراثاً لا من ورث كرائم الأموال ورغائب الذخائر : « **الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون** ». لا يخرجون منها أبداً ولا يموتون — وإجمالا يذكر أن هذه الآية جمعت كثيراً من علامات حسن الخلق وشمائل الأبرار الكاملين، وهذا كله لا يتيسر للمرشد على الوجه الأكمل إلا بعد استحضاره معانى النظم الكريم وإعداد كل ما له بهذه البيانات صلة حتى تتشربه مخيلته وتعيه ذاكرته. ونعم المساعد على هذا « رياض الصالحين » وبالله التوفيق.

* * *

النهى عن الانهماك فى طلب الدنيـــا

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم قال تعالى : **« يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون . وأنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتى أحدكم الموت فيقول رب لولا أخرتنى إلى أجل قريب فأصدق وأكن من الصالحين . ولن يؤخر الله نفساً إذا جاء أجلها والله خبير بما تعملون »** (١).

إن من نظر إلى الدنيا بعين البصيرة أيقن أن نعيمها ابتلاء، وحياتها عناء، وعيشتها نكد ، وصفوها كدر . وأهلها منها على وجل ، إما بنعمة زائلة ، أو بلية نازلة ، أو منية قاضية ، مسكين ابن آدم رضى بدار حلالها حساب . وحرامها عقاب ، إن أخذه من حله حوسب عليه ، وإن أخذه من حرام عذب به ، من استغنى فيها فتن ، ومن افتقر فيها حزن ، ومن أحبها أذلته . ومن أبصر إليها أعمته ، والناس فيها طائفتان :

طائفة فطناء علموا أنها ظل زائل ، ونعيم حائل ، وأضغاث أحلام . بل فهموا أنها نعم فى طيها نقم ، وعرفوا أن هذه الحياة الفانية إنما هى طريق إلى الحياة الباقية . فرضوا منها باليسير وقنعوا فيها بالقليل ، فاستراحت قلوبهم وأبدانهم . وسلم لهم منها دينهم ، وكانوا عند الله تعالى هم المحمودين لم تشغلهم دنياهم عن طاعة مولاهم ، جعلوا النفس الأخير وما وراءه نصب أعينهم ، وتدبروا ماذا يكون مصيرهم ، وفكروا كيف يخرجون من الدنيا وإيمانهم سالم لهم ، وما الذى يبقى معهم منها فى قبورهم ، وما الذى يتركون لأعدائهم(٢) فى الدنيا ، ومن لا يغنيهم من الله شيئاً يوم لا ينفع مال ولا بنون ، ويبقى عليهم وباله ونكاله ، أدركوا كل هذا فتأهبوا للسفر وأعدوا الجواب للحساب ، وقدموا الزاد للمعاد : **« وخير الزاد التقوى »** فطوبى لهم خافوا فأمنوا وأحسنوا ففازوا .

---

(١) سورة المنافقون : ٩ – ١١ .
(٢) من الأزواج والأولاد: « يا أيها الذين آمنوا إن من أزواجكم وأولادكم عدواً لكم فاحذروهم ».

وأخرى جهلاء : عمى البصائر لم ينظروا فى أمرها ، ولم يتكشفوا سوء حالها ومآلها ، برزت لهم بزينتها ففتنتهم فإليها أخلدوا ، وبها رضوا ، ولها اطمأنوا ، حتى ألهتهم عن الله تعالى ، وشغلتهم عن ذكره وطاعته : « **نسوا الله فأنساهم أنفسهم أولئك هم الفاسقون** »(١). نعم إنهم نسوا الله: أهملوا حقوقه، وما قدروه حق قدره ولم يراعوا لانهماكهم فى الدنيا مواجب أوامره ونواهيه حق رعايتها « **فأنساهم أنفسهم** » جعلهم بسبب ذلك ناسين لها حتى لم يسمعوا ما ينفعها ولم يفعلوا ما يخلصها ، وسيرون يوم القيامة من الأهوال ما ينسيهم أرواحهم ويجعلهم حيارى ذاهلين . « **يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وماهم بسكارى ولكن عذاب الله شديد** »(٢) وفى مثل هؤلاء يقول الشيخ ابن عطاء الله: « اجتهادك فيما ضمن لك مع تقصيرك فيما طلب منك دليل على انطماس البصيرة منك » . أقاموها فهدمتهم ، واعتزوا بها من دون الله فأذلتهم ، أكثروا فيها من الآمال ، وأحبوا طويل الآجال ، ونسوا الموت وما وراءه من أهوال ومخاوف فخاب وضل سعيهم ، وخسروا الدنيا ولم يدركوا الآخرة .

روى الترمذى من حديث أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم . . « من كانت الآخرة همه جعل الله غناه فى قلبه ، وجمع عليه شمله ، وأتته الدنيا وهى راغمة ، ومن كانت الدنيا همه جعل الله فقره بين عينيه ، وفرق عليه شمله ، ولم يأته من الدنيا إلا ما قدر له ، فلا يمسى إلا فقيراً ، ولا يصبح إلا فقيراً . وما أقبل عبد على الله بقلبه إلا جعل الله قلوب المؤمنين تنقاد إليه بالود ، والرحمة ، وكان الله بكل خير إليه أسرع »

ثم يكشف للسامعين عن حقيقة الدنيا ويبين لهم قصر مدتها . وانقضاء لذتها ، بما يضربه من الأمثال الحسية كما تقدم فى الفصل الثالث عشر من هداية المرشدين ويذكر ما جاء فى الكتاب والسنة فى وصفها والتحذير من الافتنان بها ، كقوله تعالى : « **اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر فى الأموال والأولاد كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفراً ثم يكون حطاماً وفى**

---

(١) سورة الحشر الآية ١٩ .
(٢) سورة الحج الآية ٢ .

الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور»(١)
شرح لنا العليم الحكيم فى هذه الآية حال الدنيا التى افتتن بها قصار النظر وبين أنها محقرات الأمور التى لا يركن إليها العقلاء فضلا عن الافتتان بها والانهماك فى طلبها بأنها لعب لا ثمرة فيها سوى التعب ، ولهو تشغل صاحبها عما ينفعه فى آخرته وزينة لا تفيد المفتون بها شرفاً ذاتياً كالملابس الجميلة والمراكب البهية والمنازل الرفيعة ، وتفاخر بالأنساب والعظام البالية ، ومباهاة بكثرة الأموال والأولاد وعظم الجاه . ثم أشار جل شأنه إلى أنها مع ذلك سريعة الزوال قريبة الاضمحلال كمثل مطر راق الزراع نباته الناشىء به ثم يهيج يتحرك وينمو إلى أقصى ما قدر الله له فسرعان ما تراه مصفراً متغيراً ذابلا بعدما رأيته أخضر ناضراً . ثم يصير من اليبس هشيما متكسراً . فى تشبيه جميع ما فى الدنيا من السنين الكثيرة بمدة نبات غيث واحد يفنى ويتلاشى فى أقل من سنة إشارة إلى سرعة زوالها وقرب تلاشيها . وبعد ما بين سبحانه حقارة الدنيا وسرعة زوالها تزهيداً فيها وتنفيراً من الانهماك فى طلبها أشار إلى فخامة شأن الآخرة وفظاعة ما فيها من الآلام وعظم ما فيها من اللذات ترهيباً من عذابها الأليم. وترغيباً فى تحصيل نعيمها المقيم، حيث قال: «**وفى الآخرة عذاب شديد**» لمن عصاه لأنه نتيجة انهماكهم فيما ذكر مفصلا من أحوال الحياة الدنيا «**ومغفرة**» عظيمة «**ورضوان**» عظيم لمن أطاعه . وما زينة الحياة المعجلة لكم أيها الناس إلا متاع الغرور لمن اطمأن بها ولم يجعلها مزرعة للآخرة ومطية لنعيمها.

وفى البخارى عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بمنكبى فقال : « كن فى الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل » وكان ابن عمر يقول : إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء وخذ من صحتك لمرضك ، ومن حياتك لموتك ، وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أنه مر على شاة ميتة فقال : « أترون هذه الشاة هينة على أهلها »؟ قالوا : من هوانها ألقوها . قال: « والذى نفسى بيده للدنيا أهون على الله من هذه الشاة على أهلها ، ولو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافراً منها شربة ماء » . أخرجه الترمذى، وهذا أبلغ شىء فى تحقير الدنيا التى استعبدت الناس وأذلتهم وشغلتهم عن خالقهم ومالك أمرهم .

(١) سورة الحديد الآية ٢٠ .

لهذا حذر الله تعالى عباده المؤمنين حيث يقول : « **يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله** »(١)أى لا يشغلكم الاهتمام بتدبير أمورها والاعتناء بمصالحها والاسترسال فى التمتع بملاذها عن الاشتغال بذكر الله عز وجل من الصلاة وسائر أنواع العبادات المذكرة لجلال المعبود الموصلة إلى هناءة الدنيا وسعادة الآخرة . والمراد نهيهم عن الانهماك فى جلبها والتلهى بزخارفها عن السعى فى كسب رضاه تعالى ونيل إحسانه وإنذار الغافلين عن الله تعالى المفتونين بحبها – وحبها رأس كل خطيئة – بقوله : « **ومن يفعل ذلك** » وألهاه ماله وولده عن ذكر الله وطاعته وأهمل أمر السعادة« **فأولئك هم الخاسرون** » الكاملون فى الخسران حيث باعوا العظيم الباقى بالحقير الفانى . وأمرهم أن يبادروا قبل فوات الفرصة فى تخليص أنفسهم من خطر المسئولية ، ويبرئوا ذمتهم من الحقوق الواجبة كإعانة المجاهدين والفقراء والمساكين بقوله : « **وأنفقوا مما رزقناكم** »وهو فى حكمه عادل وبالجميع رءوف رحيم . فما كلف الأغنياء بما يعسر عليهم ،ولكن بقليل من كثير صار لديهم من واسع الكرم تفضلا منه وإحساناً ادخاراً للآخرة وتزوداً إليها ، يحمله لهم الفقراء إلى الدار الآخرة من قبل أن ينزل الموت بساحته ويشاهد دلائله ويعاين أماراته لا يسمع له عذر ولا تنفعه شفاعة فيقول عند تيقنه بحلوله يا « **رب لولا أخرتنى** »أمهلتنى « **إلى أجل قريب** » أمد قصير متمنياً أن يزاد فى أجله حتى يتصدق ويزكى وهو تعالى لا يمهل من انقضت مدته وحضر أجله : « **ولن يؤخر الله نفساً** »عن الموت « **إذا جاء أجلها** » انتهى زمنها المقدر لها عنده سبحانه : «**والله خبير بما تعملون** » فيجازيكم عليه إن خيراً فخير وإن شراً فشر . فسارعوا إلى الخيرات واستعدوا لما هو آت .

وعن عبد الله بن الشخير رضى الله عنه أنه قال : « أتيت النبى صلى الله عليه وسلم وهو يقرأ : « **ألهاكم التكاثر** » أى السورة المسماة بما ذكر لكونه صدرها . قال النبى ،صلى الله عليه وسلم ، بعد إتمامها : « **يقول ابن آدم** » : أتى بالمضارع إشارة إلى أن هذا القول ديدنه ودأبه بحسب طبعه « **مالى مالى** » أى مالى هو الذى أعتنى به وأهتم ، فالتكرار لفظاً للتعظيم والاهتمام «**وهل لك** »

(١) سورة المنافقون الآية ٩ .

أى أتقول ذلك « يا ابن آدم » وتهتم بأمره وهل لك « من دنياك » التى اهتممت بأمرها واحتفلت بشأنها . والاستفهام للإنكار أى مالك منها على الحقيقة « إلا ما أكلت فأفنيت ، أو لبست فأبليت أو تصدقت » على محتاج قاصداً وجه الله تعالى « فأمضيت » أنفذته وفى رواية فأبقيت. والمراد : أمضيت التصدق ونجزته فأبقيت ثوابه مدخراً لك عند الله تعالى . رواه مسلم والترمذى وقال : حسن صحيح ، وملخصه مالك من دنياك إلا ما انتفعت به فى دنياك بأن أكلت أو لبست ، أو أخراك بأن تصدقت ، وما عدا ذلك من باقى المال ، فأنت فيه بمنزلة الخادم الخازن لغيره ، وفيه تحريض على الاقتصار على ما تدعو إليه ضرورة الحياة وإدخال ما عداه عند مولاه ، وما أحسن قول بعضهم : اجعل ما عندك ذخيرة لك عند الله ، واجعل الله ذخيرة لأولادك .

ويختم المقال بذكر معنى النظم الكريم إجمالا كأن يقول : إن الله تعالى ينبه عبده إلى المبادرة بطاعته وشكره من قبل أن يعاين ما ييأس معه من الإمهال ويتعذر عليه تدارك الأمر ويفوت وقت القبول فيتحسر على ما فرط ، ويعض على أنامله لفقد ما كان متمكناً منه ، ويذكر لهم هنا ما يناسب المقام : كأن يقول : قال سعيد بن جبير : الدنيا متاع الغرور إن ألهتك عن طلب الآخرة ، فأما إذا دعتك إلى طلب رضوان الله فنعم المتاع ونعم الوسيلة .

وقال لقمان لابنه : « يا بنى إنك قد استدبرت الدنيا من يوم نزلتها واستقبلت الآخرة ، فأنت إلى دار تقرب منها أقرب من دار تتباعد عنها » . وقال : « يا بنى إن الدنيا بحر عميق وقد غرق فيه ناس كثير فلتكن سفينتك فيها تقوى الله عز وجل ، وحشوها الإيمان بالله تعالى ، وشراعها التوكل على الله عز وجل ، لعلك تنجو ، وما أراك ناجياً . وعيسى عليه السلام لم يضع لبنة على لبنة » . وكان يقول : إنها معبرة فاعبروها ولا تعمروها . وقيل لابن أدهم رحمه الله : بم وجدت الزهد فى الدنيا ؟ قال : بثلاثة أشياء : رأيت القبر موحشاً ، وليس معى مؤنس ، ورأيت الطريق طويلا ، وليس معى زاد ، ورأيت الجبار قاضياً ، وليس معى حجة ، ولا من يدافع عنى .

فعلى الرجل الرشيد أن يتحرز بطاعة الله عن مساخطه ، ويتدارك أمره قبل أن ينزل عليه سلطان الموت ، فلا تقبل منه توبة ولا ينفع له عمل . وبالله تعالى التوفيق .

نماذج فى مواعظ السنة النبوية

الحث على الكسب من طريقه الحلال

فى الصحيحين عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « لأن يغدو أحدكم فيحتطب على ظهره فيتصدق منه ويستغنى به عن الناس خير له من أن يسأل رجلا أعطاه أو منعه ». اعلم أن رب الأرباب وخالق الأسباب. جعل الآخرة دار العقاب والثواب، والدنيا دار التشمر والاكتساب وليس التشمر فى الدنيا مقصوراً على المعاد دون المعاش. بل المعاش ذريعة إلى المعاد ومعين عليه ، فالدنيا مزرعة الآخرة ومدرجة إليها قال تعالى : « **وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك** »(١) والناس ثلاثة : رجل شغله معاشه عن معاده فهو من المفرطين الهالكين ، ورجل شغله معاده عن معاشه فهو من الغالين ، المكروهين ، والأقرب إلى الاعتدال هو الثالث الذى شغله معاشه لمعاده فهو من المقتصدين المحبوبين . فى الحديث أنه ، صلى الله عليه وسلم ، قال : « من أحب دنياه أضر بآخرته ومن أحب آخرته أضر بدنياه فآثروا ما يبقى على ما يفنى » رواه أحمد وغيره، أى لأن الانهماك فيها يشغله عن طاعة مولاه فيخسر الآخرة . والانقطاع للآخرة يمنعه عن الكسب فيصير حملا ثقيلا على كاهل الأمة ، وفى الحكم المأثورة : « خيركم من لم يترك آخرته لدنياه ولا دنياه لآخرته ، ولم يكن كلا على الناس » . فأفضل الأمرين التزام حد الوسط .

وقد جاء الشرع الشريف بفضل الكسب والحث عليه من طريقه الحلال قال تعالى: « **فإذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون** » (٢) وقال تعالى : « **وجعلنا الليل لباساً**

---

(١) سورة القصص الآية ٧٧ .
(٢) سورة الجمعة الآية ١٠ .

وجعلنا النهار معاشاً »(١) أى وقتاً يلزم السعى فيه لتحصيل المعاش ، وقال عز وجل : « **فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور** »(٢) والمناكب جوانبها وطرقها وقال عز وجل : « **. . . وآخرون يضربون فى الأرض يبتغون من فضل الله** »(٣) أى يسافرون فيها لطلب ما قدر لهم من الأرزاق والأرباح فى تجارتهم وأسفارهم ، وقال بعض السلف : إن من الذنوب ذنوباً لا يكفرها إلا الهم فى طلب المعيشة متى صحت النية وكان صابراً محسناً فإن الحسنات يذهبن السيئات لاسيما إذا كان يسعى على أبوين ضعيفين ، أو يعول ذرية ضعافاً يصونهم عن الضياع . ويكفهم عن التطلع إلى ما فى أيدى الناس فهو لاشك فى سبيل الله تعالى . روى أن عيسى عليه السلام رأى رجلا فقال : ماتصنع ؟ قال : أتعبد . قال : ومن يعولك ؟ قال : أخى . قال : وأين أخوك ؟ قال : فى مزرعته . قال : أخوك أعبد منك . وقال لقمان لابنه : يا بنى استغن بالكسب الحلال عن الفقر فإنه ما افتقر أحد قط إلا أصابه ثلاث خصال : « رقة فى دينه » وهو كناية عن قلته ، فإن الفقر قد يحمله على ما يوجب ذلك . « وضعف فى عقله » وذلك لكثرة ما يعتريه من الهموم والأفكار ، وهى لاشك تظلم العقل وتفسد الرأى ، « وذهاب مروءته » ولا دين لمن لا مروءة له . وأعظم من هذه الثلاثة استخفاف الناس به ، واحتقارهم له ، وازدراؤهم لحاله ، وقال حكيم : إن فى صلاح الأموال سلامة الدين ، وجمال الوجه ، وبقاء العز ، وصون العرض ، وقال أحيحة ابن الحلاج : أصلحوا أموالكم فإنكم لا تزالون ذوى مروءات ما استغنيتم عن عشيرتكم . وقال ابن عباس رضى الله عنهما : اطلبوا الغنى بإصلاح ما فى أيديكم ، فإن الفقر مجمع العيوب . وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول : لا يقعدن أحدكم عن طلب الرزق ويقول : اللهم ارزقنى ، فقد علمتم أن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة . وكان يقول : ما من موضع يأتينى الموت فيه أحب إلى من موطن أتسوق فيه لأهلى أبيع وأشترى ، وقال أبو سليمان الدارانى سيد الزهاد : ليست العبادة عندنا أن تصف قدميك وغيرك يقوت لك ، ولكن ابدأ برغيفيك فأحرزهما ، ثم تعبد .

---

(١) سورة النبأ الآية ١٠، ١١ .
(٢) سورة الملك الآية ١٥ .
(٣) سورة المزمل الآية ٢٠ .

وعلى الجملة فكان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ورضى عنهم يتجرون فى البر والبحر ، ويعملون فى نخيلهم ومزارعهم ، وكفى بهم قدوة . وأنه لابد للعبد من حركة ومباشرة لسبب من أسباب العيش ، ووسيلة من وسائل الرزق فينفع نفسه وغيره ويعيش عزيزاً كريماً . ثم يشرح للسامعين مزايا التعب فى كسب الحلال من الاستغناء عن الناس وعن إظهار الحاجة إليهم ، وإيصال النفع إلى الغير ، والقيام بوظائف المدنية وقضاء المصالح التى عليها نظام العمران والسلامة من فساد البطالة واللهو والعبث وكسر النفس ليقل طغيانها ويأمن من غوائلها ، والتعفف عن ذل السؤال فلا يريق به ماء وجهه ، وفوق هذا كله نيل الثواب متى كان صادقاً فى عمله بعيداً عن الأذى ، ويذكر لهم أنه يحرم على المؤمن أن يسأل وهو يستطيع العمل . روى أحمد وأبو داود عن عبد الله بن عدى رضى الله عنه : « أن رجلين أخبراه أنهما أتيا النبى صلى الله عليه وسلم يسألانه عن الصدقة فقلب فيهما البصر ورآهما جلدين فقال لهما « إن شئتما أعطيتكما ولاحظ فيها لغنى ولا لقوى» وكذا يحرم الإعطاء لأنه تعاون على الإثم لا البر ، وما رواه الإمام مالك فى الموطأ من أنه صلى الله عليه وسلم قال : « اعطوا السائل ولو جاء على فرس » ففيه مقال ، وعلى فرض صحته فهو محمول على تحقق عجزه وحاجته ، فالواجب التفرس فى حال السائل كما يرشد إليه حديث عبد الله بن عدى . ثم إن العاجز لا يسأل إلا بمقدار حاجته ، روى أبو داود من حديث سهل ابن الحنظلية أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من سأل وعنده ما يغنيه فإنما يستكثر من جمر جهنم . قالوا : يا رسول الله وما يغنيه ؟ قال : ما يغديه ويعشيه » . وسمع عمر رضى الله عنه سائلا يسأل بعد المغرب فقال لرجل من قومه : عش الرجل ، فعشاه ثم سمعه ثانياً يسأل فقال : ألم أقل لك عش الرجل ؟ قال : قد عشيته ، فنظر عمر فإذا تحت يده مخلاة مملوءة خبزاً فقال : لست سائلا لكنك تاجر . ثم أخذ المخلاة ونثرها بين يدى إبل الصدقة وضربه بالدرة وقال : لا تعد . ولولا أن سؤاله كان حراماً ما ضربه ولا أخذ مخلاته .

ويبين لهم أن أحل أنواع الكسب وأفضلها ما كان من عمل يده إذا

نصح وعمل بإتقان وإحسان بعيداً عن الغش ، وافياً بحق الصنعة غير ملتفت إلى مقدار الأجر ، فبذلك يحصل الخير والبركة ، وبضده يكون الشر والوبال ، فنى صحيح البخارى عن المقدام بن معديكرب الكندى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما أكل أحد طعاماً قط خيراً من أن يأكل من عمل يده ، وإن نبى الله داود عليه السلام كان يأكل من عمل يده فى الدروع من الحديد ويبيعه لقومه » وخص داود لأن اقتصاره فى أكله على ما كان يعمل بيده لم يكن عن حاجة لأنه كان خليفة الله فى الأرض ، وإنما اختار الأكل من الطريق الأفضل . ولهذا أورد النبى صلى الله عليه وسلم قصته فى مقام الاحتجاج بها على ما قدمه من أن خير الكسب عمل اليد وأن فى ذلك دليلا على أن الاكتساب لا ينافى التوكل على الله متى كان الاعتماد فى حصول الرزق عليه تعالى لا على الأسباب .

ويبين لهم أن هذا كله فيمن طلب الكفاية لنفسه وعياله ، فأما من كان عنده الكفاية ولكن يطلب الكسب لتحصيل الثروة والزيادة على الكفاية فإن كان مقصوده استكثار المال وادخاره لا ليصرف فى وجوه الخير ونافع الأعمال له ولأمته فذلك مذموم عند الله والناس أجمعين لأنه إقبال على الدنيا التى حبها رأس كل خطيئة ، فإن كان مع ذلك ظالماً للناس خائناً غاشاً فى المعاملات مقصراً فى الواجبات فذلك الذى خسر الدنيا والآخرة وذلك هو الخسران المبين ، وكانت دنياه وبالا عليه ونقمة لا نعمة ، وإن كان يطلب الزيادة على الكفاية لإصلاح نفسه وعياله ، وصرفها فى أنواع البر والأعمال النافعة مع البعد عن مظالم العباد ، واجتناب الغش والخيانة ، والقيام بما وجب عليه فذلك هو السعيد الموفق المحمود عند الله والناس .

ويبين لهم مضار البطالة ، وأن قعود الرجل فارغاً من غير شغل أو اشتغاله بما لا يعنيه ؛ من سفه الرأى وسخافة العقل ، واستيلاء الغفلة وجهل بآداب الدين القويم ، وأن العمل مهما كان حقيراً فهو أفضل من البطالة ، وسؤال أحد من ذوى المال إن أعطاه فقد حمله ثقل المنة مع ذل السؤال ، وإن منعه فقد باء بذل الخيبة مع ذل السؤال ، حتى قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : « مكسبة فى دناءة خير من سؤال الناس » ، وقال بعض الحكماء : لا تدع

الحيلة فى التماس الرزق بكل مكان ، فالكريم محتال ، والدنىء عيال حمل على من يعوله ، ولا يليق بالرجل القادر أن يرضى لنفسه أن يكون حملا على كاهل المجتمع ثقيلا مرذولا ، يتكفف الناس فهذا أمر ممقوت محتقر ، وخير منه أحقر أنواع السعى كالاحتطاب من رءوس الجبال والفلوات فيبيعه ويمون نفسه وعياله منه كما أرشد إلى كل ذلك هذا الحديث الشريف.

سمع أحد الأدباء رجلا فى الثلث الأخير من الليل يقول :

وأكرم نفسى إننى إن أهنتها وحقك لم تكرم على أحد بعدى

فأعجبه قوله فأتاه حتى وقف على رأسه فإذا به يقم الشارع (زبال) ليبيع القمامة ويمون نفسه وعياله من ثمنها . فقال : أنت تقول : أكرم نفسى ؟ فأى إكرام أنت فيه مع ما تصنع من جمع القمامة ؟ فقال له : إليك عنى لقد أكرمتها بهذه الحرفة عن ذل السؤال لمثلك . فقال : صدقت وقبله بين عينيه .

ويبين أن شر أنواع الكسل التعلل بالأمانى الكاذبة والترفع عن صغير الأعمال النافعة طمعاً فى نيل ما هو أشرف منها فى اعتبار بعض الأوهام ، فتضيع على المرء أوقاته ، ويزداد قعوده ، وتخور عزيمته ، وينتهى به الحال إلى الحمق والرذيلة . كان قس بن ساعدة الأيادى يفد على قيصر الروم ويزوره فقال له القيصر يوماً : ما أفضل العقل ؟ قال : معرفة المرء بنفسه : قال : فما أفضل العلم ؟ قال : وقوف الرجل عند علمه . قال : فما أفضل المروءة ؟ قال : استبقاء الرجل ماء وجهه . قال : فما أفضل المال ؟ قال : ما قضى به الحقوق . وصفوة القول : إن العمل على الحياة أس العمران وقوام حياة الفرد والجماعة ، وضمان الشرف ، وأمان من الذلة والمهانة ، وخير فى الدنيا والآخرة . لهذا جاء الدين الحنيف بالحث على العمل ، والتحذير من البطالة والكسل ، وبالله تعالى التوفيق .

* * *

الزواج وعادات الناس

فى الصحيحين عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « تنكح المرأة لأربع : لمالها ، ولحسبها ، ولجمالها ، ولدينها ، فاظفر بذات الدين تربت يداك » .

النكاح ركن عظيم من أركان الحياة الاجتماعية التى لأجلها خلق الله تعالى هذا النظام الكونى ، ووضعت لها القوانين العادلة والشرائع السماوية على اختلاف أنواعها ، فإنه السبب الأعظم فى بقاء النوع الإنسانى على أحسن وجه وأكمل نظام والوسيلة الشريفة لتكوين الأسر ، وسبيل إلى التآلف والتعاون بين أفراد الأمم ، بل صلة الزواج أقوى صلة ، فإنه ينقل المودة بين أهل كل من الزوجين حتى يكون الكل رابطة واحدة وتصير كل عشيرة عوناً وعضداً للأخرى على درء المضار وجلب المنافع ، كما أنه موجب للعفة وحصن للنفس من الوقوع فى المناهى وصيانة للمرأة عن الهلاك بالنفقة والسكنى واللباس : فإنها عاجزة عن الكسب لا تقوى على ما يأتيه الرجل من ضروب السعى وتحمل المشاق فى سبيل الحصول على الزاد ومرافق الحياة وصيانة للأولاد أيضاً عن الهلاك ؛ فإنه لولا النكاح لاختلطت المياه واشتبهت الأنساب وضاعت الأولاد لعدم من يدعيها وهذا هو الوأد الخفى ، بل أشد أنواع القتل . وبالجملة فإن فى النكاح فوائد جليلة ومصالح كثيرة من حفظ الفروج ودفع التباغض والتحاسد ، وقطع النزاع المفضى إلى حدوث الفتن والاقتتال ، ففيه حفظ النوع البشرى عن الهلاك والانقراض وتكثير عدد الموحدين لله تعالى فى أرضه على وجه يزيد فى عمرانها وصلاحها ، هذا وقد جرت عادات الناس بأنهم يرغبون فى زواج المرأة لواحد من الأغراض الآتية :

« لمالها » : ولو كانت وضيعة دميمة فاجرة ؛ لأنها إذا كانت ذات مال فقد تستغنى بمالها عن مطالبة بعلها بما يحتاج إليه غيرها من النساء ،

وقد يرزق منها بولد فيعود إليه مالها بالإرث ، (وهنا) يشرح للناس ما فى ذلك من المتاعب وكدر العيش ، فإن ذات المال منهن طاغية ما لم يكن لها دين يمنعها عن الرذائل وسوء الخلق ، وما فى ذلك من عكس الآية الإلهية ، فإنه تعالى جعل الرجال قوامين على النساء قيام الولاة على الرعية ، وملك الرجل ناصية المرأة بأمرين :

أحدهما : وَهبيٌّ ذكره الله تعالى بقوله : « . . **بما فضل الله بعضهم على بعض** » . من رجحان العقل وزيادة الدين والحظ فى الميراث والقوة على الأعمال والجهاد وإقامة الشعائر وأهلية الولايات والنبوة والتزوج بأربع من النساء وانتساب الولد إليه .

الثانى : ذكره تعالى بقوله : « . . . **وبما أنفقوا من أموالهم** » أى بسبب ما أخرجوا لنكاحهن من الأموال فى المهور والنفقات. وبذلك كانت للرجال عليهن درجة ، فأولئك الذين يطلبون المرأة لمالها حتى سفهاء ضعاف الثقة بالله رضوا لأنفسهم فى سبيل هذا الحطام الفانى بالذل والإهانة إن تم لهم الانتفاع بمالها . وعلى الجملة : إن كان النكاح لأجل المال وكان أقوى الدواعى إليه كان المال هو المنكوح فإن اتفق معه أحد الأسباب الباعثة على الائتلاف جاز أن يثبت العقد وتدوم الألفة وإن تجرد عن غير المال . فأخلق بالعقد أن ينحل وبالألفة أن تزول سيما إذا غلب الطمع وقل الوفاء .

« **ولحسبها** » : أى شرفها والحسب فى الأصل الشرف بالآباء وبالأقارب ، مأخوذ من الحساب لأنهم كانوا إذا تفاخروا عدوا مناقبهم ومآثر آبائهم وقومهم وحسبوها، فيحكم لمن زاد عدده على غيره . وهنا يبين الحسب الممدوح والمذموم ويرغب فى الأول وينفر من الثانى، كما يحذر من طلب الدنيئة كبنت الزنا وبنت الفاسق واللقيطة ومن لا يعرف لها أصل ، فإنه مكروه . روى الحاكم : « تخيروا لنطفكم فإن العرق دساس » أى فلا تضعوها إلا فى أصل طاهر ، لأن العرق نزاع ينزع إلى أصل أمه وطباعها ، وإجمالا فإنها سترنى أولادها وتؤدبهم فإذا لم تكن من بيت شريف لم تحسن التأديب والتربية وكانت وبالا على بعلها وعيالها .

« **ولجمالها** » : لأن الجمال مطلوب فى كل شىء لاسيما فى المرأة التى

تكون قرينة وعشيرة . روى الحاكم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « خير النساء من تسر إذا نظرت وتطيع إذا أمرت » فإن كان النكاح رغبة فى الجمال فذلك أدوم ألفة من المال لأن الجمال صفة لازمة والمال صفة زائلة ، فإن سلم الجمال من الإدلال المفضى إلى الملل دامت الألفة واستحكمت الوصلة ، لكنهم كرهوا الجمال الباهر لما يحدث عنه من الإدلال المؤدى إلى الوقوع فى قبضة الإذلال .

« ولدينها » : وهذا هو الأصل ، وبه ينبغى أن يقع الاعتناء فإنها إن كانت ضعيفة الدين فى صيانة نفسها عن الخسائس وفرجها عن المحارم أزرت بزوجها وسودت وجهه وشوشت بالغيرة قلبه وتنغص بذلك عيشه ، فإن سلك سبيل الحمية والغيرة بقى فى بلاء ومحنة ، وإن تساهل كان متهاوناً بدينه وعرضه ومنسوباً إلى قلة الحمية والأنفة . وإذا كانت مع الفساد جميلة كان بلاؤها أشر وفتنتها عمياء وداهيتها صماء : إذ يشق على الزوج مفارقتها فلا يصبر عنها ولا يصبر عليها ، فهو إذاً فى نارين مبتلى ببلاءين . وإن كانت فاسدة الدين باستهلاك ماله أو بوجه آخر لم يزل العيش مشوشاً معه . ولهذا بالغ رسول الله صلى الله عليه وسلم فى التحريض على ذات الدين بقوله : « فاظفر بذات الدين تربت يداك » .

وهنا يذكر أن النساء على قسمين : « صالحات » مطيعات لأزواجهن تصون عرضها وتحفظ مال زوجها فى غيبته كما قال تعالى : « فالصالحات قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله »(١) وروى أبو داود أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « خير النساء امرأة إن نظرت إليها سرتك ، وإن أمرتها أطاعتك ، وإن غبت عنها حفظتك فى مالك ونفسها » . ثم تلا هذه الآية . فالدنيا متاع وخير متاعها المرأة الصالحة فإذا رزق العبد امرأة كذلك فليعلم أنها نعمة من الله سيقت إليه « وفاسدات » بليات مائلات مميلات كما قال تعالى : « واللاتى تخافون نشوزهن » عصيانهن . وأصل النشوز التكبر والارتفاع ومنه النشز للمكان المرتفع . وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « صنفان من أهل

(١) سورة النساء الآية ٣٤ .

النار لم أرهما : قوم معهم سياط كأذناب البقر يضربون بها الناس ، ونساء كاسيات عاريات مميلات مائلات رءوسهن كأسنمة البخت المائلة لا يدخلن الجنة ولا يجدن ريحها وإن ريحها ليوجد من مسيرة كذا وكذا » ، « كاسيات » تستر بعض بدنها وتكشف بعضه إظهاراً لجمالها ونحوه أو تلبس ثوباً رقيقاً شفافاً يصف لونها « مائلات » يمشين متبخترات « مميلات » لأكتافهن وقيل : مائلات يمتشطن المشطة الميلاء وهى مشطة البغايا ، ومميلات يمشطن غيرهن تلك المشطة « كأسنمة البخت » أى يعظمنها بلف عصابة ونحوها . « لم أرهما » أى فى حياته صلى الله عليه وسلم . والحديث من علامات النبوة ، فقد وجد الصنفان فى هذا الزمان بالمشاهدة .

وجملة القول : إن اللائق بذوى المروءة وأرباب الديانة أن يكون الدين مطمح نظرهم فى كل شىء لا سيما فيما يدوم ويعظم خطره ، فلهذا اختاره صلى الله عليه وسلم بأكبر وجه وأبلغه حيث عبر بالظفر الذى هو غاية البغية ومنتهى الاختيار ، وبالطلب الدال على تضمن المطلوب لنعمة عظيمة وفائدة جليلة ، فإن ذات الدين تربح الرجل وتعينه على خيرى الدنيا والآخرة . روى ابن ماجه عن ابن عمر مرفوعاً : « لا تتزوجوا النساء لحسنهن فعسى حسنهن أن يرديهن ، ولا تتزوجوهن لأموالهن فعسى أموالهن أن تطغيهن ، ولكن تزوجوهن على الدين ، ولأمة سوداء ذات دين أفضل « تربت يداك » إن خالفت ما أمرتك به وهى كلمة جارية على ألسنتهم لا يريدون بها حقيقة الدعاء والمقصود منها هنا الحث على ذات الدين فيوافق قوله تعالى : « وأنكحوا **الأيامى منكم والصالحين من عبادكم وإمائكم**»(١) إذ الصالح هو صاحب الدين. وهنا يبين أن المقصود من الحديث النهى عن مراعاة الجمال وغيره مجرداً عن الدين فلا ينافى استحباب ذلك فى المرأة بدليل أنه صلى الله عليه وسلم أمر من يريد التزوج بالنظر إلى المرأة قبل الخطبة ، وهو لا يفيد معرفة الدين ، وإنما يعرف به الجمال أو القبح ، فعن المغيرة رضى الله عنه « أنه خطب امرأة فقال النبى صلى الله عليه وسلم : انظر إليها فإنه أحرى أن يؤدم بينكما »

---

(١) سورة النور الآية : ٣٢ .

رواه الترمذى وحسنه ويؤدم : أى تدوم بينكما المودة والألفة. والسر فى كون ذلك قبل الخطبة أنه لو كان بعدها فلربما أعرض عنها فيؤذيها . وينظر الخاطب من الحرة الوجه والكفين فقط لأن الوجه يدل على الجمال والكفين على خصب البدن ، وتمامه فى كتاب الإبداع فى مضار الابتداع فى الفصل الحادى عشر فى بدع المعاشرة والعادات .

وينفر الناس من طلب المرأة لغير الدين ومن الغلو فى المهر بنحو قوله صلى الله عليه وسلم : « من نكح المرأه لمالها وجمالها حرم مالها وجمالها ، ومن نكحها لدينها رزقه الله مالها وجمالها » ، وقوله صلى الله عليه وسلم : « من تزوج امرأة لعزها لم يزده الله إلا ذلا ، ومن تزوجها لمالها لم يزده الله إلا فقراً ، ومن تزوجها لحسبها لم يزده الله إلا دناءة ، ومن تزوج امرأة لم يرد بها إلا أن يغض بصره ويحصن فرجه أو يصل رحمه بارك الله له فيها وبارك لها فيه » رواه الطبرانى فى الأوسط ، وقوله : « أعظم النساء بركة أيسرهن صداقاً » ، وقال عروة ، رضى الله عنه ، وأنا أقول من عندى : أول شؤمها أن يكثر صداقها .

ويبين أن على الولى أن يراعى خصال الزوج قال صلوات الله وسلامه عليه : « إذا خطب إليكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه إن لا تفعلوا تكن فتنة فى الأرض وفساد كبير » رواه الترمذى من حديث أبى هريرة رضى الله عنه . فلا يزوج كريمته من ساء خلقه أو ضعف دينه أو قصر عن القيام بحقها ، فإن النكاح رق فلينظر الرجل أين يضع كريمته . فالاحتياط فى حقها أهم لأنها رقيقة ولا مخلص لها منه إلا بسلطان الدين ، ومن زوج ابنته فاسقاً أو سيء الخلق فقد جنى عليها ، وأساء إليها ، وتعرض لسخط الله بما قطع من حق الرحم وسوء الاختيار . قال رجل للحسن : قد خطب ابنتى جماعة فمن أزوجها ؟ قال : من يتق الله فإنه إن أحبها أكرمها ، وإن أبغضها لم يظلمها . وفى الأثر : من زوج كريمته من فاسق فقد قطع رحمها . وفى الحكم المأثورة : لاتزوج كريمتك إلا من عاقل ذى دين إن أحبها أكرمها ، وإن أبغضها لم يظلمها .

وهنا يبين ما لكل من الزوجين على الآخر من حقوق الزوجية كأن

يقول له : عليها ان لا تمنعه نفسها ، وأن تطيع أمره ، وأن لا تخرج إلا بإذنه ؛ وإلا لعنها الله والملائكة حتى تتوب أو ترجع ، وأن لا تعطى من بيته شيئاً إلا بإذنه وإلا كان له الأجر وعليها الوزر ، وأن لا تدخل فيه من يكره ، وأن لا تخونه فى نفسها أو ماله ، وأن تكون قانعة منه بما قسم الله قل أو كثر ، قائمة بخدمة الأولاد وإصلاح البيت بالمعروف ، كاتمة لسره قليلة المراجعة له .

ولها عليه النفقة والكسوة بحسب حاله ، والسكنى بين قوم صالحين ، وأن يتعلم ويعلمها ما تحتاج إليه من أمر دينها .

وهنا أيضاً يذكر أنه ينبغى للوالدين تعليم الأولاد حقوق الزوجية وآداب المعاشرة ، فمتى عرف كل من الزوجين ما له وما عليه نحو صاحبه وقام كل منهما بواجبه كان ذلك بلا ريب أدوم للألفة ، وأبقى للهناء والصفاء .

وإليكم وصية أب حكيم لابنته عند زفافها : روى صاحب القوت والبيهقى فى الشعب عن أسماء بن خارجة الفزارى — وكان من حكماء العرب — أنه قال لابنته عند زفافها إلى زوجها : (يا بنية قد كانت والدتك أحق بتأديبك منى أن لو كانت باقية ، أما الآن فأنا أحق بتأديبك من غيرى فافهمى عنى ما أقول : إنك خرجت من العش الذى فيه درجت ، وصرت إلى فراش لا تعرفينه ، وقرين لا تألفينه . فكونى له أرضاً) مطيعة أو ذليلة منقادة ، أو هينة (يكن لك سماء) يظل عليك برأفته ورفعته أو يمطر عليك بإحسانه ونعمه ، (وكونى له مهاداً) فراشاً (يكن لك عماداً) تستندين إليه ، (وكونى له أمة يكن لك عبداً ولا تلحفى به) لا تلحى عليه فى شىء (فيقلاك ولا تباعدى عنه) كناية عن امتناعها عنه فى الفراش (فينساك) يغفل عنك ، فإن من بعد عن العين بعد عن القلب (إن دنا منك فادنى منه) بالمداعبة والانبساط ، (وإن نأى عنك) بقبض وهيبة (فابعدى عنه) أى كونى من فلتاته على حذر ، (واحفظى أنفه وسمعه وعينه) فلا يشم منك إلا طيباً ولا يسمع إلا حسناً ولا ينظر إلا جميلا ، زينا . إشارة إلى حسن الهيئة (وكونى كما قلت لأمك ليلة ابتنائى بها) :

خذ العفو منى تستديمى مودتى	ولا تنطقى فى ثورتى حين أغضب
ولا تنقرينى نقرة الدف مرة	فإنك لا تدرين أين المغيب

ولا تكثرى الشكوى فتذهب بالهـوى فيأباك قلبي والقلوب تقلب
فإنى رأيت الحب فى القلب والأذى إذا اجتمعا لم يلبث الحب يذهب

هكذا تكون الآباء الرحماء والحكماء الأكياس .

ولما تزوج الحارث بن عمر ملك كندة ابنة عوف بن محلم الشيبانى وأرادوا أن يحملوها إلى زوجها قالت لها أمها :

أى بنية إن الوصية لو تركت لفضل أدب تركت لذلك منك ، ولكنها تذكرة للغافل ومعونة للعاقل ، ولو أن امرأة استغنت عن الزوج لغنى أبويها وشدة حاجتهما إليها كنت أغنى الناس عنه ، ولكن النساء للرجل خلقن ولهن خلق الرجال — أى بنية : إنك فارقت الجو الذى منه خرجت ، وخلفت العش الذى فيه درجت ، إلى وكر لم تعرفيه ، وقرين لم تألفيه ، فأصبح بملكه عليك رقيباً ومليكاً . فكونى له أمة يكن لك عبداً وشيكا ، يا بنية احملى عنى عشر خصال تكن لك ذخراً وذكراً : الصحبة بالقناعة ، والمعاشرة بحسن السمع والطاعة ، والتعهد لموقع عينه ، والتفقد لموضع أنفه . فلا تقع عينه منك على قبيح ، ولا يشم منك إلا أطيب ريح ، والكحل أحسن الحسن ، والماء أطيب الطيب المفقود ، والتعهد لوقت طعامه ، والهدو عنه عند منامه ، فإن حرارة الجوع ملهبة ، وتنغيص النوم مبغضة ، والاحتفاظ ببيته وماله ، والأرعاء على نفسه وحشمه وعياله ، فإن الاحتفاظ بالمال حسن التقدير ، والأرعاء على العيال والحشم جميل حسن التدبير ، ولا تفشى له سراً ، ولا تعصى له أمراً . فإنك إن أفشيت سره لم تأمنى غدره ، وإن عصيت أمره أوغرت صدره ، ثم اتقى مع ذلك الفرح إن كان ترحاً ، والاكتئاب عنده إن كان فرحاً ؛ فإن الخصلة الأولى من التقصير ، والثانية من التكدير ، وكونى أشد ما تكونين له إعظاماً يكن أشد ما يكون لك إكراماً ، وأشد ما تكونين له موافقة يكن أطول ماتكونين له مرافقة ؛ واعلمى أنك لاتصلين إلى ما تحبين حتى تؤثرى رضاه على رضاك ، وهواه على هواك ، فيما أحببت وكرهت والله يخير لك . فحملت فسلمت إليه فعظم موقعها منه ، وولدت له الملوك السبعة الذين ملكوا اليمن بعده . وهكذا تكون الأمهات الفضليات وبالله تعالى التوفيق والهداية .

الفصل السادس

نماذج من محاضرات علمية دينية اجتماعية خلقية

إعداد النشء ليكونوا رجالا

الحمد لله خلقنا وسوانا ، وعلى موائد بره وكرمه ربانا ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الذى أدبه ربه فأحسن تأديبه ، وأثنى عليه بقوله جل ثناؤه : « **وإنك لعلى خلق عظيم** »(١) وعلى آله وصحبه الذين صلحت قلوبهم وتهذبت أخلاقهم فدانت لهم مشارق الأرض ومغاربها ، وكانوا هم الفائزين الغالبين .

وبعد : فإنا سنتحدث إليكم فى موضوع له شأنه وخطره فى حياتنا الاجتماعية ألا وهو : إعداد النشء ليكونوا رجالا كاملين ناهضين ، فنقول :

مقدمات :

١ — لا ريب فى أن الإنسان مجبول على حب البقاء ، بل البقاء أحب شىء إليه ، وأشهى شىء لديه ، ولكنه يعلم أنه لا محالة هالك ، وأنه لا بد لوجوده من نهاية . من أجل هذا اقتضت إرادة الله عزت قدرته وجلت حكمته ، أن يجعل له فى نسله بعض العوض عن ذلك ، فإنه يرى بقاءه مستمراً فى نسله وذكراه لم تنقطع بذريته ، فلا يندم على جهاده فى معترك الحياة ، ولا يأسف على مفارقة ما جمعه من مال وعقار ، لعلمه أنه تركه لخلفه الذى هو جزء منه ، فكأنه هو الذى يستمتع به ، وكأنه باق لم يلحقه فناء ، وهذا كله مسلم لدى جميع العقلاء ، فالكل يحب الولد لأنه يرى فيه بقاء لذكراه ، ويوقن أنه خليفته فى هذه الحياة .

٢ — كل إنسان يشعر بالحاجة إلى معين مخلص ، ومساعد أمين يحمل عنه بعضاً من متاعب الحياة ، ويكون عدته عند النوائب ، وردءاً له فى الشدائد ،

---

(١) سورة القلم الآية ٤ .

ولا أحد أجدر من الولد بثقة الوالدين فى هذا المعنى . لهذا كان حب الذرية غريزة قوية فى الإنسان «**زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين**»(١) .

٣ ـ محبة الذرية كغيرها من المشتهيات تارة تكون ممدوحة ، وتارة تكون مذمومة . والأشياء بمآلها وآثارها ، فالممدوحة ما تؤول إلى الخير ، وتفضى إلى نفع المجتمع وبناء العمران ، ولهذا رغب ، صلوات الله وسلامه عليه ، فى نكاح الولود ، وحذر من زواج العقيم ، روى أبو داود وغيره من حديث معقل بن يسار قال : جاء رجل إلى رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، فقال : يا رسول الله إنى أصبت امرأة ذات حسب ونسب ومال ، إلا أنها لا تلد أفأتزوجها ؟ فنهاه ، ثم أتاه الثانية فقال له مثل ذلك ، ثم أتاه الثالثة فقال له : « تزوجوا الولود الودود فإنى مكاثر بكم الأمم » والمذمومة ما تؤول إلى الشر ، وتفضى إلى ضرر الاجتماع وفساد العمران : بارتكاب المظالم ؛ وتعدى الحدود وانتهاك الحرمات لأجلهم ، ومن سوء تربيتهم .

هذا وإن تربية النشء تربية حسنة حكيمة من أهم الفرائض ، وألزم الواجبات التى لا يصح أصلا التهاون فيها ، لشدة خطرها ، وعظم مسئوليتها ، قال تعالى : « **يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً وقودها الناس والحجارة** »(٢) أخرج عبد الرزاق ، وسعيد بن منصور ، وعبد بن حميد ، وغيرهم من حديث على رضى الله عنه فى معنى الآية قال : « علموا أنفسكم ، وأهليكم الخير ، وأدبوهم » . أخرج ابن جرير وابن المنذر من حديث ابن عباس رضى الله عنهما قال : « اعملوا بطاعة الله ، واتقوا معاصى الله ، ومروا أولادكم بامتثال الأوامر ، واجتناب النواهى ، فذلك وقاية لكم ولهم من النار » . وروى ابن ماجه من حديث ابن عباس رضى الله عنهما أن النبى ، صلى الله عليه وسلم ، قال : « الزموا أولادكم ، وأحسنوا أدبهم » فهذا الحديث الشريف أوجب على الآباء مراقبة الأولاد مراقبة دقيقة ، وتأديبهم أحسن الأدب . فعلى الأبوين أن يقوما بهذه المراقبة داخل البيت وخارجه : يحببان إليه النافع من الأعمال ، والطيب من الأخلاق ، وينفرانه من الضار منهما بقدر ما يسعه إدراكه . وروى البيهقى عن أبى رافع : « حق الولد على الوالد أن يعلمه الكتابة والسباحة

---

(١) سورة آل عمران الآية ١٤ (٢) سورة التحريم الآية ٦

والرماية وأن لا يرزقه إلا طيباً » والصبي أمانة فى عنق والديه يسألان عنها فى عرصات(١) القيامة، وقلبه الطاهر جوهرة نقية خالية من كل نقش وصورة، فهو قابل لكل ما ينقش فيه ويغرس، قبول العجينة فى يد الخباز، ومستعد للتوجه به إلى أى جهة، قال صلوات الله وسلامه عليه: « كل مولود يولد على الفطرة، وإنما أبواه يهودانه وينصرانه، ويمجسانه » متفق عليه من حديث أبى هريرة، ومعناه أنه يولد على نوع من الجبلة والطبع المتهيء لقبول الدين، فلو ترك عليها لاستمر على لزومها، ولم يفارقها إلى غيرها، وإنما يعدل عنها من يعدل لآفة من آفات البشر والتقليد بحكم البيئة. ثم تمثل بأولاد اليهود وغيرهم فى اتباعهم لآبائهم والميل إلى أديانهم انحرافاً عن مقتضى الفطرة السليمة، فإن عود الخير وعلمه نشأ عليه، وكان سعيداً فى الدنيا والآخرة، وشاركه فى ثوابه أبواه، وكل معلم له ومؤدب، وإن عود الشر وأهمل إهمال البهائم شقى وهلك فى نفسه، وكان شقاء وبلاء على أمته، وكان الوزر فى رقبة ولى أمره، والقيم عليه.

وأول ما تجب العناية به من أمر الطفل أن يختار له حاضنة مهذبة ومرضعاً صالحة متدينة تأكل الحلال، فإن اللبن الحاصل من الحرام لا خير فيه ولا بركة، فإذا نشأ منه الطفل انعجنت طينته من الخبث فيميل طبعه إلى الخبائث، وهذا سر تحريم لحوم السباع والوحوش من الطير والبهائم، فإذا فصل من الرضاع لوحظ فى تربيته ما يأتى:

١ — من واجب الوالدين أن يعودا الطفل على القليل من الغذاء. ويحولا بينه وبين تناول كل ما يميل إليه من ألوان الأطعمة، فإن أول ما يغلب على الصبي شهوة الطعام، والشره فى الأكل، وذا مضر به.

٢ — أن يمنعاه من النوم نهاراً، فإنه يورث الكسل.

٣ — يمنعانه من أن يأخذ من الصبيان شيئاً بطريق الحيلة، بل يعلم أن الرفعة فى الإعطاء، والدناءة فى الأخذ إن كان الأخذ من أولاد الأغنياء، وإلا فهو لؤم وخسة. كما يمنع من الحلف صادقاً أو كاذباً حتى لا يعتاد ذلك من الصغر:

---

(١) عرصات: جمع عرصة وهى كل موضع واسع لا بناء فيه.

٤ — يعلمانه آداب المجالس وإذا ظهر منه فعل حميد أو خلق جميل كالصدق والعفة والشجاعة مدح به وجوزى عليه بما يشجعه على المثابرة عليه ، وإن ظهر منه فعل ذميم أو خلق قبيح كالكذب والخيانة والجبن ، ذمه أمامه ، وأنبه عليه .

٥ — عندما يبلغ حد التميز يحولان بينه وبين مخالطة الأشرار وفاسدى الأخلاق وغشيان الملاهى وأماكن الخلاعة والفسوق ، ويحببان إليه الاشتغال بما يفيده وينفعه فى دينه ودنياه . من صناعة أو تجارة أو زراعة ، مع تعويده على القيام بالفرائض الدينية بعد تعليمه واجباتها وآدابها(١) .

٦ — أن يترك له فرصة للرياضة حتى لا يسأم العمل وأن يتغاضى عما فرط منه من الهنات الهينة التى لا تؤدى إلى فساد نفسه وخلقه إذا فعلها خفية وكان يخجل من إظهارها ، وإلا وجب تأنيبه عليها كى لا ينشأ على الوقاحة ، وعدم المبالاة بارتكاب المخازى .

٧ — أن يضرب له الأمثال بالأولاد العاملين المجدين ، والشجعان المهذبين وما وصلوا إليه من رقى وسعادة بفضل جدهم واستقامتهم ، وبالأولاد المهملين الكسالى ، والجبناء الأشرار ، مبينا له سبب تأخرهم وشقائهم .

٨ — اجتناب الضرب والتهديد ، فقد ينتجان عكس المطلوب ، ويتركان أثراً سيئاً فى نفس الولد ، فضلا عما يحدثان فيها من الجبن والكذب ، والخيالات الفاسدة ... نعم ! إذا رأى المربى أنه لا يفيد فى الغلام إلا الزجر ولا يصلحه إلا التخويف فلا بأس به ولكن بقدر الحاجة من غير إفراط ، وعلى الجملة فالمربى كالطبيب الحاذق الذى يعرف العلة ويصف لها ما يناسبها من الدواء ، ولكن لا بد من المراقبة الفعلية والملازمة العملية ؛ التى يفيدها الحديث الآتى على أى حال .

٩ — مما يجب التنبه له قيام الأبوين بتنفيذ الخطة التى رسماها للولد عملياً

---

(١) فقد روى الترمذى من حديث عمرو ابن شعيب أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « مروا أولادكم بالصلاة لسبع ، واضربوهم عليها لعشر ، وفرقوا بينهم فى المضاجع » .

بملازمتهم له ملازمة تامة فى تنفيذها كما يشير إليه هذا الحديث الشريف : « الزموا أولادكم » . فلا يكفى مجرد الترغيب والترهيب بالقول وضرب الأمثال

١٠ ــ إذا بلغ الصبى حد الشهوة اشتدت المراقبة حرصاً على سلامة دينه وصحته وعقله ، ومحافظة على أخلاقه وحياته ومستقبله . وأهم ما تعالج به هذه الحالة هو شغله بعمل من أعمال الحياة ، وصرفه عن كل ما يثير الشهوة ويبعثها من مرقدها ، فإذا درج على ذلك وتعود سهل عليه قطع هذه المرحلة آمناً على نفسه ودينه وصحته ومستقبله ، والقول الجامع لكل ما ذكرنا قوله جل ثناؤه : « **يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً وقودها الناس والحجارة** » أى ناراً شديدة تتوقد بالناس وبالحجارة كما يتوقد غيرها بالحطب .

نعم احفظوا أنفسكم منها بأعمالكم الطيبة ، واحفظوا أزواجكم وأولادكم من شرها بوصيتكم وإرشادكم ، وإذا كان الأب يصون ولده من نار الدنيا ؛ فلأن يصونه عن نار الآخرة أحق وأولى بأن يؤدبه ويهذبه . ويعلمه محاسن الأخلاق ، وجلائل الأعمال ، ويحفظه من القرناء السوء .

ومن حق الولد على أبيه أن يحسن أدبه على ما وصفنا ، ويحسن اسمه ويختار أمه ، فقد جاء رجل إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه يشكو إليه عقوق ابنه فأحضر الابن وأنبه على عقوقه لأبيه ، فقال هذا الابن : يا أمير المؤمنين أليس للولد حقوق على أبيه ؟ قال : بلى . قال : فما هى يا أمير المؤمنين ؟ قال : أن ينتقى أمه ، ويحسن اسمه ، ويعلمه الكتاب (القرآن) . فقال : يا أمير المؤمنين إنه لم يفعل شيئاً من ذلك أما أمى فإنها زنجية كانت لمجوسى ، وقد سمانى جعلا (جعرانا) ، ولم يعلمنى من الكتاب حرفاً واحداً ، فالتفت أمير المؤمنين إلى الرجل وقال له : أجئت إلى تشكو عقوق ابنك وقد عققته قبل أن يعقك ، وأسأت إليه قبل أن يسىء إليك ؟ (أى الشر بالشر والبادى أظلم) . وتلك عاقبة من فرط فى الحقوق والواجبات ، ورحم الله والداً أعان ولده على بره بتوفيته ما له عليه من الحقوق ولم يحمله على العقوق بسوء صنيعه ، لأن الوالد إذا كان عادياً جافياً جر الولد إلى العقوق . وقد قيل : ولدك ريحانتك تشمها سبعاً ، وخادمك سبعاً ، ثم هو عدوك أو شريكك ؛ وقريب من هذا قول بعض الحكماء : لاعب ولدك سبعاً ، وأدبه سبعاً ، وصاحبه سبعاً ، ثم اتركه

حبله على غاربه . وقال يزيد بن معاوية رضى الله عنه : أرسل أبى إلى الأحنف ابن قيس فلما وصل إليه قال له : يا أبا بحر ما تقول فى الولد ؟ قال : يا أمير المؤمنين ثمار قلوبنا وعماد ظهورنا ، ونحن لهم أرض ذليلة ، وسماء ظليلة ، وبهم نصول على كل جليلة . فإن طلبوا فأعطهم ، وإن غضبوا فأرضهم ، يمنحوك ودهم ، ويحبوك جهدهم ، ولا تكن عليهم ثقلا ثقيلا فيملوا حياتك ، ويودوا وفاتك ، ويكرهوا قربك ، فقال له معاوية : لله أنت يا أحنف ! لقد دخلت على وأنا مملوء غضباً وغيظاً على يزيد . فلما خرج الأحنف ، رضى عن يزيد ، وبعث إليه بمائتى ألف درهم ، ومائتى ثوب ، فأرسل إلى الأحنف نصف ذلك ، مائة ألف درهم ، ومائة ثوب .

هذا والسعيد من كان أنسه بالله لا بالولد : لما خرج موسى عليه السلام فاراً من فرعون وقومه انتهى إلى مدين على الحال التى ذكر الله تعالى ، وهو وحيد غريب خائف جائع ، قال : يا رب وحيد مريض غريب ! فقيل له : يا موسى الوحيد من ليس له مثلى أنيس ، والمريض من ليس له مثلى طبيب ، والغريب من ليس بينى وبينه معاملة . نسأله تعالى أن يملأ قلوبنا بهدايته ، وأن يستعمل جوارحنا فيما يرضيه ، إن ربى لسميع الدعاء ، وقريب مجيب .

* * *

الاقتصاد

أثره فى الفرد والجماعة

الحمد لله مستوجب الحمد ، خلق بنى الإنسان وسواهم ، وعلى موائد كرمه وجوده رباهم ، ورزقهم من الطيبات ، وابتلاهم بتقلب الأحوال ، ورددهم بين اليسر والعسر والغنى والفقر ، والتبذير والتقتير ، ليبلوهم أيهم أحسن عملا ، وينظر أيهم آثر العاجلة على الآجلة وقدم الدنيا على الآخرة ، والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد نبى الرحمة ومرشد الأمة الذى كانت حياته المثل الأعلى فى جلائل الأعمال ومكارم الأخلاق ، وعلى آله وصحبه الذين سلكوا سبيله ، واهتدوا بهداه .

أما بعد : فإنا سنتحدث الآن فى موضوع له خطره وشأنه فى بناء قومية الأمة ، وحياتها عزيزة قوية ألا وهو (الاقتصاد) والبيان فيه يكون بأمور :

١ — الكشف عن حقيقته وبيان معناه ليقوم البناء على مفهوم ويكون الحكم على معلوم ، ويتبع ذلك أو يتصل به اتصالا وثيقاً للكشف عما يحيط به من طرفيه : الإسراف والتبذير ، والشح والتقتير .

٢ — بيان أثر الاقتصاد فى سعادة الفرد والمجموع .

٣ — عناية الشارع به لما له من الأثر الحسن الحميد ، فى حياة الأمم والشعوب .

٤ — الكلمة الختامية للموضوع . فنقول وبالله التوفيق ، ومنه تعالى الهداية :

الاقتصاد والقصد : التوسط والاعتدال : من قصد فى الأمر قصداً توسط وطلب الأسد ولم يجاوز الحد ، ومنه حديث : « ما عال من اقتصد » أى ما افتقر من لا يسرف فى الإنفاق ولا يقتر ، وحديث : « القصد القصد تبلغوا » أى عليكم بالتوسط فى الأمور تصلوا إلى غاياتكم . والاقتصاد فى عرف الناس ادخار جزء من المال ينفع صاحبه عند الحاجة إليه . وهو وسط بين

طرفين كلاهما ذميم وقبيح عند الله والملائكة والناس أجمعين : إسراف وتبذير ، وشح وتقتير . فالإسراف كالسرف مجاوزة الحد، وهو نتيجة الجهل بمقادير الحقوق ، والتبذير تفريق المال كما يفرق البذر كيفما كان من غير تعمد لمواقعه ، فهو نتيجة الجهل بمواقع الحقوق ، أي أنه ينفق المال ولا يعرف أين ينفق، ولا أن يحسن التصرف فيه بإصابة مواضعه . والإسراف والتبذير في نظر الدين معناهما واحد ، لأن مآلها واحد، وهو إنفاق المال في غير مواضعه ، فقد أخرج ابن المنذر وغيره من حديث ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم ، أنه قال : « التبذير إنفاق المال في غير حقه » ومعناه أن المبذر يجهل مواقع الحقوق التي تستحق إنفاق المال فيتجاوزها إلى غيرها أو يعلمها ، ولكن تدفعه شهوته الخبيثة إلى مجاوزتها .

وروى عن ابن عباس وغيره ، أن الإسراف كالتبذير إنفاق المال في مساخط الله تعالى ، فهو ذميم وقبيح شرعاً وعقلا لمجاوزته الحد الذي حده الحكيم العليم لعباده في إنفاق المال بوضعه في غير ما رسم له ، ولذا قال الإمام الشافعي رضي الله عنه : التبذير إنفاق المال في غير حقه . ولا تبذير في عمل الخير ، أما الشح والتقتير أو الإقتار فهو إمساك المال والضن به عن الواجبات التي لا بد منها ، والبخل به على نفسه وعياله ، وهو أيضاً ذميم وقبيح ، وتفريط مهين ومشين . فتحصل من هذا البيان أن الاقتصاد الحسن الجميل وقع وسطاً بين جارين كلاهما قبيح وذميم عند الله والملائكة والناس أجمعين .
قال بعض الأدباء :

ولا تك فيها مفرطاً أو مفرطاً   كلا طرفي قصد الأمور ذميم

وقال :

تسامح ولا تستوف حقك كله   وأبق فلم يستوف قط كريم
ولا تغل في شيء من الأمر واقتصد   كلا طرفي قصد الأمور ذميم

أثره في سعادة الفرد والجماعة

وأما أثره في ذلك فظاهر جلي وواضح لا خفاء فيه ، فقد دل البحث الصحيح على أن المدنية الحاضرة قامت على أربعة أركان : العلم ، والمال

والنظام والأخلاق الفاضلة . وإن كل أمة تجردت من العلم والمال والنظام والأخلاق الكريمة كان الشقاء حليفها والتأخر نصيبها . والمشاهدة أصدق شاهد . وليس بعد العيان بيان ، وهل يكون مع الجهل والفقر والفوضى وسوء الأخلاق في الناس خير ؟ اللهم لا . فالمال خير عون لصاحبه ، وأقوى عامل على رقى الأمم ونهوض الشعوب . وبه تكون الأمة عزيزة قوية ؛ جليلة مهيبة ، محترمة في نظر الأمم ، وبفقد المال تصبح الأمة ذليلة ضعيفة . فاقدة الهيبة ساقطة الحرمة والكرامة ، مستعدة لأن تصير فريسة للأقوياء ، وغنيمة للمستعمرين ، ولقمة في أفواه الظالمين .

لهذا وأمثاله عنى الشارع الحكيم الرحيم بأمر الاقتصاد . وحمل الناس عليه ، ونعى على الإسراف والتبذير . وسفه أحلام المسرفين والمبذرين ، كما نعى على الشح والتقتير ، وقبح من شأن المقترين وأهل الشح ، قال تعالى : في وصف أولى الحزم والكمال : « **والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواماً** »(١) وسطا . أخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس أنه قال في تفسير الآية : هم المؤمنون لا يسرفون فينفقوا في معصية الله ، ولا يقترون فيمنعوا حقوق الله . ومعناه أن من أنفق في غير طاعة الله فهو الإسراف ، ومن أمسك عن طاعة الله فهو الإقتار ، ومن أنفق في طاعة الله فهو القوام . فالآية كما ترى حث على الاقتصاد وسلوك حد الاعتدال في صرف المال ، وهو الوسط الممدوح .

وقال تعالى : **وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ولاتبذر تبذيراً . إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين وكان الشياطين لربه كفوراً** »(٢) في الآية إرشاد إلى مواضع الإنفاق وهو أن يكون في مواضع البر والخير وأداء الواجبات التي فرضها الله على الأغنياء ، فتجب صلة الأقارب بما تبلغ إليه القدرة ، وحسبما يقتضيه الحال ، ومساعدة المساكين وأبناء السبيل بالتصدق عليهم ، أو مما لهم من صدقة الفرض ، لأنهم من الأصناف الثمانية ، وفيها نعى على التبذير وأهله بجعلهم من إخوان الشياطين ، والمراد المماثلة التامة في عمل الشر ، أو أنهم قرناؤهم

---

(١) سورة الفرقان الآية : ٦٧ .
(٢) سورة الإسراء الآية ٢٦ ، ٢٧ .

فى كفران أنعم الله التى أنعمها الله عليهم ، فبدلا من أن يشكروه عليها بامتثال أمره فى شأنها وضعوها فى غير مواضعها ، فانقلبت عليهم نقماً ، وكانوا فى العذاب مع الشياطين « . . . **وكان الشيطان لربه كفوراً** » كثير الكفران عظيم التمرد عن الحق ، لأنه مع كفره لا يفعل إلا الشر ، ولا يدعو إلا إليه . ولا يوسوس إلا بما لا خير فيه .

وقال تعالى : « **ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط**»(١) والمراد نهى الإنسان أن يمسك إمساكاً يصير به مضيقاً على نفسه ، وعلى أهله وعياله ، وأن يتوسع فى الإنفاق توسيعاً لا حاجة إليه ، بحيث يجاوز الحد المعقول فيه ، فهو نهى عن جانبى الإفراط والتفريط ، وينتج منه مشروعية التوسط ، وهو العدل الذى ندب الله إليه عباده . وقد مثل الله تعالى فى هذه الآية حالة الشحيح بحال من ربطت يده إلى عنقه بحيث لا يستطيع التصرف بها ، ومثل حال من يجاوز الحد فى الإنفاق بمن يبسط يده بسطاً لا يتعلق بسببه فيها شىء مما تقبض عليه الأيدى ، وهو تمثيل بليغ وتصوير شنيع . ثم بين عاقبة الطرفين المنهى عنهما فقال : «**فتقعد ملوماً** »عند الله والناس بما أنت عليه من الشح والتقتير « **محسوراً** » بسبب ما كان منك من الإسراف والتبذير منقطعاً عن المقاصد بسبب ما جلبته على نفسك من الفقر والفاقة ، حتى أصبحت صفر اليدين . والمحسور فى الأصل المنقطع عن السير . من حسره السفر . إذا بلغ منه . والبعير الحسير هو الذى ذهبت قوته ، فلا انبعاث به ومنه« **ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير** »(٢) أى كليل منقطع .

وجملة القول : فالمال عماد الحياة الأولى ،وقد يكون سعادة فى الآخرة ، فإذا جمعه العبد من طريق شريف حلال وحافظ عليه على حال ترضاه الشريعة الغراء ، وأنفقه كما جمعه فى طريق حلال ، فهو ممدوح وصاحبه مأجور ومحبوب لدى الله والناس أجمعين . وإن جمعه من طريق وضيع وحرام وأضاعه فى لذاته وشهواته ، أو حرم منه نفسه وعياله فهو مذموم وصاحبه مكروه لدى الله والناس ، والله الهادى إلى سواء السبيل .

---

(١) سورة الإسراء الآية : ٢٩ .
(٢) سورة الملك الآية : ٤ .

الحسد وآثاره السيئة فى المجتمع

قال حفظه الله بعد أن حمد الله تعالى وأثنى عليه، وصلى وسلم على رسول الله صلوات الله وسلامه عليه :

الكلام على الحسد من وجوه :

١ – بيان حقيقته والكشف عن معناه ليكون الحكم على معلوم ، والبناء على أساس واضح مفهوم .

٢ – بيان ما جاء فى التحذير منه من الكتاب والسنة وآثار السلف الصالح.

٣ – الأسباب التى ينشأ عنها والآثار السيئة التى تعود على بنى الإنسان منه .

وقبل الكلام عليه من هذه الوجوه نذكر مقدمات لها بالموضوع صلة :

الأولى : كلنا يعلم ويؤمن بأن الله جلت حكمته وعزت قدرته قد أنزل الكتاب المبين هدى للناس ورحمة . نعم إنه يهدى من تمسك به ، ويوصل من لم ينحرف عنه إلى السعادة فى هذه الحياة وفى تلك الحياة ، وفى ذلك رحمة منه تعالى بخلقه وإحسان عظيم منه إليهم **« إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً كبيراً . وأن الذين لايؤمنون بالآخرة أعتدنا لهم عذاباً أليماً »**(١) أى شأنه الهداية إلى ذلك . وأقوم الطرق ، وأعدلها هى ملة الإسلام ، والدين القويم .

جاء هذا الدين بالأوامر والنواهى ، ووعد القائمين عليها والحافظين لها بحسن الحال والمآل ، وتوعد المخالفين لها والمتمردين عليها بوخامة العاقبة فى العاجل والآجل **« من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون »**(٢) وقال تعالى : **« فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم »**(٣) كل هذا

---

(١) سورة الاسراء الآية : ٩ ، ١٠ .
(٢) سورة النحل الآية : ٩٧ .
(٣) سورة النور الآية : ٦٣ .

ليسوق الناس من طريق الترغيب إلى الخير فيغنموا فيربحوا، ويمنعهم بطريق الترهيب عن الشر، فيسلموا من مخاطر الشقاء ونكد العيش ، وهو فى كل ذلك حكيم عليم ، وغنى عادل .

الثانية : لا ريب أنه لا طيب للحياة ولا هناء للعيش إلا إذا سلمت القلوب من الأذى وبرئت من الأمراض الاجتماعية كالكبر والحقد والحسد ، وحل محلها التواضع والمحبة والرحمة .

الثالثة : لا يجتمع فى قلب المرء إيمان صحيح وحسد لنعمة على مخلوق إلا كما يجتمع الصبر مع العسل . ولا شك أن المعجون المركب من الصبر والعسل نكرة مجهولة وحقيقة غير معروفة لأحد . وذلك لأن الرضاء عن الله جل وعلا فى قضائه وفعله جزء من الأجزاء التى لا يتم الإيمان بدونها ، ولا تكون حقيقة الإيمان إذا لم يوجد أى واحد منها . كما جاء فى حديث الإيمان . إذا عرفت هذا فنقول :

الوجه الأول

فى بيان حقيقة الحسد ومعناه

قال العلماء : الحسد كراهة نعمة الغير ،وتمنى زوالها عنه ، سواء أتمنى انتقالها إليه أم لا ، وهو قبيح بنوعيه إلا أن الثانى أقبح وأشد حرمة من الأول . وهو ألم فى نفس الحاسد لا يسكن إلا إذا زالت نعمة المحسود . قال سيدنا معاوية رضى الله عنه : « كل أحد أقدر على رضاه إلا حاسد النعمة فإنه لا يرضيه إلا زوالها » وقال عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه : « ما رأيت ظالماً أشبه بمظلوم ، من الحاسد : غم دائم ونفس متتابع » .
وأما الحسد فى عرف العامة فهو عبارة عن نظرة العين إلى الشىء نظرة إعجاب واستحسان ، وقد يكون ذلك عن حسد فى النفس وكراهة للنعمة ، وسنتكلم عليه ، إن شاء الله تعالى ، واتسع الوقت .

هذا الحسد المذموم وذلك المرض المشئوم هو الداء العضال الذى ابتلى به كثير من الناس اليوم ، فأوغر صدورهم وأفسد ضمائرهم وفرق شملهم ومزق

وحدتهم ، ففشلوا وذهبت ريحهم وتلاشت قوتهم حتى ذلوا واستكانوا وطمعت فيهم أعداؤهم . وهو أول ذنب عصى الله تعالى به ، لأن إبليس لم يحمله على ترك السجود لأبينا آدم عليه السلام إلا الحسد ، كما أن قابيل لم يحمله على قتل أخيه هابيل سوى الحسد . وأى معصية تزيد على كراهتك لراحة مسلم من غير أن يكون لك منه مضرة ، أو ينالك منه سوء .

الوجه الثانى

فى تحذير الشارع منه

لمثل ماذكرنا نفر الشارع منه ، وجعله الله تعالى من أوصاف المنافقين إذقال تعالى « **وإذا لقوكم قالوا آمنا وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ قل موتوا بغيظكم إن الله عليم بذات الصدور . إن تمسسكم حسنة تسؤهم وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئاً إن الله بما يعملون محيط** »(١) الحسنة النعمة ، كالرخاء والخصب والنصرة والغنيمة . والسيئة : المصيبة ، كالضيق والجدب والهزيمة ، والأول الحسد والثانى الشماتة . وقد دلت هذه الآية الكريمة على أنهما لا يضران المحسود ولا المشموت به إذا اتقى ما حرم الله عليه وابتعد عما عنه نهاه ، وصبر على مشاق التكاليف وعداوة المنافقين ، ولم ينتقم منهم لنفسه بل فوض الأمر فيهم إلى الله تعالى . وقال أيضاً فى المنافقين وبيان ما تكنه نفوسهم القذرة وتحويه ضمائرهم الخبيثة من الكيد والمكر وأنواع الأذى لجماعة المسلمين « .. **ودوا ما عنتم قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفى صدورهم أكبر** »(٢) أى تمنوا عنتكم أى مشقتكم وشدة ضرركم ، قد ظهرت البغضاء فى كلامهم لأنهم كانوا لا يتمالكون مع مبالغتهم فى ضبط أنفسهم أن ينفلت من ألسنتهم ما يفضح أمرهم ، ويعلم به بغضهم للمسلمين . فالحاسد مهما بالغ فى إخفاء ما انطوت عليه نفسه للمحسود من الكراهة ، فهو لا محالة مفضوح ، ونار الحسد تتغلب عليه ، ويظهر حسده على وجهه ، وفى عينيه ، ولسانه .

---

(١) سورة آل عمران الآية ١١٩ ، ١٢٠ .
(٢) سورة آل عمران الآية ١١٨ .

وقال تعالى فى وصف الأنصار المخلصين لله والرسول والناس أجمعين : « **والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا** » (١) أى لاتضيق صدورهم من رؤية النعمة عند إخوانهم ولا يغتمون لها ، فأثنى عليهم بسلامة قلوبهم من الأذى وصفاء نفوسهم وطهارة ضمائرهم من أدران الحسد .

وقد حذر منه رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، فقد روى أبو داود من حديث أبى هريرة رضى الله عنه أنه ، صلى الله عليه وسلم ، قال : « إياكم والحسد فإن الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب » والأكل هنا عبارة عن عدم القبول ، وأن حسنات الحاسد مردودة عليه وليست بثابتة فى صحيفة عمله الصالح . ذلك أن الحسد فى المعنى اعتراض على الله تعالى فيما لا عذر فيه ، لأنه لا تضره نعمة الله على أخيه ، والله تعالى حكيم فى قسمة الحظوظ بين عبيده ولا يضع الشىء فى غير محله ، فكأن الحاسد يعترض عليه تعالى فى قسمة المعيشة بين خلقه ، وينسب ربه للجهل والسفه ، ولم يرض بقضائه ، فلذلك ردت حسناته ، ولم تبق فى ديوان عمله ، ومن ثم قال بعض العارفين : « الحاسد جاحد ، لأنه لا يرضى بقضاء الواحد » . وقال ، صلى الله عليه وسلم ، : « الحسد يفسد الإيمان كما يفسد الصبر العسل » .

وقال فى النهى عن الحسد وأسبابه وآثاره : « لا تحاسدوا ولا تقاطعوا ولا تدابروا ولا تباغضوا وكونوا عباد الله إخواناً » . فإن التباغض من أسباب الحسد والمقاطعة والغيبة من آثاره السيئة ونتائجه المؤلمة . رواه البخارى ومسلم . وقال أنس رضى الله عنه : « كنا جلوساً عند رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، فقال : يطلع عليكم الآن من هذا الفج — الطريق فى الجبل — رجل من أهل الجنة . قال : فطلع رجل من الأنصار تنطف — تقطر — لحيته من وضوئه ، قد علق نعليه فى يده الشمال . فلما كان من الغد قال النبى ، صلى الله عليه وسلم ، مثل ذلك ، فطلع ذلك الرجل ، وقال فى اليوم الثالث ، فطلع ذلك الرجل ، فلما قام النبى ، صلى الله عليه وسلم ، تبعه عبدالله بن عمرو بن العاص فقال له : إنى لاحيت

(١) سورة الحشر الآية ٩ .

أبى — خاصمته فى أمر — فأقسمت ألا أدخل عليه ثلاثاً ، فإن أردت أن تؤويني إليك حتى تمضى الثلاث فعلت . فقال : نعم فبات عنده ثلاث ليال — يرقب أحواله فى حركاته وسكناته — فلم يره يقوم من الليل شيئاً ، غير أنه إذا تقلب على فراشه ذكر الله تعالى ، ولم يقم حتى يقوم لصلاة الفجر . قال : غير أنى ما سمعته يقول إلا خيراً . فلما مضت الثلاث ، وكدت أحتقر عمله قلت : يا عبدالله لم يكن بيني وبين أبى غضب ولا هجرة ، ولكنى سمعت رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، يقول كذا وكذا ، فأردت أن أعرف عملك فلم أرك تعمل عملا كثيراً ، يوجب تلك البشارة العظيمة ، فما الذى بلغ بك ذلك ؟ قال : ما هو إلا ما رأيت ! غير أنى لا أجد على أحد من المسلمين فى نفسى غشاً ولا حسداً على خير أعطاه الله إياه ! ! ! قال عبد الله : فقلت : هى التى بلغت بك ، وهى التى لا نطيق » . رواه أحمد بسند صحيح على شرط البخارى ومسلم . ولا حرج على فضل الله تعالى أن يمنح الخير الكثير على مثل طهارة القلب من درن الغش والحسد . وقال ، صلى الله عليه وسلم : « إنه سيصيب أمتى داء الأمم . قالوا : وما داء الأمم ؟ قال : « الأشر » محركة كفر النعمة « والبطر » محركة الطغيان عند توفر النعمة « والتكاثر » من جمع المال « والتنافس فى الدنيا والتباغض والتحاسد حتى يكون البغى » مجاوزة الحد والاعتداء على خلق الله « ثم يكون الهرج » بفتح فسكون القتل ، رواه ابن أبى الدنيا ، والطبرانى فى الأوسط من حديث أبى هريرة بإسناد جيد ، وفيه تحذير شديد من التشاحن فى الدنيا ، والتحاسد عليها ، فإن ذلك أصل الفتن ، وعنه تنشأ الشرور ، والبلايا .

وحسبكم فى ذم الحسد وقبحه أنه يفسد الطاعات ، ويأكل الحسنات ويبعث على الخطايا والبلايا ، وأن الله تعالى أمر بالاستعاذة من شر الحاسد كما أمر بها من شر الشيطان الرجيم ، وأن الحاسد لا ينال من الناس إلا بغضاً وذماً . ومن الملائكة إلا لعنة ، ولا ينال من الدنيا إلا جزعاً وغماً ، وعند النزع إلا شدة ، وهولا ، وفى الموقف إلا فضيحة ، ونكالا .

من أهمها العداوة والبغضاء . فإن من آذاه إنسان لسبب من الأسباب أبغضه قلبه، وغضب عليه ، ورسخ فى نفسه الحقد ، والحقد يقتضى التشفى والانتقام ، فإن عجز عن التشفى بنفسه ، أحب أن يتشفى منه الزمان ، وربما ظن ذلك كرامة له عند الله تعالى ، فإذا نزلت بعدوه بلية فرح بها وشمت فيه ، وظنها لأجله ، وإذا أصابته نعمة ساءه ذلك؛ لأنها ضد مراده ومرغوبه، وهذا مما وصف الله تعالى به المنافقين كما سبق . والحسد يسبب البغض ، وكثيراً ما يفضى إلى التنازع والتقاتل والسعى فى إزالة النعمة بالطرق الخبيثة والحيل القبيحة ، وهو بغى شديد ، وظلم فاحش .

ومنها : خبث النفس وشحها بالخير لعباد الله تعالى . تجد بعض العاطلين من الناس إذا وصف عنده حال إنسان، وذكر أمامه بخير يشق ذلك عليه ويؤلمه ، وإذا وصف له بسوء، وشر فرح به ، فهو أبداً يكره الخير للناس ويتألم منه ، ويحب لهم الشر والأذى كأنهم يأخذون الخير من بيته وخزائنه ، وهومن فضل الله وجوده « **أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله...** »(١) ويقول العلماء الباحثون : البخيل من يبخل بمال نفسه ، والشحيح هو الذى يبخل بمال غيره على الناس . والحسود شحيح يبخل بنعمة الله تعالى على عباده ويعادى فضل الله على خلقه ، وهذا ليس له سبب ظاهر إلا خبث فى النفس ورذالة فى الطبع ، ومعالجة هذا شديدة عسرة ، لأن الحسد بسائر الأسباب أسبابه عارضة يمكن زوالها فيزول ، وهذا خبث فى الجبلة لا عن سبب عارض فلذا تعسر إزالته .

وأما المنافسة فليست من الحسد المذموم المحرم، وإن سميت باسمه فى لسان الشرع بل هى مباحة فى الأمور الدنيوية ، وقد تكون واجبة فى الأمور الدينية قال تعالى : فى مقام الحث على أسباب الوصول إلى النعيم : « **وفى ذلك فليتنافس المتنافسون** »(٢) أى وفى أحوال هؤلاء الأبرار ، وما صاروا إليه من أنواع النعيم المقيم فليرغب الراغبون بالمبادرة إلى طاعة الله تعالى . وأصل التنافس التغالب فى الشىء النفيس الذى تحرص عليه نفوس الناس ويحب كل واحد أن يستأثر

---

(١) سورة النساء الآية ٥٤ .   (٢) سورة المطففين الآية ٢٦ .

به ويضن به على غيره . وفى هذه الآية الكريمة إشارة إلا أن التنافس يجب أن يكون فى مثل ذلك النعيم العظيم الدائم لا فى النعيم الحقير الفانى ، وقال تعالى : **« وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين . الذين ينفقون فى السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين »**(١).أى بادروا إلى ما يوصلكم إلى المغفرة والجنة من أداء جميع الواجبات واجتناب جميع المنهيات والتحلى بالفضائل والتخلى عن الرذائل . وإنما تكون المسابقةعند خوف الفوت كالعبدين يتسابقان إلى خدمة مولاهما إذ يجزع كل واحدويؤلمه أن يسبقه صاحبه إلى مولاه فيحظى بمنزلة لا يحظى هو بها . والمنافسة أن يتمنى المرء أن يكون له مثل ما للغير من غير أن يحب زواله عنه ، فهى فضيلة محمودة منشؤها علو الهمة .

وأما الحسد عند العامة الذى هو عبارة عن نظرة العين فهو من الأسباب العادية التى قد يترتب عليها آثارها من إصابة المعيون على ما صح فى السنة ، روى البخارى من حديث عائشة رضى الله عنها قالت : « أمرنى رسول الله صلى الله عليه وسلم - أو أمر - أن نسترقى من العين » أى بسببها ، وذلك أن المعيان - الحسود - إذا نظر إلى شىء أو إنسان أو حيوان نظرة إعجاب واستحسان مشوب بحسد فقد يحصل للمنظور عاهة أو ضرر بعادة أجراها الله تعالى ، وهل هناك جواهر خفية تنبعث من عينه تصل إلى المعيون كإصابة السم من نظر الأفعى أولا ؟ ذلك أمر لا يقطع بإثباته ولا بنفيه .

والحق أن الله تعالى يخلق عند نظر العائن إليه وإعجابه به ، إذا شاء ما شاء من عاهة أو ألم،أو هلاك ، وقد يصرفه الله عز وجل عنه قبل وقوعه بالرقية المشروعة لا بالعزائم المخترعة والطلاسم المجهولة المعنى . وفى صحيح البخارى من حديث أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى ،صلى الله عليه وسلم ، قال : « العين حق » أى أن الإصابة بها ثابتة موجودة لا يصح إنكارها . وعن أم‌سلمة رضى الله عنها أن النبى ، صلى الله عليه وسلم ، رأى فى بيتها جارية فى وجهها سفعة فقال : « استرقوا لها فإن بها النظرة » رواه البخارى ، والسفعة بفتح السين وسكون الفاء بعدها عين مهملة سواد أو حمرة يعلوها سواد أو صفرة .

---

(١) سورة آل عمران الآية ١٣٣ ، ١٣٤ .

والمراد أن السفعة أدركتها بسبب النظرة وإصابة العين . و « استرقوا لها » اطلبوا من يرقيها. هذا هو الذى يصح اعتقاده، والعمل به، وغيره لا خير فيه. ومما ينفع لدفع شر العائن أن يقول المرء صباحاً ومساء هذا الدعاء : « أعوذ بكلمات الله التامة ، من كل شيطان وهامة، ومن كل عين لامة » . كما صح به الحديث. أو يقول : « أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق » . رواه أصحاب السنن. ومن رأى شيئاً فأعجبه فقال : ما شاء الله، لا قوة إلا بالله لم يضره . راجع الإبداع فى الفصل الثانى عشر .

* * *

الفصل السابع

نماذج من الخطب المنبرية بروح عصرية

أهملنا ديننا فساءت حالنا

الحمد لله كتب العزة والكرامة لمن أطاعه ، وقضى بالذلة والهوان على من عصاه ، وهو العزيز الحكيم ، وأشهد ألا إله إلا الله أنعم علينا بالكتاب المبين والرسول الصادق الأمين « **لقد من الله على المؤمنين إذبعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين** »(١) . « **إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم** » (٢) . فهذب بالكتاب أخلاقنا ، وأصلح به أعمالنا ، وهدانا إلى وسائل الرقى والسعادة فى هذه الحياة ، وفى تلك الحياة ، وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله المبعوث رحمة للعالمين ، والداعى إلى الصراط المستقيم ، اللهم صل وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه الذين تأدبوا بآداب الدين ، ووقفوا عند حدوده . فخضعت لهم رقاب الجبابرة ،وأسقطوا عروش الأكاسرة ، وكانوا هم السادة الفائزين المنصورين .

أما بعد: فقد قال الله تعالى: « **فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون** »(٣). أيها الناس: لقد كانت الأمة الإسلامية فيما مضى متمسكة بكتاب الله ، عاملة بسنة نبيها ، صحيحة فى عقائدها ، صالحة فى أعمالها ، حسنة فى معاملاتها وعاداتها ، كريمة فى أخلاقها ، بصيرة فى دينها ودنياها ، راقية فى آدابها وعلومها ، فكانت عزيزة الجانب ، قوية الشوكة ، جليلة مهيبة ، صاحبة السلطان والصولة على من عداها . واليوم تغير أمرها ، وتبدل حالها ، اختلت عقائدها ، فسدت أعمالها ، ساءت معاملاتها وعاداتها ، تدهورت

---

(١) سورة آل عمران الآية ١٦٤ .

(٢) سورة الرعد الآية ١١ .

(٣) سورة التوبة الآية ٧٠ ، سورة الروم الآية ٩ .

أخلاقها ، جهلت أمر دينها ودنياها ، تأخرت فى علومها وصنائعها ، فصارت ذليلة الجانب ، ضعيفة الشوكة ، ساقطة الكرامة ، فاقدة الهيبة ، مغلوبة على أمرها ، متأخرة فى مرافق حياتها ، تتخبط فى ظلمات الجهل ، وتنقاد للخرافات والأوهام : « **فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون** » وما ذلك إلا لأنها خالفت كتابها ، وانحرفت عن طريق الهادى نبيها ، وسارت وراء هواها ، وفتنت بزخارف الحضارة المزيفة ، والمدنية الكاذبة ، وظنت الإباحة حرية ، والخلاعة رقياً ، فتعدت حدود العقل والدين ، وأغضبت خالق الأرض والسماء ، فساءت حالها ، وسلط عليها عدوها « **فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم** »(١) أيها الناس: لقد ذاقت الأمة وبال أمرها ، وعوقبت بشر أعمالها ، وتجرعت مرارة الذل والهوان ، والتفرق والانحلال . كل ذلك نتيجة لازمة لعدم استقامتنا وانحرافنا عن الصراط المستقيم: « **صراط الله الذى له ما فى السموات ومافى الأرض ألا إلى الله تصير الأمور** »(٢). كل ذلك نازل بنا وواقع علينا ونحن لا نفيق من سكرتنا ، ولا ننتبه من غفلتنا ، ولا نزدجر بالمحن والبلايا ، ولا نعتبر بحوادث الأيام ، لو كان لنا نفوس حية وقلوب يقظة ، لو كان لنا شعور حى وإحساس قوى ، لنبهتنا البلايا ، وأيقظتنا المؤلمات .

أيها المسلم : الدين عقيدة صحيحة ، وعبادات قويمة ، ومعاملات حسنة عادلة ، وأخلاق كريمة ، فهل أنت صحيح العقيدة ، قويم العبادة ، حسن المعاملة ، كريم الأخلاق ؟ هل أنت سائر فى كل أعمالك وأحوالك فى طريق الدين ؟ أم أنت تسير منحرفاً عن الطريق القويم ؟ هل ما نحن عليه اليوم من سوء المعاملة وتهتك النساء وفساد الأخلاق من تعاليم الدين ؟ هل من الدين أن يكون المرء كاذباً محتالا ، أو مرائياً مختالا ، أو مداهناً منافقاً ؟ هل من الدين أن يكون المرء نماماً أو مغتاباً أو لعاناً أو سباباً ، أو غاشاً أو خائناً ؟ هل من الدين أن يكون المرء ناقضاً للعهد ، مخالفاً للوعد ، متكبراً جباراً عنيداً ، مماطلا فى حقوق الناس ؟ هل من الدين أن يكون مهملا لأولاده ، عاقاً لوالديه ، قاطعاً للرحم ، مسيئاً لزوجه ، مؤذياً لجيرانه ؟ هل من الدين أن يكون

---

(١) سورة النور الآية ٦٣ .

(٢) سورة الشورى الآية ٥٣ .

قاسى القلب : لا يرحم مسكيناً ، ولا يكرم يتيما ، ولا يعطف على ذى عاهة أو أرملة ؟ كلا . أين هذا من قوله تعالى : « **واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً** »(١) الآية . كلا ! أين هذا من قول رسول الله، صلوات الله وسلامه عليه : « المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده » .

أيها الناس : ما هذا الفساد فى أمة شعارها الإسلام ، وأساس دينها القرآن؟ ما هذا التدهور الخلقى فى أمة رسولها سيد ولد عدنان ؟ أتحكمت الشهوات فى النفوس فأفسدتها ؟ أم تسلطت الأهواء على العقول فنبذت الفضيلة واعتنقت الرذيلة ؟ « **أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها** »(٢) أرأيتم أن دينكم لا ينهض بكم إلى مراتب الرقى والسعادة . فاتبعتم ديناً غيره ينهض بكم ويسعدكم؟ كلا والله ، لا رقى إلا به ، ولا سعادة إلا به ، ولا فلاح إلا به ، ولا خلاص للناس من مخاطر الشقاء فى الدنيا والآخرة إلا به « **ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين** »(٣).قال صلوات الله وسلامه عليه : « اتق المحارم تكن أعبد الناس ، وارض بما قسم الله لك تكن أغنى الناس ، وأحسن إلى جارك تكن مؤمناً ، وأحب للناس ما تحب لنفسك تكن مسلماً ». رواه أبو داود . واشرح فى الخطبة الثانية قوله، صلوات الله وسلامه عليه : « إن شر الناس عند الله منزلة يوم القيامة من تركه الناس اتقاء فحشه » . ثم تختمها بقولك : أيها الناس : لا خلاص للأمة من هذا الشقاء ، ولا نجاة لها من هذه البلايا ، إلا بإصلاح القلوب واستقامة الأعمال ، وذلك بالرجوع إلى العمل بأوامر الدين ،وإحياء سنة سيد الأنبياء والمرسلين ، قال ، صلوات الله وسلامه عليه : « لقد تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا من بعدى ، كتاب الله ، وسنة رسوله » .

* * *

(١) سورة النساء الآية ٣٦ .
(٢) سورة محمد الآية ٢٤ .
(٣) سورة آل عمران الآية ٨٥ .

« التحذير من الربا »

الحمد لله أعز من أطاعه ، وأذل من عصاه ، وهو العزيز الحكيم ، وأشهد ألا إله إلا الله شديد البطش بالظالمين ، وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله الداعى إلى الصراط المستقيم ، اللهم صل وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه الذين امتثلوا ما أمرهم الله به ، واجتنبوا ما نهاهم عنه ، فعاشوا أعزة أقوياء .

أما بعد : فقد قال الله تعالى : « **يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا مابقى من الربا إن كنتم مؤمنين . فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله وإن تبتم فلكم رءوس أموالكم لاتظلمون ولاتظلمون** »(١) . أيها الناس ، إن الله بالناس لرءوف رحيم ، ومن رحمته تعالى بهم بين لهم النافع والضار ، والحلال والحرام ، فأحل لهم الطيبات وحرم عليهم الخبائث ، وأباح لهم التوسع فى كسب المال من طريق حلال ، وحرم عليهم الربا لأنه من أكبر أسباب الفقر والدمار ، وأقوى عوامل الذل والاستعباد للأمم والشعوب ، لهذا شدد الله الوعيد عليه ، وجعله من أفحش الخبائث ، وأكبر الكبائر ، ونفر الناس من تعاطيه بأبلغ الزواجر . فقال تعالى : « **فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله** »(٢) وأى زاجر أبلغ من جعل المرابى محارباً من الله ورسوله ، لأنه شوه وجه المعروف بأخذه الزيادة عن رأس ماله بغير حق ، وقطع يد التعاون الذى أمر الله به فى قوله : « **. . . وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان واتقوا الله إن الله شديد العقاب** »(٣) فواعجباً كيف يقدم المرء على معاملة من يصيره عرضة للفقر والخراب والذل والهوان ، حيث يسلب ماله شيئاً فشيئاً حتى ينتزع منه جميع أملاكه ، ويصبح ذليلا محزوناً ، ملوماً محسوراً فيا أيها المقترض بالربا ! أما تدرى أنك أوقعت نفسك فى يد ذلك الكفار الأثيم ، الظالم الذى لا يرحم ،

---

(١) سورة البقرة الآية ٢٧٨ ، ٢٧٩ .

(٢) سورة البقرة الآية ٢٧٩ .

(٣) سورة المائدة الآية ٢ .

الذى يأكل مالك وهو مادة حياتك ، وقوام عيشك . فإن كنت تظن أنه بالإعطاء قضى حاجتك ، وفرج كربتك . فقد أوقعك فى ضيق شديد تسوء مغبته ، ولا تحمد عقباه. قل لى بربك أى ضرورة تدعوك إلى الاقتراض بهذه الزيادة المشئومة ، والرزق عند الله مضمون ، وأبوابه كثيرة ؛ وما دام الإنسان حياً لا يعدم قوته .

أيها الناس : إن ذل السؤال أهون من أخذ المال بالربا ، فذل الربا أشنع عند تعذر القضاء ومجىء الدائن مطالباً. أيها المقترض بالربا، إن كنت ممن يرضى بما قسم الله له كفاك فى دنياك ما يدفع عنك ضرورة الحياة ، وإن كنت تحب المظاهر الكاذبة والتفاخر بكثير المال ، فاعلم أن الربا يوقعك فى دين ثقيل ، وهم دائم ، وذل مهين ، وعذاب عظيم ، وفقر أليم . قال لقمان لابنه : يا بنى إياك والدين فإنه هم بالليل وذل بالنهار . أترضى لنفسك أن تشقى فى جمع مالك ، وتنصب فى تحصيل ثمرات أرضك وعقارك ، ويفوز به المرابى ، وهو هادىء البال مستريح الضمير ، بين أهله وعشيرته ، وتعينه على على أكل الربا فتشاركه فى اللعنة وتعرض نفسك لمقت الله وغضبه : « ... **فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم** » .

يا هذا : السعيد من اتعظ بغيره ، واعتبر بحوادث الأيام ، وإن كثيراً من أمثالك تعاملوا بالربا ، فعاد عليهم بالضرر والوبال ، وعما قليل قد أحاط بهم الخطر ، وصاروا فقراء أذلاء ساقطين ، لا يعطف عليهم قريب ؛ ولا يواسيهم بعيد ، وتقطعت بهم الأسباب ، وأصبحوا حملا ثقيلا على كاهل الأمة ، هذا يحتقرهم ، وذاك يتألم منهم وآخر يشمت فيهم ، ويرميهم بالسفه وسوء التصرف : « **فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون** »(١) فاتقوا الله أيها المسلمون فى أنفسكم وأولادكم وأموالكم وأمتكم ، خافوا الله وتباعدوا عن الربا إن كنتم مؤمنين « **يا أيها الناس كلوا مما فى الأرض حلالا طيباً ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين** »(٢). عن جابر بن عبد الله رضى الله عنه : قال « لعن رسول الله . صلى الله عليه

---

(١) سورة التوبة الآية ٧٠ ، سورة الروم الآية ٩ .

(٢) سورة البقرة الآية ١٦٨ .

وسلم ، آكل الربا وموكله وكاتبه وشاهديه وقال هم سواء » رواه مسلم وغيره .
وآكله هو الآخذ للزيادة ، وموكله هو الدافع لها . وتقول فى الخطبة الثانية :
أيها الناس : إن المال خير عون لصاحبه ، وأقوى عامل على رقى الأمم
والشعوب ؛ به تكون الأمة عزيزة قوية ، جليلة مهيبة ، محترمة فى نظر الأمم
فإذا خالطه الربا ذهب من يدها فصارت ضعيفة ذليلة فاقدة الهيبة ، ساقطة
الكرامة وأصبحت فريسة للأقوياء ، وعرضة لطمع الطامعين وجشع
المستعمرين . وذلك جزاء الظالمين ، ومآل المسرفين الذين يتعرضون لحرب
الله ورسوله . يا قوم يكفى لقبح الربا والتنفير منه أن الله تعالى يجعل من علامات
المرابين يوم القيامة أنهم يبعثون من قبورهم على هيئة المصروعين المجانين ،
الذين تسلط عليهم الشيطان فضربهم فى عقولهم . قال تعالى : « **الذين يأكلون
الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس . . .** » (١).
المس الجنون . نسأله تعالى السلامة من جميع المكاره ، والعافية من كل بلية .
إن ربى لسميع الدعاء ، قريب مجيب .

* * *

(١) سورة البقرة الآية ٢٧٥ .

المحافظة على الصلوات والخشوع فيها

الحمد لله الذى أنزل الشريعة هدى للناس ورحمة . وجعلها طريقاً واضحاً إلى سعادة الدارين ، والشكر له تعالى هدانا للإسلام وفضلنا على جميع الأمم ، وأشهد ألا إله إلا الله أعز الطائعين ، وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله أفضل المصلين وإمام الخاشعين . اللهم صل وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه والحافظين لحدود الله .

أما بعد : فقد قال الله تعالى : « **قد أفلح المؤمنون . الذين هم فى صلاتهم خاشعون** » . (١)

عباد الله : إن الصلاة عماد الدين ، وأعظم أركان الإسلام ، من حافظ عليها فهو السعيد الرابح ومن أضاعها فذلك الخاسر الشقى ، وإن الخشوع فيها مع الإخلاص لله آية الإيمان وسبيل الفلاح ، وأمان من وساوس الشيطان الرجيم ، فإن العبد إذا اعتاد الوقوف بين يدى مولاه فى اليوم والليلة خمس مرات خاشعاً متواضعاً فارغ القلب من الشواغل ، متدبراً ما يتلوه من آيات الله ، انغرست فى نفسه خشية مولاه فى جميع أعماله ، وحضرته هيبة خالقه فى عموم أحواله . فإذا سولت له نفسه أمراً ، أو زين له الشيطان سوءاً تبرأ منهما قائلا: « **إنى أخاف الله رب العالمين** » . فكن فى صلاتك خاشعاً ، وفى مناجاة ربك صادقاً ، فلا تقل : « **الله أكبر** » وأنت نظن أن هناك من يساويه أو يدانيه فى عظمته . لاتقل: « **الحمد لله رب العالمين** » وأنت بالحلال لاتقنع ، ومن الحرام لا تشبع . لا تقل : « **الرحمن الرحيم** » وأنت شديد البطش قاسى القلب على الضعفاء والمساكين . لا تقل : « **مالك يوم الدين** » وأنت لا تذكر الوقوف بين يدى أحكم الحاكمين . لا تقل : « **إياك نعبد** » وأنت تعبد هواك ودنياك . لا تقل : « **وإياك نستعين** » وأنت تلتجىء فى الشدائد إلى المخلوق وتترك باب مولاك . لاتقل: « **اهدنا الصراط المستقيم**» وأنت منحرف عن

---

(١) سورة المؤمنون الآية ١ ، ٢ .

طريق المهتدين . لاتقل: « **صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم** » وأنت سيء الأخلاق حقود حسود ، نمام مغتاب ، غشاش كذاب واقع فيما يغضب الله والملائكة والناس أجمعين . لا تقل : « **ولا الضالين** » . وأنت فاسد الاعتقاد شر فى الأعمال ، تدبر الأذى وتكيد لإخوانك المسلمين — يا هذا — إن من حافظ على الصلوات فى الأوقات ، وواظب على الجمعة والجماعات ، وأداها بخشوع وخضوع ، استنار قلبه ، وتهذبت نفسه ، وحسنت مع الله والناس معاملته . وحيل بينه وبين المحرمات ، وكان على البؤساء عطوفاً ، بالضعفاء رحيما ، وأفلح فى دينه ودنياه ، وكان من المحبوبين لدى الله والناس أجمعين . النفس أمارة بالسوء ، والشيطان أيضاً يأمر بالفحشاء والمنكر ، ليضل المرء عن سواء السبيل ، ويقذف به فى مهاوى الشقاء والخسران . والسيف القاطع ، والدواء النافع ، الذى جعله الله تعالى لوقاية الإنسان من شر النفس والشيطان إنما هو الصلاة « **. . . إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر والله يعلم ما تصنعون** » (١).

أيها الناس : الله تعالى يقول : «**فويل للمصلين . الذين هم عن صلاتهم ساهون**»(٢) أولئك هم الذين خلت صلاتهم من التذلل والخضوع ، فتراهم يسرعون فى أدائها وهم عنها غافلون . لا يعرفون لها معنى ، ولا يعقلون لها سراً ، ولم تشعر قلوبهم بحلاوة الطاعة ، ولذة المناجاة . نعم لهم الويل . ملكتهم الوساوس ، وامتلأت قلوبهم بشواغل الدنيا ، واستحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله « **ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطاناً فهو له قرين** »(٣) ومن الناس من عميت بصائرهم وتحجرت ضمائرهم ، فأضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات ، وأهملوا أوامر الله ، وغفلوا عن واجب شكره ، ولم يخافوا سطوة جبروته . ولا سوء الحساب ، ولا نار العذاب . « **. . . نسوا الله فأنساهم أنفسهم أولئك هم الفاسقون** »(٤) .

---

(١) سورة العنكبوت الآية ٤٥ .

(٢) سورة الماعون الآية ٤ ، ٥ .

(٣) سورة الزخرف الآية ٣٦ .

(٤) سورة الحشر الآية ١٩ .

فيا أيها المسلمون : اتقوا الله ربكم وحافظوا على صلواتكم ، وقوموا لله خاضعين خاشعين لتفوزوا برضوان الله ، وتكونوا من المفلحين الذين شملهم الله بإحسانه ، وغمرهم فى بحار رحمته : « .. **أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون** »(١) . فى الحديث القدسى عن رب العزة : « ما أقل حياء من يطمع فى جنتى بغير عمل ، كيف أجود برحمتى على من بخل بطاعتى » . وروى أبو داود أن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، قال : « إذا أحسن الرجل الصلاة فأتم ركوعها وسجودها قالت الصلاة حفظك الله كما حفظتنى فترفع ، وإذا أساء الرجل الصلاة فلم يتم ركوعها وسجودها قالت الصلاة ضيعك الله كما ضيعتنى ، فتلف كما يلف الثوب الخلق فيضرب بها وجهه » .

التحذير من المسكرات والمخدرات

الحمد لله حبب الإيمان إلى نفوس الموفقين ، وزينه فى قلوبهم ، وكره إليهم الكفر والفسوق والعصيان أولئك هم الراشدون ، فضلا من الله ونعمة والله عليم حكيم . وأشهد ألا إله إلا الله جعل السعادة فى الطاعة ، والذل والشقاء فى العصيان ، وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله هدى الناس إلى الصراط المستقيم ، اللهم صل وسلم على سيدنا محمد ، وآله وصحبه الذين خافوا فأمنوا ، وأحسنوا ففازوا — أما بعد — فقد قال الله تعالى : « **. . . ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة وأحسنوا إن الله يحب المحسنين** » (٢) .

أيها الناس : إن الدين الإسلامى لم يدع سبيلا إلى الخير إلا أرشد إليه ، ولم يترك طريقاً إلى الشر إلا حذر منه ، قال ، صلوات الله وسلامه عليه ، : « ما تركت شيئاً يقربكم إلى الله تعالى إلا وقد أمرتكم به ، ولا شيئاً يبعدكم عن الله تعالى إلا وقد نهيتكم عنه » . وبذلك قد وضح الأمر ، وتبين الرشد من الغى ، والهدى من الضلال ، ولم يبق بعد ذلك حاجة لطالب الرشد ؛ ولا عذر لمن وقع فى الغواية ، ولكن فريقاً من الناس قد أعرضوا عن هدى

---

(١) سورة المجادلة الآية ٢٢ .

(٢) سورة البقرة الآية ١٩٥ .

الدين ، واتخذوه وراءهم ظهرياً ؛ ووضعوا عقولهم تحت أقدامهم ؛ واتبعوا الشهوات فعميت بصائرهم وأسقطوا أنفسهم من درجة الكمال الذى أعدهم الله له وأنزلوا أرواحهم إلى مرتبة الحيوان ، فكانوا بذلك كالأنعام بل هم أضل سبيلا . ذلك بأنهم رضوا بأن يكونوا معاول فى هدم بنيان الفضيلة ، ويداً عاملة فى إقامة الشر والرذيلة ، وهؤلاء التعساء قد استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله : **« أولئك حزب الشيطان ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون »**(١). نعم ! قد لعب الشيطان بعقولهم : زين لهم تناول المسكرات ، وتعاطى المخدرات وأوقعهم فى وهدة الذل والدمار ، ولبئس ما كانوا يصنعون فقد أضعفت هذه المخدرات أبدانهم ، وأفسدت تلك السموم عقولهم ، وأضاعت عليهم أموالهم ، وعيالهم فى أشد الحاجة إليها ، وأقعدتهم عن العمل فى مرافق الحياة والسعى فى وسائل العيش ، وبذلك قضوا على حياتهم وعقولهم ، وجنوا على أولادهم وأهليهم ، وبذلك أوقعوا أنفسهم فى الذلة والمهانة ، وعار التسول وجريمة السرقة . وبذلك كانوا وبالا على أنفسهم ، وشراً على ذويهم ؛ وعالة على كاهل الأمة **« ومن يهن الله فما له من مكرم إن الله يفعل ما يشاء »** (٢) .

أيها الناس : عجباً أن يبيع الإنسان حياته وماله ، ويضيع شرفه وكرامته ، ليربح موته وفقره ، واحتقاره وإهانته . عجباً لعاقل يسعى فى جنونه ، وقوى يعمل على إضعاف جسمه ، والقضاء على حياته ، وذى مال يعمل على إضاعته وموت عياله . كل ذلك بمحض اختياره ورضاه ، بلا فكر ولا روية ، ولا شفقة ولا رحمة . عجباً لمن يضع الأغلال فى عنقه بيده ، وينقل ثروة بلاده إلى جيوب الأعداء ، فيستعبد أمته التى يغنى بغناها ، ويقوى بقوتها ، ويسعد بسعادتها ، ولكن : **« من يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً »**(٣) أما يدرى ذلك السفيه الأحمق أنه بعمله هذا قد جنى على ذريته ، وأساء إلى نفسه وإلى أمته . فهو بضعف جسمه وفساد عقله وأخلاقه لا يعقب إلا ذرية ضعافاً ، جبناء فاسدى العقول سيئ الأخلاق ، عالة على المجتمع ،

---

(١) سورة المجادلة الآية ١٩ .

(٢) سورة الحج الآية ١٨ .

(٣) سورة الكهف الآية ١٧ .

وعاراً على الأمة : «**وقال نوح رب لاتذر على الأرض من الكافرين دياراً . إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولايلدوا إلافاجراً كفاراً**»(١) ألا فليخش الله هؤلاء فى أنفسهم وذريتهم . وأزواجهم وأمتهم وليقارنوا بين حالهم قبل تناول هذه السموم وحالهم بعد الوقوع فى خطرها ، عسى أن يثوبوا إلى رشدهم ، ويعودوا إلى عزهم . فقد كانوا فى قوة وعافية . ويسار ورخاء ، وشرف وكرامة ، وهناءة وسعادة . فأصبحوا فى ضعف وبلية ، وضيق وشدة ، وضعة وإهانة ، وكدر وشقاء : «**فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون**»(٢).

أيها الناس : إن الأمة هى جماعة تتكون من الأفراد ، فإذا تكونت أمة من الأقوياء الأصحاء ، سليمى العقول ، مهذبى الأخلاق كانوا خيراً لأنفسهم ، وسعادة لأمتهم . كانوا أساس عزها ومجدها ، وأركان رقيها ونهوضها — أما إذا تكونت أمة من أمثال هؤلاء السفهاء المرضى ، ضعاف العقول ، فاسدى الأخلاق ، كانوا شراً على أنفسهم ، وشقاء على أمتهم . كانوا سبب ذلها ومهانتها وعلة تأخرها وانحطاطها : «**وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفوا عن كثير**»(٣). روى أبو داود فى سننه بإسناد صحيح عن أم سلمة رضى الله عنها قالت : « نهى رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، عن كل مسكر ومفتر » . والمفتر : كل شراب يورث الفتور والضعف فى الأعضاء . وتقول فى الخطبة الثانية بعد الأركان : أيها الظالم لنفسه ، المسىء إلى عشيرته وأمته ، إن كانت بلايا الدنيا وعقوباتها هينة فى نظرك لا تردعك عن ضلالك وغيك ، فاعلم أن الله تعالى محاسبك على عملك ، وسائلك عن عمرك فيم أفنيته ، وعن شبابك فيم أضعته ، وعن مالك من أين اكتسبته وفيم أنفقته . فماذا يكون الجواب وأنت فى كل ذلك قد أسأت ، وفى كل ذلك قد أسرفت ، ماذا يكون الحال والحساب عسير ، واللسان معقود ، والموقف رهيب ، يوم يعض الظالم على يديه نادماً على ما جناه «**واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون**»(٤)

---

(١) سورة نوح الآية ٢٦ ، ٢٧ .

(٢) سورة التوبة الآية ٧٠ ، سورة الروم الآية ٩ .

(٣) سورة الشورى الآية ٣٠ .

(٤) سورة البقرة الآية ٢٨١ .

مضار شهادة الزور

الحمد لله العليم الذى لا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء . السميع البصير الذى يطلع على ما تكنه النفوس وتخفى الصدور : لا إله إلا هو أعز الصادقين ، وأذل الكاذبين . و أ شهد ألاإله إلا الله أوجب الحق وحرم الكذب والضلال . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله الداعى إلى الصدق والإخلاص فى الأقوال والأعمال : اللهم صل وسلم على سيدنا محمد الهادى إلى الصراط المستقيم . وعلى آله وصحبه . ومن سلك طريقه القويم .

أما بعد : فقد قال الله تعالى : « **والذين لا يشهدون الزور وإذا مروا باللغو مروا كراماً** »(١) .

أيها الناس : إن الله عزت قدرته وجلت حكمته ، قد اختار لكم الإسلام ديناً ، ووعدكم سعادة الدنيا والآخرة إذا اعتصمتم بحبله المتين ، واهتديتم بنوره المبين. قال تعالى : « **من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حيـــاة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون** »(٢) أما إن أهملتم دينكم القويم ولم تسمعوا نصائحه الغالية ، وإرشاداته الحكيمة ، واتبعتم أهواءكم ولم تراقبوا الله تعالى فى أقوالكم وأعمالكم ، ولم تخافوا شدة غضبه ، وأليم عذابه ، منع عنكم معونته ، وسلط عليكم من لا يرحمكم، وخسرتم الدنيا والآخرة : « **وما ربك بظلام للعبيد** » ، وإن الله تعالى جل شأنه قد حرم فى هذا الدين قول الكذب وشهادة الزور ، وأمر باجتنابها والبعد عنها وقرنها بعبادة الأوثان، لينبه الناس إلى فظاعة الزور وشدة قبحه . قال تعالى: « **فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قول الزور . حنفاء لله غير مشركين به** »(٣) والرجس : النجس القذر . والأوثان : الأصنام التى كانت تعبد من دون الله سبحانه . وعبادة الأصنام شرك ، وقول الزور معه من أكبر الكبائر .

---

(١) سورة الفرقان الآية ٧٢ .

(٢) سورة النحل الآية ٩٧ .

(٣) سورة الحج الآية ٣٠ ، ٣١ .

أيها الناس : أيدرى شاهد الزور إلى من أساء ، أساء إلى نفسه ، أسقط مروءته ، أضاع منزلته وكرامته ، وسجل على نفسه عاراً لا يزول ، وخزياً لا يمحى ، وألقى بنفسه فى نار حرها شديد ، وعذابها أليم : **« ومن يهن الله فما له من مكرم إن الله يفعل ما يشاء »**(١) . وأساء : إلى من شهد عليه ، أهانه وأضاع حقه . وقطع صلة الإخاء التى تجب بين المسلم والمسلم . وظلمه وخذله ، وخالف فيه قول المصطفى ، صلوات الله وسلامه عليه ، : « المسلم أخو المسلم ، لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره ، بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم » . وأساء إلى من شهد له وأضر به ، حين يريد أن ينفعه . أعانه على الظلم ، وأوقعه فى الحرام ، وعرضه لمقت الله وغضبه ، وصيره ذليلا بين يدى المنتقم الجبار . الحكيم العادل ، الذى يأخذ من القوى للضعيف ، وينصر المظلوم من ظالمه ، يوم يتعلق المظلومون بالظالمين ، يوم الفزع الأكبر والهول الأعظم **« يوم لا ينفع مال ولا بنون »**(٢) . **« وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد »**(٣) . وأساء إلى القاضى : أتعبه وأضاع عليه وقته ، وطمس عليه معالم الحق ، ولو صدقه لأراح وأراح الناس أجمعين ، بل أساء إلى الأمة كلها : لوث سمعتها ، وأضاع الثقة بها . وكل أمة فشا فيها الزور والكذب سقطت من عيون الأمم ، وأصبحت فى عداد الهالكين . أيها الناس : ما الذى يحمل شاهد الزور على هذا الوصف الذميم ، وذلك الموقف المخجل المعيب . إن كان مالا يأخذه ممن شهد له فهو سحت لا بركة فيه ، بل هو وبال عليه فى الدنيا ، وعذاب له فى الآخرة ، وكل لحم نبت من حرام فالنار أولى به . وإن كان الحامل له على الزور صحبته للمشهود له أو طلب رضاه ، فبئست هذه الصحبة التى تؤدى إلى سقوطه وخسرانه ، وتوقعه فى سخط الله وغضبه . قالت عائشة رضى الله عنها : سمعت رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، يقول : « من التمس رضا الله بسخط الناس كفاه الله مؤنة الناس ، ومن التمس سخط الله برضا الناس وكله الله إلى الناس » . وشاهد الزور قد أرضى صاحبه وأغضب

---

(١) سورة الحج الآية ٨ .
(٢) سورة الشعراء الآية ٨٨ .
(٣) سورة الحج الآية ٢ .

مولاه ، فخذله وقطع عنه رحمته وإحسانه وإن كان الباعث له عليها خوف ضرر يناله إذا قال الصدق وشهد بالحق . فالصدق ينجيه ، وتقوى الله تحميه : **« إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون »**(١) . **قالت عائشة رضى الله عنها** لمعاذ : « **اتق الله فإنك إذا اتقيت الله كفاك الناس ، وإذا اتقيت الناس لم يغنوا** عنك من الله شيئاً . فاتق الله أيها المسلم فى نفسك وفى أمتك ، اتق الله واجتنب قول الزور والزم الصدق ، وانصر الحق ، واشهد بما رأيت ، بلا فرق بين القريب والبعيد والصديق والعدو : **« ياأيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين »**(٢) . عن أبى بكر رضى الله عنه قال : قال رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، : **« ألا أنبئكم بأكبر الكبائر** ثلاثاً ؟ قلنا : بلى يا رسول الله . قال : الاشراك بالله ، وعقوق الوالدين — وكان متكئاً فجلس — فقال : ألا وقول الزور ، ألا وقول الزور . فما زال يكررها حتى قلنا : ليته سكت » متفق عليه

وتقول فى الثانية : أيها الناس : واجب المسلم أن يعدل فى كل شىء ، وأن ينصر الحق أينما كان . قال تعالى : **« يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط »** الآية . أى كونوا مواظبين على العدل فى جميع الأمور ، مجتهدين فى إقامته . لا يصرفكم عنه صارف . شاهدين بالحق لله : بأن تقيموا شهادتكم لوجه الله تعالى ، لا لغرض دنيوى ، ولو كانت الشهادة على أنفسكم ، أو على والديكم وأقاربكم لأن الشهادة بيان الحق سواء كان عليه أو على غيره ، أن يكون كل من المشهود له أو عليه غنياً يرجى خيره ويخشى ضره ، أو فقيراً يترحم ويحنى عليه ، فلا تحوروا فيها ميلا أو ترحماً ، ولا تشهدوا للغنى طلباً لرضاه ، ولا تمتنعوا من الشهادة عليه خوفاً منه ، أو على الفقير شفقة عليه ، فإن الله تعالى أولى بالغنى والفقير وبالنظر لهما منكم ، فلو لم تكن الشهادة عليهما أو لهما مصلحة لما شرعها . فراعوا أمر الله تعالى فإنه أعلم بمصالح العباد منكم .

---

(١) سورة النحل الآية ١٢٨ .

(٢) سورة النساء الآية ١٣٥ .

الحمد لله الذى خلق فسوى ، وقدر فهدى ، وهو الخلاق العليم ، القادر العظيم ، وأشهد ألا إله إلا الله المدبر الحكيم ، الحنان المنان الرحمن الرحيم ، وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله البشير النذير . اللهم صل وسلم على سيدنا محمد الذى أدبه ربه فأحسن تأديبه ، ورباه فأكمل تربيته ، وأثنى عليه بقوله : « **وإنك لعلى خلق عظيم** »(١) وعلى آله وصحبه ومن عمل بسنته واهتدى بهديه .

أما بعد : فقد قال الله تعالى : « **يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً وقودها الناس والحجارة عليها ملائكة غلاظ شداد لايعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون** »(٢) . قال ابن عباس رضى الله عنهما فى تفسيرها : اعملوا بطاعة الله، واتقوا معاصى الله . ومروا أولادكم بامتثال الأوامر واجتناب النواهى ، فذلك وقاية لكم ولهم من النار . وقال سيدنا على رضى الله عنه : علموا أنفسكم ، وأهليكم الخير ، وأدبوهم .

أيها الناس : من شب على شىء شاب عليه ، ومن أدب ولده صغيراً سر به كبيراً ، ومن لم يتدبر العواقب كان لا شك من النادمين ، ينشأ الإنسان فى أول أمره ،وأيام طفولته، على فطرة سليمة ونفس صافية ، تتأثر بالخير كما تتأثر بالشر ، وتنطبع فيها الأخلاق الحسنة كما تنطبع فيها الأخلاق السيئة ، فإذا وجد فى هذا الوقت من يحكم تربيته ، ويحسن تأديبه ، ويسلك به سبيل الاستقامة ، وطريق الأدب والكمال . شب حسن الأخلاق ، طيب النفس ، متعلقاً بأهداب الفضيلة ، مستمسكاً بحبل الهدى والرشد . فيحيا حياة طيبة ، يكون بها سعيداً فى نفسه،ونافعاً فى أمته . أما إذا أهمل أمره فلم ينل حظه من التربية والتأديب ، ولم يأخذ نصيبه من الإرشاد والتهذيب ، نشأ سىء الأخلاق ، خبيث النفس ، فاقد الهمة ، ساقط المروءة ، محباً للشر ، كارهاً للخير . كلا على أهله وعشيرته . وكان شقاء على نفسه، وبلاء على الناس أجمعين . وكان على ولى أمره كفل عظيم من تبعات شروره وجرائمه . لإهماله فى تربيته وتأديبه ، وتهاونه فى إرشاده وتهذيبه ؛ فهو مسئول عن ذلك أمام

(١) سورة القلم الآية ٤ .

(٢) سورة التحريم الآية ٦ .

الله تعالى . قال ، صلوات الله وسلامه عليه : « إن الله تعالى سائل كل راع عما استرعاه حفظ أم ضيع ، حتى يسأل الرجل عن أهل بيته » .

أيها الناس : إن تربية الأولاد فى صغرهم على مبادئ الدين الحنيف ، وتعويدهم على مكارم الأخلاق ، من أهم المسائل التى يجب على الآباء أن يتنبهوا لها ، والمصلحين أن يعنوا بها ، وأن يعلموا أن عليها تدور حياة الأمة فى مستقبلها ، وعليها وحدها يتوقف رقيها فى مدارج الرفعة والكمال ، فما الأمم إلا بالأخلاق ، وما الأخلاق إلا بالتربية الدينية الصحيحة ، وإنكم لو تأملتم فى جميع ما نشكو منه اليوم من فساد الأخلاق ، وانتشار المنكرات وانتهاك الحرمات ، وزيغ فى العقائد ، وتهاون فى تنفيذ أوامر الدين ، وتهتك النساء فى الطرقات والأسواق . ولو تأملتم لوجدتم أن السبب فى هذا كله هو ترك التربية الدينية ، وإهمال التأديب فى وقته . الولد قطعة من أبيه ، وأمانة فى عنقه ، فاتقوا الله يا قوم فى ثمرات قلوبكم ، وأفلاذ أكبادكم ، ولا تلقوا بأيديكم فى نار جهنم التى وقودها الناس والحجارة . يا قوم اتقوا الله فى أبنائكم وذريتكم ، والأطفال الذين ألقيت إليكم مقاليد أمورهم ، وصارت رعاية شئونهم فى أيديكم ، هذبوا أخلاقهم ، ثقفوا عقولهم ، علموهم ما يحتاجونه من أمور دينهم ، اغرسوا فى قلوبهم حب الدين وآدابه ، والعمل بأحكامه وشرائعه ، مروهم بأداء الصلوات فى الأوقات ، وشهود الجمعة والجماعات ، وعودوهم الأخلاق الحسنة ، وجنبوهم الأخلاق السيئة ، وباعدوا بينهم وبين قرناء السوء وفاسدى الأخلاق . قال ، صلوات الله وسلامه عليه : « مروا أولادكم بالصلاة لسبع ، واضربوهم عليها لعشر ، وفرقوا بينهم فى المضاجع » أدبوهم بالرفق واللين ، وإياكم والعنف والشدة . فى صحيح البخارى أن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، قال : « إن الرفق لا يكون فى شىء إلا زانه ، ولا ينزع من شىء إلا شانه » .

أيها الناس : إنكم إن فعلتم ذلك بأولادكم والأولاد اليتامى منكم ، فقد قمتم بما وجب عليكم من الحق لهم ، فإن أحسنوا بعد ذلك أحسنوا لأنفسهم ، وإن أساءوا أساءوا على أنفسهم : « **من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء**

فعليها وما ربك بظلام للعبيد»(١). روى البخارى ومسلم عن ابن عمر رضى الله عنهما، قال: سمعت رسول الله، صلى الله عليه وسلم، يقول: «كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته، الإمام راع ومسئول عن رعيته، والرجل راع فى أهله ومسئول عن رعيته، والمرأة راعية فى بيت زوجها ومسئولة عن رعيتها، والخادم راع فى مال سيده ومسئول عن رعيته، فكلكم راع ومسئول عن رعيته». وروى ابن ماجه عن ابن عباس رضى الله عنهما أن النبى صلى الله عليه وسلم، قال: «الزموا أولادكم وأحسنوا أدبهم». واشرح فى الخطبة الثانية قول الإمام على رضى الله عنه: ثلاثة هى أفضل ما يورثه الآباء الأبناء: الثناء الحسن، والأدب الصالح، والأخوان الثقات. وحديث «الزموا أولادكم وأحسنوا أدبهم».

* * *

---

(١) سورة فصلت الآية ٤٦.

حقوق الآباء على الأبناء

الحمد لله على حلمه وكرمه ، والشكر له تعالى على فضله وإنعامه . وأشهد ألا إله إلا الله أمر بالإحسان إلى الوالدين . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله حذر من العقوق وجعله من أكبر الكبائر ، وأعظم الآثام ، اللهم صل وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه ، الرحماء البررة . الهداة الراشدين .

أما بعد : فقد قال الله تعالى : « **وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً** »(١) أى أمر أمراً مبرماً ، وحكم حكماً لا مرد له ، بأن تخصوه بالعبادة ، لأن العبادة غاية التعظيم ، فلا تحق إلا لمن له غاية العظمة ونهاية الإنعام . وذلك هو الله وحده « . . . **وبالوالدين إحساناً** » أى وبأن تحسنوا إليهما إحساناً جميلا ، لما لهما من فضل ، وإحسان على الولد .

أيها المسلم : كما تزرع تحصد ، وكما تدين تدان ، فمن يزرع المعروف يحصد الشكر ، ومن يزرع الشر يحصد الندامة ، وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان ؟ وهل عاقبة الإساءة إلا الخسران ؟ .

أيها الإنسان : إن والديك أحق الناس بحسن معاشرتك وجميل برك وإحسانك ، لعظيم فضلهما عليك ، وكثرة إحسانهما إليك ، وشدة عنايتهما بك فى الصغر ، وحرصهما دائماً على راحتك وسعادتك فى جميع أطوار حياتك ، بسببهما خرجت من العدم إلى الوجود ، وبفضل رعايتهما قوى عضدك واشتد ساعدك ، حتى صرت إنساناً كاملا ، ورجلا نافعاً ، قوياً على الجهاد فى معترك الحياة جاء رجل إلى رسول الله صلوات الله وسلامه عليه فقال : يا رسول الله من أحق الناس بحسن صحابتى ؟ أى — صحبتى — قال . « أمك » . قال : ثم من ؟ قال : « أمك » . قال : ثم من ؟ قال : « أمك» . قال : ثم من ؟ قال . « أبوك » . فمن أولى بالبر والطاعة والمعروف والإحسان ، من أمك الشفيقة

---

(١) سورة الإسراء الآية ٢٣ .

البرة الرفيقة ؟ هى التى ذاقت أنواع الآلام مدة حملك . وقاست من الشدائد ما قاست وقت معالجة وضعك ، ثم أضعفت قوتها بإرضاعك حولين كاملين ، وأضعت راحتها بحملك تارة على الصدر وأخرى على اليدين . كم لوثتها بالأوساخ والأقذار ، وكم أزالتهما عنك بلا ملل منها ولا ضجر . وإذا مرضت باتت ليلها ساهرة جائعة ، حزينة باكية ، متألمة لألمك ، خائفة عليك مما ألم بك ، تسأل الله الكريم أن يمن عليها بشفائك ، ويكشف عنك ما نزل بك ، ويسرها بتمام صحتك ، ودوام عافيتك ، ويمتعها بطول عمرك فى هناء وصفاء . فكيف بعد هذا تؤثر غيرها عليها فى البر ، وتقدم عليها سواها فى الخير ، والإحسان ؟ وهى التى تعبت كثيراً فى تربيتك . وبإخلاص خدمتك زمناً طويلا ،ولم تطلب على الخدمة جزاء ولا أجراً ، سوى أن تقر عينها بك ، ويشرح صدرها لرؤيتك . هذا شأن الأم . وهذا حالها مع الولد . . ثم من أحق بالحنان والعطف ، والرحمة والإحسان ، من أبيك العطوف الرحيم ، الذى أحسن إليك فى ضعفك ،ومن نفائس أمواله أنفق عليك ورباك ،وأرشدك إلى ما ينفعك فى دينك ودنياك .

أيها الناس : إن عقوق الوالدين من أفحش السيئات ، وأكبر الذنوب التى يعجل الله عقوبتها فى الدنيا قبل الآخرة ، فهو نكران للجميل وكفران بالنعمة ؛ ومقابلة الإحسان بالإساءة . قال صلوات الله وسلامه عليه : « كل الذنوب يؤخر الله منها ما شاء إلى يوم القيامة إلا عقوق الوالدين فإن الله يعجله لصاحبه فى الحياة قبل الممات » . وإن البر بالوالدين لمن أوجب الحقوق وأقدس الواجبات وطاعتهما من أفضل الطاعات . لهذا قرن الله حقهما بحقه ، وشكرهما بشكره . فقال تعالى : « **ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهناً على وهن وفصاله فى عامين أن اشكر لى ولوالديك إلى المصير** »(١). فمن حقوقهما عليك أن تكرمهما ، وتحسن إليهما ، وتبذل نفسك ومالك فى سبيل مصلحتهما . وتسعى جهدك فى كسب رضاهما . وإن بلغا عندك الكبر فلاطفهما ، واحتمل أذاهما . ولا تضجر من حوائجهما ، وأحسن إليهما فى حال الضعف والكبر ، كما أحسنا إليك فى حال العجز ، والصغر ، وكن بهما رءوفاً رحيما . وعليهما

(١) سورة لقمان الآية ١٤ .

عطوفاً حليماً ، قال تعالى : « . . . إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريماً »(١) . واعلم أنك مهما فعلت في بر الوالدين والإحسان إليهما . فلست قائماً بواجبهما ولا موفياً حقوقهما ، فسل الله تعالى أن يكافئهما عنك بواسع الرحمة ، وجزيل الرضوان . قال تعالى : « واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيراً »(٢) فاتقوا الله أيها الأبناء واحرصوا على رضا الوالدين ، فإن رضا الوالدين سعادة في العاجل والآجل ، واحذروا غضب الوالدين ، فإن غضب الوالدين شقاء في الدنيا ووبال في الآخرة . قال رسول الله صلوات الله وسلامه عليه : « رضا الله في رضا الوالد ، وسخط الله في سخط الوالد » أخرجه الترمذي . والمراد بالوالد : الأب والأم . وروى الطبراني عن ابن عمر رضي الله عنهما بإسناد حسن قال : قال رسول الله ، صلى الله عليه وسلم : « بروا آباءكم تبركم أبناؤكم ، وعفوا تعف نساؤكم » . وتقول في الخطبة الثانية: روى أن ولداً اشتكى إلى رسول الله . صلى الله عليه وسلم ، أباه ، وأنه يأخذ ماله ، فدعا به فإذا هو شيخ يتوكأ على عصا . فسأله فقال : إنه كان ضعيفاً . وأنا قوى ، وفقيراً وأنا غنى ، فكنت لا أمنعه شيئاً من مالى ، واليوم أنا ضعيف وهو قوى ، وأنا فقير ، وهو غنى ، ويبخل على بماله. فبكى رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، وقال « مامن حجر ولامدر يسمع هذا الإبكى » ثم قال للولد : « أنت ومالك لأبيك » مرتين وشكى إلية آخر سوء خلق أمه فقال : « لم تكن سيئة الخلق حين حملتك تسعة أشهر » ؟ قال : إنها سيئة الخلق . قال : لم تكن كذلك حين أرضعتك حولين »؟ قال : إنها سيئة الخلق . قال : « لم تكن كذلك حين أسهرت ليلها وأظمأت نهارها » ؟ قال : لقد جازيتها ، قال : « ما فعلت » ؟ قال : حججت بها على عاتقي . قال : ما « جزيتها ولو طلقة » .

إرشاد الصائم

الحمد لله الذى أذاق الطائعين حلاوة الطاعة ، وعلق قلوب الموفقين بالمساجد والجماعة . لا إله إلا الله جعل السعادة للصائمين القائمين الخاشعين ،

(١) سورة الإسراء الآية ٢٣ .
(٢) سورة الإسراء الآية ٢٤ .

وأشهد ألا إله إلا الله وفق من شاء للتجارة معه فكانوا هم الرابحين . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله إمام الصائمين الصابرين المتواضعين ، اللهم صل وسلم على سيدنا محمد . وآله وأصحابه الذين صانوا صيامهم عن اللغو والكذب فكانوا هم الفائزين .

أما بعد : فقد قال الله تعالى : « **إن الذين يتلون كتاب الله وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية يرجون تجارة لن تبور . ليوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله إنه غفور شكور** »(١) .

أيها الصائمون : إن التجار ينتظرون المواسم لعظيم الرواج فيها ، فإذا جاءت تلك المواسم شمروا عن ساعد الجد فى أعمال التجارة ، واستحضروا من الأصناف أجودها وأعلاها ، واختاروا من الألوان أجملها وأحسنها ، يسوقهم إلى هذا رجاء الربح ، وقد تحملهم شدة الحرص عليه إلى تضحية راحتهم ، ومفارقة أهليهم وأوطانهم ، ويركبون البحار ، ويتعرضون للأخطار والمخاوف ، ويقطعون وعر المفاوز ، وليس فيها إلا سبع مفترس ، أو قاطع طريق أو لص محتال ، يرتكبون ذلك غير مبالين بما ينالهم من مشقة وعناء ، بل يستسهلون فى سبيل الربح جميع الصعاب ، مواصلين فى ذلك الأيام والليالى ، ولا عجب فى تحمل التجار هذه المشاق ، فإن من ذاق لذة الربح هانت لديه جميع الشدائد ، وسهلت عليه كل المتاعب . هذه يا قوم حال تجار الدنيا الذين يطلبون ربحاً غير مضمون ، فقد يكون ، وقد لا يكون ، وعلى فرض أنهم ربحوا الدنيا بأسرها فالفناء مآلهم ، والزوال مصير ما يربحون ، وكما أن للدنيا تجاراً مجدين منهمكين ، فإن للآخرة تجاراً أمناء صادقين ، أوفياء رحماء مخلصين : « **رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار . ليجزيهم الله أحسن ما عملوا ويزيدهم من فضله والله يرزق من يشاء بغير حساب** »(٢) .

فلا هم بتجارة الدنيا يفتتنون ، ولا هم عليها وحدها يعولون ، وإنما عولوا على التجارة بخالص الأعمال مع الغنى الكريم ، الجواد الرحيم الذى لا غش فى التجارة معه ولا خسارة ، ولا كساد ، بل هى تجارة مأمونة رابحة رائجة لن تبور .

---

(١) سورة فاطر الآية ٢٩ ، ٣٠ .

(٢) سورة النور الآية ٣٧ ، ٣٨ .

أيها الناس: هل سمعتم، أو رأيتم أن المشترى يعطى التاجر أكثر من الثمن؟ لا. ولكن الله الغنى الكريم البر الرحيم يأخذ عمل العبد ويعطيه على الحسنة عشر أمثالها إلى سبعمائة إلى مالا يحصيه عداد: «**والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم**»(١). ومن واسع كرمه أنه يكافىء من اتقاه فى التجارة معه، وأحسن المعاملة مع خلقه، بدار لايفنى نعيمها، ولا ينغص عيشها، بجنة «**عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين. الذين ينفقون فى السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين**»(٢). ومن رحمته أن حفظ أهل الاستقامة فى التجارة معه من خطر السقوط والخسارة، وكتب لهم الأمن من كل المخاوف، والسلامة من جميع المكاره فى هذه الحياة، وفى تلك الحياة: «**إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا فلاخوف عليهم ولاهم يحزنون**»(٣). فاتق الله أيها الصائم ولا تنهمك فى تجارة الدنيا وتقصر فى تجارة الآخرة فما عندكم ينفد وما عند الله باق، اتق الله ولا تضيع العظيم الباقى بالحقير الفانى: «**وماتقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيراً وأعظم أجراً واستغفروا الله إن الله غفور رحيم**»(٤). واعلم أيها الصائم أنك الآن فى موسم ربح عظيم، لا يتيسر لتجار الآخرة فى العام إلا مرة واحدة، موسم من اتجر فيه مع مولاه الكريم كان ربحه أن يعتق رقبته من النار، ويغفر له ما تقدم من ذنبه، موسم من تقرب فيه من ربه بالبر والطاعات، وواظب على الجمعة والجماعات، فاز بعظيم الخير وعميم الرحمة. موسم من صدقت فيه نيته، وطابت فيه سريرته، وصان عن اللغو والفحش صيامه، وكف عن الحرام عينيه وأذنيه ولسانه، وتهذبت بالصيام نفسه فكان صابراً متواضعاً تقياً، صادقاً أميناً وفياً، على البؤساء عطوفاً، وبالضعفاء رحيما، نال من الله جزيل الإحسان وجميل الرضوان، وكان من المحبوبين لدى الله والملائكة والناس أجمعين. فشمر فى هذا الموسم عن ساعد الجد واجعل صالح الأعمال بضاعتك، والتواضع شعارك، والحلم واللين شيمتك، والرأفة والرحمة حليتك فالسعيد

---

(١) سورة البقرة الآية ٢٦١.

(٢) سورة آل عمران الآية ١٣٣، ١٣٤.

(٣) سورة الأحقاف الآية ١٣.

(٤) سورة المزمل الآية ٢٠.

المرحوم من اتجر فيه بمرضاة المنان والشقى المحروم من خرج منه بالخيبة والخسران « **إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات إنا لانضيع أجر من أحسن عملا**»(١) قال رسول الله ، صلى الله عليه وسلم : قال الله عز وجل : « كل عمل ابن آدم له إلا الصيام فإنه لى وأنا أجزى به ، بترك طعامه وشرابه وشهوته من أجلى» متفق عليه . أى أن الصيام سر بين العبد وربه . وقال صلى الله عليه وسلم : « من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة فى أن يدع طعامه وشرابه » رواه البخارى — أى فلا ثواب له .

* * *

(١) سورة الكهف الآية ٣٠ .

خطبة عيد الفطر

الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله – الله أكبر (تسعاً) الله أكبر وهو الكبير الذى عنت الوجوه لكبريائه وعظمته ، الله أكبر وهو الحى القيوم الذى دبر الكائنات بحكمته ، الله أكبر وهو القادر الذى أبدع الموجودات وعمها بإحسانه ورحمته ، الله أكبر كبيراً والحمد لله كثيراً ، وسبحان الله على الدوام . وأشهد ألا إله إلا الله جعل فى تعاقب الأعياد عبرة لأولى الألباب . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله الداعى إلى الهدى والصواب اللهم صل وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه والحافظين لحدود الله ، العاملين بأحكام الدين .

أما بعد : فيا أيها المسلمون : إن يومكم هذا يوم سرور لمن صحت نيته ، وقبل صيامه وقيامه . يوم فرح وتهان لمن طابت سريرته ، وحسن فى رمضان خلقه وكلامه . يوم عفو وإحسان لمن عفا عمن هفا وأحسن إلى من أسا ، وأصلح بين الأنام . هذا يوم عيد ، ولكن العيد فى الحقيقة لمن تمسك بالدين . هذا يوم الفلاح والنجاح لو كان المسلمون فيه مؤتلفين متحدين . هذا يوم سعيد لو كنا لمستقبلنا عاملين . فى هذا اليوم المبارك يتجلى المولى على المخلصين بمزيد الإنعام . ينظر فيه إلى أهل الصدق والوفاء والمودة والمحبة ، ينظر فيه إلى من تاب وراقب فى السر ، والعلانية ربه ، ينظر فيه إلى من تغافل عن عيوب الناس ولعيوب نفسه تنبه . يعز فيه من طهر قلبه من الحقد والحسد وتأدب بآداب الإسلام . فليس العيد لمن تمتع بالشهوات ، ولبس الثوب الجديد . ليس العيد لمن عق والديه فحرم الرضا فى هذا اليوم المبارك السعيد . ليس العيد لمن يحسد الناس على ما آتاهم مولاهم من فضله العميم المزيد . ليس العيد لخائن غشاش كذاب يسعى بالأذى والفساد بين الأنام . وكيف يسعد بالعيد من تجمل بالجديد وقلبه على أخيه المسلم أسود . كيف يهنأ بالعيد من استقام فى رمضان وبعده عدل عن الطريق القويم الأحمد . كيف يفرح بالعيد من أضاع أمواله فى الملاهى

وبيوت الفسوق والفجور . ويمنع حق الفقراء والضعفاء ولا يخاف يوم البعث والنشور . هيهات هيهات أن يحظى بالفلاح والقبول من أصر على العداوة والخصام . إنما العيد لمن خاف يوم التناد . إنما العيد لمن اتق مظالم العباد إنما العيد لمن فاز بالقبول وحسن الختام . أيها الناس : كم أموال فى هذه الأيام تضيع على الملاهى والملاعب . كم تتعدى فيها أهل الغرور حدود الأدب بأفعال الهمج وتقليد الأجانب . كم يخرج فيها أهل البدع عن الشرع القويم فيكونون فى جانب والدين فى جانب . كم يتبهرج فيها أبناء الشهوات بما اكتسبوه من الشبه والحرام أين من كان لا يفرح بعيد ولا بسواه إلا بما قدمه من الخير أمامه ، أين من كان يزجر نفسه عن اللذات خوفاً من ألم العتاب والملامة . أين من كانت عيناه تفيض عند ذكر أهوال يوم القيامة . أين أهل الشفقة والرحمة على الأرامل واليتامى فى هذه الأيام . أولئك قوم كانت قلوبهم مملوءة بالتقوى عامرة بالهدى ، أخلاقهم كريمة ، وقلوبهم سليمة ، قانعون صابرون لا يجزعون لحال من الأحوال . تعرفهم بسيماهم . وأثنى عليهم مولاهم بقوله : « **من المؤمنين رجال . . .** »(١) . علموا أن الدنيا وزخرفها ظل زائل كأنها أضغاث أحلام . فاتقوا الله أيها المسلمون وتباعدوا عن النفاق والشقاق فإنه يوقع فى الوبال والبلاء . وطهروا قلوبكم من الحقد والحسد وكونوا عباد الله إخواناً فى صفاء . وأطعموا الطعام وصلوا الأرحام ، واعطفوا على الأرامل واليتامى ، تنالوا غاية القبول والإكرام . فى صحيح مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله لا ينظر إلى أجسامكم ولا إلى صوركم ، ولكن ينظر إلى قلوبكم » . وروى مسلم أيضاً أن رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال : « من صام رمضان ثم أتبعه ستاً من شوال كان كصيام الدهر » .

الحث على الاتحاد والتعاون والتحذير من التفرق والتنازع

الحمد لله الذى جعل الدين رباطاً متيناً بين قلوب المؤمنين . وأمر بالاتحاد والتعاون ، ونهى عن التفرق والتنازع فى كتابه المبين . لا إله إلا الله الحكيم

---

(١) سورة الأحزاب الآية ٢٣ .

العليم ،وأشهد ألا إله إلا الله القوى المتين . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ذو القلب الرحيم، والخلق الكريم . اللهم صل وسلم على سيدنا محمد، وآله وأصحابه الذين طابت نفوسهم ،وصفت قلوبهم، فكانوا هم السادة الغالبين .

أما بعد : فقد قال الله تعالى : « **واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً . . .** »(١) .

أيها المسلمون : إن دين الإسلام هو حبل الله المتين . والحق المبين ، من وقف عند حدوده نجا ، ومن تحلى بآدابه سعد ، ومن تمسك به فقد هدى إلى صراط مستقيم . وإن الله عزت قدرته وجلت حكمته ، قد أوجب عليكم فيه أمراً عظيما ، إن أنتم أطعتم الله فيه نلتم من الخير ما تحبون ، وبلغتم من الفلاح والرقى الغاية التى تطلبون . ذلكم هو أن تتحد قلوبكم ، وتتألف نفوسكم ، وتتعاونوا على الخير فيما بينكم ،فإن الاتحاد والتعاون أساس كل خير وسعادة وعماد كل تقدم ورقى ، فما نالت أمة من الأمم نصيبها من رغد العيش ، ولا فاز شعب من الشعوب بحظه من التقدم والرقى ، إلا باتحاد القلوب واجتماع الكلمة ، والتعاون على الأمور النافعة ، والتضامن فى تنفيذ كل عمل مفيد ، وشعور كل فرد بأنه عضو من جسم أمته . عليه واجب يؤديه ، وله وظيفة يقوم بها لخير المجموع بأمانة وإخلاص .

أيها الناس : إن التفرق والشقاق والتنازع والاختلاف لمن الجنايات العامة والجرائم الكبرى ، التى تهدم بنيان الأمم وتضعف قوتها : حتى لا تقوى على الثبات أمام أعدائها ، وتغلق فى وجهها أبواب كل خير ، وتنذرها بوخامة العاقبة وسوء المصير . لهذا نهى الله تعالى عباده المؤمنين عن التنازع والاختلاف وحذرهم من عواقبه السيئة ونتائجه المؤلمة . قال تعالى : «**وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا إن الله مع الصابرين**»(٢) تفشلوا : تجبنوا . تذهب ريحكم : تضيع قوتكم ولا تنصروا على أعدائكم . إننا إذا قلنا لكم إن الاتحاد والتعاون يثمران كل خير وسعادة . فلا نستشهد على هذا إلا بما

(١) سورة آل عمران الآية ١٠٣ .
(٢) سورة الأنفال الآية ٤٦ .

كان للسلف الصالح والخلفاء الراشدين من الشرف الرفيع ، والعز المنيع ، والقوة التي قهروا بها الجبابرة ، وأسقطوا عروش الظلم والاستعباد ، ونشروا لواء العدل والمساواة بين الناس فى كل مكان ، والله يعلم أنهم ما نالوا ذلك بكثرة عددهم ، ولا بتوفر عددهم . ولكنهم نالوه بفضل الاتحاد والتعاون والصدق والوفاء ، والإخلاص والإخاء . قال تعالى : **« من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا »**(١).

أيها الناس : إن فى حوادث الأيام لعبراً جمة ، وعظات كثيرة ، يستفيد منها الرجل الرشيد أكثر مما يستفيده من خطب الوعاظ ونصائح المرشدين ، وها هى الحوادث تمر بنا فى كل يوم ، فهل آن لنا أن نعتبر ونتعظ ، هل آن لنا أن نفيق من سكرتنا ونتنبه من غفلتنا ، ونعلم أن فلاحنا موقوف على اتحادنا وتعاوننا ، وصفاء قلوبنا وإخلاص بعضنا لبعض ؟ أم نحن سنظل فى التفرق والتخاذل والشقاق ، والنفاق والغل والحسد ، والضلال القديم ؟

أيها الناس : اتقوا ربكم وتمسكوا بدينكم ، واعملوا بهدى نبيكم ، واقتدوا بأسلافكم الصالحين ، تفلحوا كما أفلحوا ، وتسعدوا كما سعدوا اتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم ، وتعاونوا على الخير وخير العمل ، يشملكم الله برحمته ، ويعمكم بإحسانه ، ولا تكونوا كالذين قالوا : سمعنا وهم لا يسمعون .

عن أبى موسى الأشعرى أن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم قال : « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً » . متفق عليه ، وعن النعمان بن بشير رضى الله عنه قال : قال رسول الله ، صلى الله عليه وسلم : « ترى المؤمنين فى تراحمهم ، وتوادهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر ، والحمى (رواه البخارى).

فى التحذير من الغش فى المعاملات وسوء عاقبته

الحمد لله الذى كرم الإنسان وأمره بالصدق والنصيحة والأمانة ، ونهاه عن الكذب والغش والخيانة ، لا إله إلا هو الحكيم العليم . وأشهد ألا إله

(١) سورة الأحزاب الآية ٢٣ .

إلا الله الشديد البطش بالخائنين . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله تبرأ من الغش .وحذر منه جماعة المسلمين. اللهم صل وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه والحافظين لحدود الله .

أما بعد فيا أيها المسلمون : إن الأرزاق لا تكون بالخداع ولا بالمقدرة . وإنما هى كالآجال مقررة عند الله ومقدرة . فلا يفوت العاجز رزقه ، ولا يحصل فوق ما قسم له القادر القوى ، فيا أيها الغاش هل يأتيك الغش برزق غير المقسوم ؟ ويا أيها الحالف بالأيمان الكاذبة هل يأتيك الحلف المكذوب بشىء سوى ما أراده لك الحى القيوم ؟ « كلا » والله لا يصيبك فى الدنيا إلا ما قضاه الله عليك . ولا ينالك منها إلا ما قسمه الله لك . فما هذا التدليس الذى لا يكسبك إلا شكاً فى قضاء الله تعالى . وما ذاك الغش الذى لا يفيدك إلا الوزر والخزى والعار ، وما عاقبة ذلك كله إلا ضياع الثقة وغم المصائب وهم الخسائر . فوالله ما تقدم عامل خان فى عمله ، ولا نجح صانع دلس فى صناعته ، ولا ربح تاجر غش فى تجارته ، وما هى إلا أيام معدودة ثم تنصرف الناس عنه ،وتغلق فى وجهه أبواب الربح، وتذهب البركة من عمل يديه ، وربما دارت عليه ، أو على ذريته الدوائر .

أيها الناس : إن الغش لذنب كبير ، ولا يكون إلا من نفوس خبيثة طاغية ،وإن الأيمان الكاذبة لا تصدر إلا عن قلوب مظلمة قاسية ، وكلاهما تغرير بالناس ، وتلاعب بالدين ، وخسران مبين. لقد أغضبت ربك أيها الحالف كذباً لترويج الصنعة أو البيع والشراء ، وأما أنت أيها الغاش فقد تبرأ منك الحبيب المصطفى ، صلى الله عليه وسلم ، لأكلك أموال الناس بالباطل وإهمالك لدينه ، وخروجك على ملته ، برعت فى ضروب النصب والاحتيال ، وتفننت فى أنواع الغش والخداع ، لا تراعى مخلوقاً ولا تخشى خالقاً ، فلا حول ولا قوة إلا بالله ، يدخل الإنسان على الصانع ، أو يقف المشترى أمام البائع ، فيسمع من الأيمان الكاذبة ما يخدعه به ، ويوهمه أن هذا الشىء لا نظير له ، وأنه أجود من صناعة أو بضاعة فلان وفلان ،وأرخص مما يباع فى جميع الحوانيت ،والله يعلم إنه لكاذب « **ويحلفون على الكذب وهم يعلمون أعد الله لهم عذاباً شديداً إنهم ساء ما كانوا يعملون** »(١). ولقد صار الغش فى كل

---

(١) سورة المجادلة الآية ١٤ ، ١٥ .

شىء حتى اللبن فى ضرع الحيوان ، ولو أمكنهم أن يبيعوا التراب ذهباً لفعلوا بلا مبالاة ولا حياء . ألا فليعلم الغاش أن كسبه سحت وحرام ، وأن كل لحم نبت من حرام فالنار أولى به ، وليعلم الحالف كذباً أن حقوق الذى خدعه محفوظة يستوفيها من حسناته فى يوم لا درهم فيه ، ولا دينار .

أيها الناس : إن الصناع والتجار من أكثر الناس اعتماداً على الله ، يفتحون محلاتهم كل يوم يبتغون من فضل الله ، لا يعتمدون على وظيفة ولا مرتب ، فما أحسنهم إذا كانوا أمناء صادقين . قال رسول الله صلوات الله وسلامه عليه : « التاجر الصدوق الأمين مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين » وما أسعدهم إذا هم قاموا بواجبهم نحو الله والناس ، ولم تشغلهم أعمالهم عن الله « **رجال لاتلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار . ليجزيهم الله أحسن ما عملوا ويزيدهم من فضله والله يرزق من يشاء بغير حساب** »(١) .

فيا أيها المسلم اتق الله وارض بما قسم الله لك ، واحفظ نفسك من الإفلاس فى الدنيا ومن خزى يوم القيامة « **يوم ينظر المرء ما قدمت يداه** »(٢) . « **واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون** »(٣). فى الحديث القدسى يقول الله تعالى : « عبدى إن رضيت بما قسمته لك أرحت نفسك وبدنك ، وكنت عندى محموداً ، وإن لم ترض بما قسمته لك سلطت عليك الدنيا تركض فيها ركض الوحش فى البرية ، ولا ينالك منها إلا ما قسمته لك وكنت عندى مذموماً » . وفى صحيح مسلم : « أن رسول الله، صلى الله عليه وسلم ، مر على صبرة طعام فأدخل يده فيها فنالت أصابعه بللا فقال: « ما هذا يا صاحب الطعام» ؟ قال : أصابته السماء يا رسول الله . قال: « أفلا جعلته فوق الطعام حتى يراه الناس ! ! من غشنا فليس منا » ، وفيه أيضاً أن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم، يقول : « إياكم وكثرة الحلف فى البيع فإنه ينفق ثم يمحق » . أى يروج السلعة ثم يذهب البركة من كسب البائع .

---

(١) سورة النور الآية ٣٧ ، ٣٨ .
(٢) سورة النبأ الآية ٤٠ .
(٣) سورة البقرة الآية ٢٨١ .

خطبة عيد النحر

الحمد لله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض وله الحمد فى الآخرة وهو الحكيم الخبير . . الله أكبر (تسعاً) الله أكبر ما لاحت إمارات الفلاح على من قصد بيته الحرام . الله أكبر ما تجلت عليهم أنوار الهداية لإقامة شعائر الإسلام . الله أكبر ما ساروا فى البر والبحر تحرسهم عناية الملك العلام . الله أكبر ما فارقوا أموالهم وعيالهم لينالوا الرضوان الأكبر . الله أكبر (ثلاثاً) الله أكبر ما جدوا فى المسير حتى شاهدوا الكعبة البهية . الله أكبر ما علت أصواتهم بالتلبية إجابة لنداء الخليل فى البرية . الله أكبر ما صلوا فى مقام إبراهيم ، ونالوا المواهب السنية. الله أكبر ما طافوا وسعوا وشربوا من ماء زمزم المطهر . الله أكبر (ثلاثاً) الله أكبر ما هامت بهم مطايا الأشواق إلى عرفات. الله أكبر ما ابتهلوا فيه إلى الله وغفرت لهم جميع السيئات . الله أكبر ما وقفوا بالمشعر الحرام شاكرين الله على ما هداهم إلى معالم السادات . الله أكبر ما وصلوا منى ونحروا هداياهم وحلق كل أو قصر . الله أكبر (ثلاثاً) سبحان من أغدق عليهم سحائب الرحمة والغفران ، سبحان من متعهم بزيارة الحبيب سيد ولد عدنان ، سبحان من أسعدهم بالسلام على المختار وصاحبيه وأجزل لهم الإحسان ، سبحان من هنأهم بنيل المأمول ، وبلوغ المقصود وتمم لهم الحظ الأوفر . الله أكبر (ثلاثاً) سبحان الله والحمد لله وهو أهل التنزيه والثناء . سبحان الله والشكر لله ، وهو ذو الفضل العظيم واسع الكرم والعطاء . لا إله إلا الله لا رب غيره ، ولا معبود سواه ، وأشهد ألا إله إلا الله جعل الأعياد مواسم الإحسان والرضوان . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله المبعوث بصفوة الأديان ، اللهم صل وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه الصادقين المخلصين

أما بعد فيأيها الناس : هذا يوم العيد الأكبر لمن وقف بالأمس بعرفات فمحيت سيئاته وغفرت ذنوبه . هذا يوم السعد وبلوغ القصد لمن كرمت

سجاياه وحسنت نواياه . هذا يوم الفرح لمن تملى بأنوار حبيب الله وخاتم أنبيائه هذا يوم الهنا لمن بلغ المنى وصلى بالروضة بين القبر الشريف والمنبر . كان هذا يوم الوفاء وصدق الأخاء بين جماعة المسلمين ، كان يوم تلاقى الإخوان بنفوس صافية وقلوب سليمة . كان يوم صلة الأرحام والسعى فى إصلاح ذات البين . لكن جعلناه يوم لهو ولعب وإسراف فى اللذات والشهوات ، وإضاعة الأوقات فى كل عمل غير مفيد ولا حميد . تركنا فيه محاسن الآداب إلى بدع وعادات لا يقرها دين ولا يقبلها عقل سليم ، لو كان لنا قلوب لذابت أسفاً على حال المسلمين من بين العباد . لو كان لنا شعور حى لتألمنا لما حل بالإسلام من إذلال واضطهاد واستعباد . والله لو استقمنا كما أمرنا مانزلت بنا المصائب ولا تحكمت فينا يد الأجانب ، لو تمسكنا بديننا لنصرنا على أعدائنا ، وعاد لنا عزنا ، لو تحلينا بالصدق والوفاء والإخلاص والأمانة لتقدمنا على جميع الأمم « **إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون** »(١) . ما أجمل هذا اليوم لو كان المسلمون فيه متحدين ، ما أحسنه لو كانوا فيه أوفياء أمناء صادقين . ما أسعده لو كانوا إلى إصلاح القلوب ملتفتين . ما أهنأه لو كانوا فيما يرقى الأمة متضامنين متعاونين . فاتق الله أيها المفتون واسرع إلى حسن المآب ، اتق الله أيها المغرور ولا تفرح بزينة الظاهر والباطن من الحياء خراب : « **ذلك يوعظ به من كان منكم يؤمن بالله واليوم الآخر ذلكم أزكى لكم وأطهر والله يعلم وأنتم لاتعلمون** »(٢) فى الحديث القدسى : « يا ابن آدم خلقتك بيدى وربيتك بنعمتى وأنت تعصينى وإن رجعت إلى تبت عليك ، فمن أين تجد لك رباً مثلى ، وأنا الغفور الرحيم ؟ » . وعن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم : « لازلتم منصورين على أعدائكم ما دمتم متمسكين بسنتى فإن خرجتم عن سنتى سلط الله عليكم من أعدائكم من يخيفكم ، فلا ينزع خوفه من قلوبكم حتى تعودوا إلى سنتى » .

وفى الخطبة الثانية بعد حمد الله والصلاة والسلام على رسوله والتكبير سبعاً تقول : فى هذا اليوم تذبح الضحايا فمن الذى يطعم منها المساكين ويهدى

---

(١) سورة النحل الآية ١٢٨ .

(٢) سورة البقرة الآية ٢٣٢ .

أرحامه وجيرانه ؟ فى هذا اليوم يكثر الخير فمن الذى يمنح المحتاجين بعض ما تشتهى أنفسهم وعيالهم ؟ من الذى يعطف على الأرامل واليتامى بقليل من مال الله الذى عنده ؟ من الذى اعتبر بحوادث الأيام وتقلبات الزمان ؟ من الذى أيقن بالموت وفى وحشة القبر وأهوال القيامة تفكر. فاتقوا الله وتقربوا إليه بالضحايا ، وتوددوا إلى بعضكم بالهدايا ، واسعوا فى إصلاح ذات البين ، وليصفح كل منكم عمن أساء إليه ، وصلوا الأرحام وأكرموا الأيتام ، ومن جاء من طريق فليرجع من آخر لتكثر لكم الشهادات ، وكبروا الله أيام التشريق عقب الصلوات« . . . **ولذكر الله أكبر والله يعلم ما تصنعون** »(١) .

روى الطبرانى أن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، قال : « من ضحى طيبة بها نفسه محتسباً لأضحيته كانت له حجاباً من النار » .

* * *

(١) سورة العنكبوت الآية ٤٥ .

فى فضل بنـاء المساجد

الحمد لله الذى أضاف المساجد لنفسه تشريفاً لقدرها فقال تعالى : **« وأن المساجد لله »**(١) وحث على عمارتها تسهيلا للعبادة وعناية بأمرها . وأثنى على من أحياها ببناء أو عبادة ، وجعلها موضع التجلى والتحلى ، لا إله غيره ، ولا معبود سواه ، وأشهد ألا إله إلا الله يسجد له من فى السموات والأرض ، وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله إمام الأنبياء والشفيع يوم العرض ، اللهم صل وسلم على هذا النبى البهى ، أول من أسس المساجد فى الإسلام ، وعلى آله وصحبه الذين أثنى عليهم بقوله : **« رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين »**(٢) أما بعد ، فقد قال الله تعالى : **« إنمـا يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين**(٣) .

عباد الله : المساجد بيوت الله ، فيها يعبد ، وفيها يذكر اسمه . حقاً إنها بيوت الله ، وإن من شأن الكريم أن يكرم من زاره فى بيته ، وأن المساجد فى الأرض مزار الملائكة فى السماء . منها تصعد الأعمال ، وإليها تنزل الرحمة . وإذا كانت العلماء حماة الدين ، ومصابيح الهدى ، فالمساجد حصون الأمان لمن تعلق بها قلبه ،وأخلص لله فى عمله ، يعمر المساجد أهل الغيرة على الدين ، والحب للإسلام ، والصدق فى الإيمان ، تبنى المساجد لإقامة الشعائر وإظهار أعلام الدين ، لا لنوم فلان ولا للتحدث مع فلان ، تبنى المساجد فيفرح ببنائها أهل السماء والأرض ، ويجعلها الله مهبط الرحمة والرضوان . تبنى فتدعى ببيوت الله ، فطوبى لمن شيدها ، وطوبى لمن فيها تعبد . المساجد فيها تقام شريعة المصطفى ، ومنها تصدر فضائل الأمة .

---

(١) سورة الجن الآية ١٨ .

(٢) سورة التوبة الآية ١٠٨ .

(٣) سورة التوبة الآية ١٨ .

أيها الناس : إن المساجد تشهد يوم القيامة لمن بناها أو أحياها بالذكر والطاعة . وإن المساجد من أعلام الدين إذا بنيت ، ومن علامات النصر والخير إذا عرف حقها المؤمنون ، عرف هذا أهل الخير قبلكم ، فبنوا المساجد مثلكم ، ولم يتركوها عرضة للضياع ، بل وقفوا لها من الغلات ما يصون حياتها ، ويضمن بقاءها ، وقد فرحوا بها يوم افتتاحها ،وفرح معهم بها أهل الأرض والسماء. وقد فارقوا الدنيا وتركوا آثارهم ،ومساجدهم شاهدة لهم بصدق الإيمان وقوة العزيمة . وإن إقامة هذا المسجد العظيم للسان ناطق ، وشاهد صادق ، على حب من أقامه للخير ، وغيرته على شعائر الدين ، فلئن دعونا للأولين السابقين ، وشكرنا لهم حسن صنيعهم ، فلن يفوتنا أن نضرع إلى الله الكريم أن يتقبل أعمالكم ، ويجزيكم أحسن الجزاء وأعظم الأجر . ففي الحديث القدسي : « عبدي إذا لم تشكر من أجريت الخير على يديه لم تشكرني » . اللهم كما أكثرت المساجد في البلاد أكثر للمساجد من أهل الغيرة والإصلاح ، وأكثر في المساجد من أهل الهدى والاستقامة ، حتى يبقى الدين ، وتبقى الشعائر يا رب العالمين . في الحديث القدسي عن رب العزة : « إن بيوتي في الأرض المساجد ، وإن زواري فيها عمارها ، فطوبى لمن تطهر في بيته وزارني في بيتي ، وحق على المزور أن يكرم زائره » . وفي الصحيحين « من بنى لله مسجداً بنى الله له كهيئته في الجنة » ، وفي رواية : « بنى الله له بيتاً في الجنة » .

* * *

فهرس الكتاب

الموضـــوع | الصفحة

ترجمة المؤلف ونشاطه ٥

الفصل الأول

فى مبادئ الخطابة تعريفها لغة واصطلاحاً ١٣

الخطابة ملكة — الخطابة فى عرف الأدباء — الخطابة عند المناطقة —
المحاضرة — المناظرة ١٤

غاية الخطابة عند الحكماء — فضلها وشرفها — فوائدها ١٥

أصلها النظر والاختبار — صلة الخطابة بالمنطق... ... ... ١٦

طرق تحصيلها أربعة : الارتياض والاحتذاء ١٧

الفصل الثانى

مجمل تاريخ الخطابة — حالها قبل الجاهلية ٢٠

أول من دون قواعدها ٢١

الخطابة فى الجاهلية — عوامل اشتهارها فى ذلك العصر ٢١

مواضع استعمالها عندهم — خطب العرب — صفة الخطيب عند التأدية
أشهر خطباء الجاهلية... ... ... ٢٢

الخطابة فى الإسلام — أعظم البواعث فيها ٢٣

الفضل فى ارتقاء الخطابة وتهذيبها ٢٥

الخطابة فى النهضة الأخيرة... ... ... ٣١

الفصل الثالث

فى أصول الخطابة ٣٣

الأصل الأول : الإيجاد ٣٣

الأدلة الذاتية والعرضية ٣٥

المبحث الثانى

فى آداب الخطابة وهى عشر صفات... ... ... ٤١

الموضـــوع | الصفحة

المبحث الثالث

في الأهواء والميول ٤٥

الأصل الثـانى : التنسيق وفيه ثلاثة مطالب : ٥١

المطلب الأول

المقـــدمة ـ حسن الافتتاح ٥١

المبحث الثـانى

أنواع الافتتاح : ٥٢

في بيـان المقصد ٥٤

المبحث الثالث

في تقسيم الخطاب ٥٥

المطلب الثـانى

في الإثبات ـ تبيان القضية ـ التفنيد... ... ... ٥٥

المطلب الثالث

في الختـــام ٥٧

الأصل الثالث : التعبير ٥٩

الأمر الأول : التفنن ـ الافتنان ٥٩

الأمر الثـانى : متانة الأسلوب ٦١

الأمر الثالث : الاقتباس ٦٢

الأمر الرابع : الأداء الخطابي وما لابد منه فيه ٦٤

الفصل الرابع

في أنواع الخطابة ٦٩

النوع الأول : الخطابة العلمية ٧٠

خطب المدح والمنهاج العلمي لها ٧١

خطب التأبين وأجزاؤها ومنهاجها العلمي... ... ... ٧٣

خطب الشكر ومنهاجها العلمي ٧٧

خطاب حافظ إبراهيم إلى الأستاذ الإمام ورد الأستاذ الإمام عليه ... ٧٨

خطب التهنئة والتكريم ومنهاجها العلمي ٨٠

النوع الثـانى : الخطابة السياسية ـ واجب الخطيب السياسي ... ٨٢

النوع الثالث : الخطابة العسكرية والواجب فيها ٨٥

الموضـــوع	الصفحة

ما يلحق بالخطابة العسكرية ـ خطب التحريض ـ خطب التقريع ... ٨٦
خطب الطلب والوصية ومناهجها العلمى ٨٨
وصية أبى بكر لقائد جيشه ـ وصية عمر لسعد بن أبى وقاص رضى الله عنهم ٨٩
خطب التوصية والشفاعة ٩٣
النوع الرابع : الخطابة القضائية ـ واجب المحامى ورجال النيابة... ٩٥
النوع الخامس : الخطابة الدينية ـ أساليب الوعظ والخطابة فى الصدر الأول ٩٩
هدى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى خطبه ١٠٣
ما يظنه بعض الناس أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يعتمد على السيف دائماً وخطأ ذلك الظن ١٠٤
حال الخطب اليوم وما يجب أن تكون عليه ١٠٦
واجب الخطيب الدينى فى التكلم على الموضوع الخاص كالقتل ، والزنا ، والربا ، وتناول المسكرات... ... ... ١٠٨
وإذا خطب فى باب الأوامر والفضائل والمواسم ١٠٩
أفضل الخطب ما كان مطابقاً لمقتضى الحال ١١٢

الفصل الخامس

نماذج من مواعظ القرآن الكريم والسنة النبوية ١١٥
صفات المؤمنين وعلامات حسن الخلق ١١٥
النهى عن الانهماك فى طلب الدنيا ١٢٠
الحث على الكسب من طريقه الحلال ١٢٥
الزواج وعادات الناس ١٣٠

الفصل السادس

نماذج من محاضرات علمية دينية اجتماعية خلقية ١٣٧
إعداد النشء ليكونوا رجالا ١٣٨
الاقتصاد وأثره فى الفرد والجماعة ١٤٣

الموضـــوع	الصفحة
الحسد وآثاره السيئة فى المجتمع	١٤٧

الفصل السابع

نمـاذج من الخطب المنبرية بروح عصرية	١٥٥
أهملنا ديننـا فساءت حالنا	١٥٥
التحذير من الربا	١٥٨
المحافظة على الصلوات والخشوع فيها...	١٦١
التحذير من المسكرات والمخدرات	١٦٣
مضار شهادة الزور	١٦٦
حقوق الأبناء على الآباء	١٦٩
حقوق الآباء على الأبناء	١٧٢
إرشاد الصـــائم	١٧٤
خطبة عيد الفطر	١٧٨
الحث على الاتحاد والتعاون والتحذير من التفرق	١٧٩
التحذير من الغش فى المعاملات وسوء عاقبته	١٨١
خطبة عيد النحر	١٨٤
فضل بنـاء المساجد	١٨٧

* * *

رقم الإيداع بدار الكتب ٧٢٦٤ / ١٩٨٤

الترقيم الدولى ٣- ٠٩٣- ١٤٢ -٩٧٧

دار النصر للطباعة الإسلامية

١٢ نشـــاطى - شـــبرا مصـــر

تليفون : ٧٧٣٢٢١

١٩٠٢